

الفشل

أسبابه ونتائجُه
من زاوية التحليل النفسي

الفشل

أسبابه ونتائجُه
من زاوية التحليل النفسي

تعريب:

د. طلال حرب

منشورات دار الأفاق الجديدة بيروت

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لدار الأفاق الجديدة
الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م

تمهيد

الفشل هزيمة مرّة تتربص بالإنسان في ميادين الحياة كافة: العاطفية والاجتماعية والمهنية والفكرية، فيسقط الإنسان هناك حيث النجاح ممكن ومتوقع وتتلاشى الآمال والأحلام على صخرة الواقع الصلبة، يتحول المرء صرخة في هوة لا ترحم. ويحاول كثير من الناس تفهّم أو تعليل فشلهم أو فشل قريبهم أو صديقهم أو أحد معارفهم، فيردّون هذا الفشل إلى عوامل خارجية كالظروف المهنية أو الاجتماعية أو السياسية، أو إلى نقص في المؤهلات أو عدم مرونة تجاه العوائق والمعطيات. والواقع أن الفشل حالة تختلف باختلاف الأشخاص فمنهم من يمر به فيصبح أكثر قوة، ومنهم من يتعرض له فيحطم الفشل أجنحته، ومنهم من لا يستطيع تحمّل مراراته فيهلك فيها؛ ومنهم، وهذا هو الأخطر، من يسير مباشرة إلى الفشل بقدميه، فيسعى إليه سعياً نتيجة روااسب قديمة وظروف نفسية وعائلية صعبة مرّ بها في طفولته، وهو ما يتوقف عنده هذا الكتاب بشكل عميق.

فالفشل أحياناً لا يكون مجرد عارض طرأ على الإنسان كما يخيل إليه أو إلى البعض، بل يكون نتيجة حتمية لصراعات داخلية عنيفة ولجروح نفسية تركت أثرها في الإنسان وحملته على الفشل حملاً، لذلك يجب الاستعانة بالتحليل النفسي لدراسته واكتشاف أسبابه وتوضيح حقيقة نتائجه، وهو ما يجهد هذا الكتاب للقيام به.

ولعل من أكثر الأمور إمتاعاً أن هذا الكتاب لا يقتصر على الأبحاث النظرية

في دراسة الفشل كعارض من أعراض الأمراض النفسية، بل نراه يركز على الأمثلة المقتطفة من حياة الأشخاص العاديين. فهذا موظف ناجح حصل على ترقية وصار رئيساً مسؤولاً، فتوقع الجميع له مستقبلاً باسماً فإذا هو يفشل فشلاً ذريعاً أودى بعلاقته برفاقه وبحياته العائلية وصحته النفسية. وهذا شاب أحب فتاة جميلة وغنية ومن عائلة محترمة، فحسده أكثر من شخص على ما أصاب من نجاح لكن حياته صارت جحيماً. وهذا رجل ناجح ويعيش حياة مترفة ويحظى باحترام الجميع وتقديرهم، ولكن الجميع يعلمون أنه يخفي بهذه المظاهر البراقة فشلاً عائلياً رهيباً حطّم حياته الزوجية والعائلية، ثم تسبب بضياغ ولده. وهذا رجل يحب زوجته لكنه يعاني في حياته الزوجية من اضطرابات جنسية شديدة. فلماذا وصل إلى الفشل كل هؤلاء الذين تألقوا ووصلوا إلى مكانة حسدهم عليها الكثيرون؟

ولا يقتصر هذا الفشل البارد المدمر على الأشخاص العاديين، بل يعاني منه أيضاً المشاهير، ونجد في هذا الكتاب عرضاً لمحطات هامة في حياة ثلاثة من الأعلام المشهورين في فرنسا، هم جان - جاك روسو وروبسبير و نابوليون . ونلمس بوضوح كيف ساروا بخطى ثابتة، من تلقاء أنفسهم، إلى الفشل الذريع الذي أودى بهم بعد أن كانوا في قمة المجد، وتبين كم عانوا أحداثاً أليمة رافقت ولادتهم وطفولتهم الأولى، وتركت أثراً لا يمحي في شخصياتهم، ظل يفعل فعله حتى قادهم إلى الفشل الذريع . فروسو صار أديباً مشهوراً، ومع ذلك عاش حياة عاطفية بائسة نتيجة شعوره المتلاحق بالذنب لأن أمه قضت في أثناء ولادته .

ووصل روبسبير إلى قمة السلطة، لكنه لم يستطع البقاء طويلاً فيها إذ انقلب عليه رفاقه واعتقلوه، غير أن أصدقاءه وأعدائه أنقذوه وتجمعوا حوله ينتظرون منه إشارة صغيرة للانقضاض على أعدائه، فأمضى الليل حائراً متردداً، فتفرق أعداؤه معتبرين أن شيئاً لن يحدث، عند ذلك اغتتم أعداؤه الفرصة السانحة وانقضوا عليه مجدداً وقادوه إلى المقصلة !

لماذا وقف دون أي تحرك عندما بدا أن الموقف قد انقلب كلياً لصالحه؟

لماذا أضاع كل هذا الوقت الثمين، وهو العارف بحرج المواقف وشراسة الرجال إبان الثورة الفرنسية؟

ووصل نابليون إلى قمة السلطة، خاض الحروب الكثيرة وانتصر فيها بجرأة نادرة وغداً أمبراطوراً. وبدلاً من تعزيز امبراطوريته ما فتىء يثير الحروب ويناوئى الدول حتى أطاحت به؟

هذه المواقف، بجذورها النفسية، هي التي يهتم بها هذا الكتاب الرائع متوسلاً التحليل النفسي. ولعلنا نكون بترجمته قد سدّدنا ثغرة في مكتبتنا العربية والنفسية والعائلية. وتوخياً للفائدة ذيلناه بما توجب من البحاشي والتعليقات.

أعراض الفشل

إن أعراض الفشل تظهر لنا بطريقة متنوعة للغاية حسبما تنقل بتحديد، كلي أو جزئي، دائم أو عرضي، نشاط فرد ما وتطوره الاجتماعي. ونواجه كذلك درجات مختلفة من السوء، تبدأ من المظاهر الأكثر خطورة، التي تحدث منذ الطفولة، إلى الأعراض البسيطة غير الخطرة. وهذه الأعراض قابلة للإدراك بصعوبة، حتى للعين المدربة، عندما يبقى الاضطراب العاطفي الذي هو سببها، كامناً على أثر بعض الظروف، أو أيضاً عندما ينجح الفرد في التكيف مع ما يسوؤه ويصحح نتائجه بنشاط تعويضي.

وفي الحالات الخطيرة، لا يتوصل المرء إلى التكامل مع شخصيته في نطاق النشاط الجماعي لبيئته. ويعاني تطوره الاجتماعي منذ بداياته. في طفولته، يخفق في دراسته، لا يفهم مع محيطه، ينزل ويوجد لنفسه العديد من الصعوبات التي تمنعه من متابعة طريقه، وهذا رغم ذكائه وقدراته المؤكدة. والصعوبات قد لا تظهر إلا بدءاً من لحظة ما من تطوره، بوساطة المراهقة، مثلاً، أو عندما يتعلق الأمر بالتقدم إلى امتحان والنجاح بعد جهد طويل وشاق. والحالات الأكثر نموذجية تقدم إلينا من قبل الأفراد الذين يبدو أن تطورهم يتم بشكل طبيعي والذين، فجأة وعلى أثر بعض الظروف المجهولة، عادة من قبل الشخص نفسه ومحيطه، يحيدون عن الطريق ويجدون أنفسهم، بدءاً من هذه اللحظة، تقريباً فاقد التوازن، دون أن يكون ممكناً تصحيح السوء بالإرادة أو بالتفكير العقلي.

وفرويد، بعد أن لاحظ هذه الاضطرابات، وصف الشخص النموذجي من «أولئك الذين يفشلون في النجاح»، لأنه، في عدد ما من الحالات، النجاح هو الذي يبدو غير محتمل، وخاصة عندما يكون هذا النجاح علنياً ويترجم بتغير، بتحسّن جوهرّي أخلاقي أو مادي في الحياة. وإلى مثال «أولئك الذين يفشلون في النجاح»، نستطيع أن نضيف اليوم مثال «أولئك الذين يفشلون بعد النجاح». وحينئذ نواجه كائنات استثنائية ناجحة بشكل لامع، ولكنهم، ما إن يكتسبوا هذا النجاح، حتى يبدو أنهم مرغمون على إلغائه، كما لو أنهم محكومون بتدمير نتائجهم. وأولية الإلغاء هذه عندما تعمل عند بعض رجال الدولة، كنابوليون، مثلاً، تمتلك نتائج لا حصر لها، كما سنرى لاحقاً، ويستحق في نطاق هذا العمل، التفاتاً خاصاً، لأنه يقدم شكلاً خاصاً من أعراض الفشل الذي يحول دون نجاح الفرد، في مثل هذه الحالات، لكن، هذا النجاح عندما يُبلغ، يحدد آثاره ويدمر نتائجه.

لنضع يدنا الآن على بعض الحالات الواقعية للتوصل إلى فهم كيفية ظهورها، في الممارسة، هذه الأوليات النفسانية التي تفسح في المجال لأعراض الفشل.

هذه حالة موظف عمره خمس وثلاثون سنة، وهو معروف بانتظامه في العمل والدقة الشديدة التي يضطلع بوظائفه وفقها، في محل تجاري كبير. وهو دقيق، يقوم بكل مستلزمات خدمته. ورب العمل ورفاقه متفقون على اعتباره رجلاً لا عيب فيه. وقد تزوج من موظفة في المحل ولهما ولد عمره سنتان، الزوج والزوجة يبدوان متفاهمين جداً. لكن مدير الدائرة التي يعمل فيها هذا الموظف مات منذ فترة وجيزة ودُعي لخلافته. وبدءاً من هذه اللحظة لوحظ تغيير في سلوكه. سابقاً كان دائماً منتظماً في العمل، وهو الآن يصل متأخراً. وبدأ يتناقش مع رؤوسه، ويوجّه إليهم تأنيبات لقاء أمور تافهة. وجرى الأمر نفسه مع زوجته. وأخذ يشكو من كونه قلقاً ولا ينام. وأخيراً اعتقد أنه مريض، وخشي من أن يكون مصاباً بالسرطان، فانتهى إلى استشارة الأطباء. وتبين أن

لديه توتراً شريانياً خفيفاً، في خفقان القلب. فخضع لعلاج في روي (Royat)^(١) ولآخر في فيشي^(٢) (Vichy) وهو إذ اقتنع بأنه مصاب بمرض قلبي، ترك عمله للاعتناء بنفسه. فنصحته طبيب نفساني بمدينة ديفون^(٣) (Divonne) وحماماتها. ولكن لا الحمامات، ولا أنظمة الحمية، ولا الأدوية استطاعت تخليصه من قلقه وحصره. كان يشعر لبعض الوقت أنه في صحة جيدة، ثم يعاود السقوط من جديد. فأصبحت حياة الأسرة صعبة. والعلاقات الجنسية تباعدت أكثر فأكثر، وانتهت إلى التوقف كلياً. وأدت هذه العنة إلى تدخل طبيب متخصص بالأمراض العصبية أوصى بالخضوع لعلاج تحلفسي^(٤)، أتاح حينئذ اكتشاف أعراض الفشل التي بدأت بالظهور منذ موت المدير الذي خلفه الموظف. إنه لم يحتمل نجاحه المادي، وهذا النجاح هو الذي أطلق عنده على ما يبدو، كل الظواهر المرضية التي يشكو منها.

إن حالات من هذا النوع على جانب من الانتشار بحيث نستطيع اعتبارها نموذجية، ويتعلق الأمر عادة بالموظفين الذين لا يستطيعون النجاح في منصب مدير سابق أو رئيس، مات أو ترك العمل. فكل شيء يبدو طبيعياً طالما أنهم موجودون في منصب مرؤوس. وتظهر اضطراباتهم عندما يتوجب عليهم أن يكونوا على رأس المؤسسة. وتطالعنا هذه القضية مع الأولاد أو الأصهار الذين يكتشفون أنهم غير قادرين على الإطلاق على خلافة والدهم أو حميهم الذي كانوا موظفين ممتازين عنده.

ولا يسود الحصر والقلق بالضرورة الجدول العيادي لأعراض الفشل. فالموظف، والابن اللذان صارا ربّي عمل يستطيعان، بالتضامن مع شخص ما، أن يضمّا إليهما مسؤولاً يتركّان له إدارة الأعمال. إنهما يسعيان بهذه الطريقة إلى

(١) مدينة فرنسية فيها حمامات مياه معدنية.

(٢) مدينة فرنسية شهيرة بمياهها المعدنية.

(٣) ديفون مدينة فرنسية فيها حمامات مياه معدنية.

(٤) تحليلي نفسي (Psychanalytique).

التهرب من الصعوبات التي تقتضيها مهمتهما. ولكنهما، غالباً، يختاران معاونة سيئاً، عمداً أو عن غير عمد، يصل إلى تعريض الأعمال للخطر. ولأنه غير مؤهل لإدارتها، يجازف هذا المساعد بتخريبها. وفي بعض الحالات، يسعى الشريك المختار في مثل هذه الظروف إلى الاستئثار بالأمر وطرد المالك. وهكذا يتنظم الفشل على المستوى الاجتماعي.

وقد يرد بعض الأفراد على نجاحهم بنزوات إجرامية. فالموظف أو الابن أو الصهر المدعوون، بسبب موت رب العمل، إلى رأس المؤسسة يندفعون في مضاربات تعيسة. وإذ هم مأخوذون في الدوامة، يراكمون الديون، ويبدأون بعدم دفع كمبيالاتهم، يزورون ميزانيتهم، يوقعون شيكات بلا رصيد، ويرتكبون أعمال نصب واحتيال، وينتهون حينئذ إلى الفشل على مقعد المتهمين.

في هذه الحالات نواجه مبحثاً خاصاً لأعراض الفشل، وهو يعمل على المستوى الأخلاقي، والاجتماعي في الآن نفسه، وينهض من علم الإجرام. ومن غير المجدي القول إننا نجد أنفسنا أمام مرضى حالاتهم هي عموماً مفهومة بشكل سيء من المحيط وممثلي العدالة. إن تحقيقاً تحلفسياً يظهر لنا، عند هؤلاء الرجال، ترابطاً نفسانياً بين الأسباب والنتائج، ونزاعاً نفسياً كافياً ملزماً بشكل إجباري بالظهور بوساطة علامات مرضية قابلة لقيادة المنتفعين إلى السجن، وفي حالات أكثر خطورة، إلى الأشغال الشاقة أو حتى إلى المشنقة، تبعاً للجرائم المرتكبة.

ولا ننسى التذكير بأعراض الفشل المنطلقة عند بعض رابحي الجائزة الكبرى في اليانصيب الوطني. فالمرء يظن أنه قد حقق حلمه. فيتخلى عن العمل الصغير الذي أتاح له العيش بنزاهة حتى ذلك الحين. فيشتري دارة فيلاً، ولكن بدلاً من القدرة على التمتع براحة بال بتوفيقه، يشعر أنه مضطهد، فيعزل ثم يفر من المجتمع. إنه يصبح نزقاً سريع الغضب مع أفراد عائلته وأكثر فأكثر غير اجتماعي وتجبر هذه الصعوبات صعوبات أخرى تجعل منه شخصاً مختل التوازن.

في كل هذه الحالات، نتحقق من أن أعراض الفشل تظهر فقط بدءاً من اللحظة التي غيرت فيها ظروف خارجية (تقدم في المهنة، خلافة أب أو رئيس في العمل، جائزة كبرى، . . . الخ) وضع الأفراد. لكن هذا التغيير في الوضع ليس بحاجة إلى الحدوث بطريقة مرئية جداً لإثارة العلامة المرضية نفسها. فالدور البسيط للترقية بالأقدمية في مهنة، والنجاح البسيط العادي في قضية ما، أو إرث، أو النجاح في الحب - كل هذه الأمور قادرة على إطلاق هذه العلامات المرضية.

لنأخذ مثلاً: السيد أ. . . إنه يعيش سعيداً مع زوجته وأولاده. الزوجان يديران مرآباً يشغل قسماً كبيراً من وقتهما. ومع تطور صناعة السيارات ازدهر عملهما وأصبح شيئاً فشيئاً ذا أهمية كبيرة. وتحول المرآب الى مصنع. فغيّرت العائلة عملها. اشترت سيارات، وبدءاً من هذه اللحظة بدأت أعراض الفشل بالظهور. وأصبح الزوج غريب الأطوار مع زوجته، فأخذ يرسلها للتنزه مساءً مع بعض أصدقاء ويطرح عليها بعد ذلك كل أنواع الأسئلة عن المخاطر التي يعرضها لها. فاستسلمت المرأة أولاً لهذه اللعبة الصغيرة بشيء من اللهو والتسلية، ولكن، بمناسبة أمسية في السينما مع رجل آخر بشكل خاص، ذهبت أبعد من ذلك، وروت المغامرة لزوجها، مقتنعة بأنها تستطيع أخيراً الإجابة عن رغباته السرية. فأظهر هذا الأخير الغيرة، ثم أمضى الليل خارجاً مع بائعات الهوى. وانفجرت نقاشات عديدة، وخلالها سيطر على الزوج غضب شديد فلاحق زوجته بالسكاكين والمسدسات. وهدّد إما بقتلها أو بالانتحار. فتعرضت المرأة، المثقلة بتأنيب الضمير والمعتقد أنها تدفع بزوجها إلى الانتحار، لانهايار عصبي أجبرها على استشارة طبيب مختص.

نجد في هذه الحالة أن انطلاق العلامات المرضية التي كانت العائلة ضحيّتها، مشروط بالنجاح المادي في الأعمال. وترجمت أعراض الفشل، عند الاثنين معاً، بانهايار حياتهما العاطفية، في حين أن تطور الأعمال يؤمن لصاحبي العلاقة نجاحاً مادياً لم يكن يستطيع أي تبذير للزوج المجازفة به.

وهذا هو الآن مثال رجل شاب نجح في زواج باهر. لقد تزوج ، رغم جميع التوقعات فتاة شابة جميلة وغنية ومن عائلة محترمة . وبدا أنها تحبه . فأعلن الزواج أولاً كنجاح ، وبدا أنه يرضي آمنيات الرجل الشاب ويزيد . ولكن سريعاً جداً تأكد هذا الشاب من أن امرأته ، التي اعتقد أنه يحبها بشغف قبل الزواج ، لم تعد تهمة . وقد بذل جهوداً كثيرة لإخفاء اضطرابه ، ولكن عبثاً : إنه عاجز وعنين . ولأنه مغتاط ، أخذ يبحث عن أعذار لحالته باتهام زوجته . ولكي يشعر بالرغبة الجنسية قادها إلى بيوت خاصة حيث أجبرها على الاستسلام لبائعات الهوى . إنه يريد مراقبة المشهد والقيام بدور « المتلصص » .

وبعد جلسات من هذا النوع ، توصل أحياناً إلى النجاح في علاقاته مع زوجته ، وهي علاقات حدثت في المنازل المشار إليها ، لقد عامل زوجته كبائعة هوى وقد ولد لهما طفل في هذه الظروف ، ولكنه كان ضعيف البنية وعليلاً فمات بعد مرض قصير بعد أن قارب عمره السنة . وعلي أثر هذا الموت ، اختل توازن الأم كلياً . وصار منزل العائلة بشكل نهائي مخرباً من جراء هذه الأحداث التي لم يسمح أي شيء ، قبل الزواج ، بالتنبؤ بها ؛ لقد كان هذا الرجل الشاب عازباً رصيناً وميلاً قليلاً إلى المخاطر .

وفي حالات أخرى ، يترتب الفشل بالطريقة التالية : الرجل الشاب أو الفتاة الشابة ، بدلاً من الزواج من الشخص الذي يُحلم به ، يقرر (أو تقرر) فجأة الزواج من شخص آخر ، القادم الأول (أو القادمة الأولى) . ولكنهما يتبينان سريعاً أنهما أخطأ الطريق . فالعائلة لا تنجح ، شريكهما يثير الاشمئزاز ويكتشفان لاحقاً ، أنهما تزوجا في ظروف مستحيلة ويظهر لنا التحليل النفسي أن الأمر يتعلق هنا بشكل خاص بنوع من الهرب أمام الحب . وهذا الهرب ، في حالة نعرفها ، قاد فتاة شابة إلى السجن . وهي إذ أغرمت بشدة برجل شاب من عائلة محترمة كان بغازلها ، ارتكبت جنحة فأمضت في السجن ثلاثة أشهر . وقد خرجت منه مكتئبة جداً ، إلا أنها نسيت الشاب . إن علاجاً بدا ضرورياً برهن لها أن السجن كان الوسيلة التي بوساطتها ، دون أن تدري ، قتلت حبها لتلبس ثياب الحداد عليه .

إن تجربتنا تعلمنا إلى أي حد يكون بعض الأشخاص المتناقضين مع أنفسهم قادرين على القيام تماماً بنقيض ما يكونون عادة مدفوعين إلى القيام به . وسنوضح في الفصل القادم كيف أن هذا الميل في الذهاب إلى النقيض من الإدراك الشخصي يمكنه أن يتطور عند الأفراد . في الوقت الحاضر، لنسجل ببساطة أن شخصاً، بمقتضى ضرورة داخلية غامضة، يمكن أن يختار كزوج شخصاً هو نقيضه وهو، بتأثير بعض الأشياء، سيصبح عدوه . فإحدى الأمهات إذ تحس بميل مماثل، يمكن أن تصبح خصماً لأولادها بالذهاب إلى نقيض مشاعرها الطبيعية . ويستطيع رجل كذلك أن يقوم بكل شيء لتفتيت أسرته أو لإفشال مشاريعه .

وهناك حالات يتدخل فيها الفشل بشراسة، ليس بشكل مضاعفات نفسية أو اجتماعية، بل بشكل حوادث . ففي ظروف الحياة، يكفي رد فعل خاطيء بمقود سيارة أو طائرة للتسبب بحادث ما . وهذه هي، على الأرجح، حالة هذا الطيار الشاب الذي حطم طائرته على إثر ليلة أمضاها مع زوجة أحد أصدقائه . وهذه ستكون أيضاً حالة الزوجين اللذين، بعد أن حضرا دفن عم غني جداً وورثاه، تعرضا لحادث سيارة خطير . فالطريق كانت مستقيمة، ودون أي عائق، ومع ذلك ارتطمت السيارة بشجرة . ومن غير المجدي القول إن حادثاً مثل هذا يمكن أيضاً أن يحدث لرجل حقق نجاحات خاصة في الأعمال أو في القمار .

ولنميز الآن الحالات التي نجد الفشل فيها، بدلاً من الظهور بوساطة اضطرابات نفسية، أو صعوبات اجتماعية أو حادث ما، يظهر بوساطة مرض عضوي . وهناك أمراض لا تظهر مصادفة، بل تكون مطلوبة ومقصودة ومزروعة . وهذا المفهوم معروف منذ زمن طويل، ولكن ربما لم يتحقق أبداً إلى أي حد كان بإمكان الرجل مقاومة بعض الأمراض التي هو ضحيته . وقد احتجنا إلى كل خبرة التحليل النفسي لكي نفهم كيف كانت النزاعات النفسية تستطيع الظهور بشكل أمراض عضوية وكيف كان الفشل يستطيع بشكل خاص التحقق بوساطة مرض مستخدم في هذا الاتجاه، مثل التعقبة، أو السفلس،

أو السل الرثوي . وسنوضح في الفصل القادم ما هي طبيعة القوى التي تدفع المرء إلى أن يكون ضحية، إلى أن يكون صانع تعاسته الخاصة والآلام التي تجعل من حياته جحيماً . وفي كتاب د. لافورغ فشل بودلير، ولفتة لانتباه القارئ إلى هذا المظهر للمشكلة واستشهاد بالأبيات المميزة للشاعر في ديوان أزهار الشر:

فليكن ممجداً، يا إلهي ، ذاك الذي يعطي الألم كعلاج رباني لقدارتنا .

ولنأخذ مثلاً آخر: رجل شاب عاش بعفة حتى عمر العشرين، وأخيراً لكي يفعل مثل رفاقه وبعد ألف تردد، اندفع في مغامرة . وكان سيء الحظ إذ التقط مرض التعقبة . ودون التفكير كثيراً وبعيداً، وضع هذه الحادثة في زاوية المصادفة . فعالج نفسه وبعد بعض الوقت، جرب التجربة نفسها، محتاطاً هذه المرة جيداً باختيار شريكته . لكنه أيضاً اختار اختياراً سيئاً، فوجد نفسه من جديد ملتقاً العدوى فانتهت هذه المرة بانهايار عصبي . وقد كشف لنا التحليل ميلاً إلى الفشل، مستخدماً بشكل منهجي المرض الزهري كحائل بين هذا الشاب والمرأة .

وتنتهي مثل هذه التجارب حتماً بفصل الرجل عن المرأة . وقد عرفنا كذلك حالة امرأة شابة من عائلة محترمة جداً، وجدت، بعد عدة تجارب غرامية، وسيلة للحصول على ما كانت تدعوه «ثالوثها»، وسيلة للتعرض للأمراض الثلاثة الزهرية مجتمعة: القرحة الرخوة والسفلس والتعقبة، متموضعة في الأعضاء الجنسية . وعندما نلاحظ عدداً ما من الحالات المماثلة، من المستحيل نسبتها إلى المصادفة أو الحظ السيء . إذ تُظهر لنا التجربة التحلّفية، من جهة أخرى، وجود مجموعة من الأمراض العضوية قادرة على الانعقاد والتكون للأسباب نفسها التي تتكون فيها الأمراض الزهرية التي تكلمنا عليها للتو . ولسوء الحظ، في أيامنا هذه، نجد الكثير من الأطباء قليلي الاطلاع على هذه المشاكل التي تخرج عن نطاق المفاهيم الكلاسيكية . ونجد أحياناً، في

أبحاثنا، الآراء المسبقة نفسها التي جعلت في ما مضى مهمة باستور^(١) صعبة جداً.

إن بعض الأمراض يحل محل المخدرات، هذا واقع. إذ هناك مدمنون على المرض كما هناك مدمنون على المخدرات. فالمخدر والمساوىء التي ينطوي عليها بالنسبة إلى بعض العصائين وسيلة موضوعة قيد العمل ببراعة للتألم ولرعاية حالة مرضية. إذ قد تنفع عصية كوخ^(٢) (Koch) كمخدر يحرر، كالآلم والمعاناة. ففي واحدة من حالاتنا، فتاة شابة، عاشت وكبرت في ظروف عائلية غير ملائمة بشكل ملفت للنظر وقد وجدت حلاً لتعاستها بفضل السل الرئوي الذي أتاح لها العيش بسلام في مصح، بعيداً عن أهلها، منعزلة كما في دير. وكان كل تحسن يعرضها لخطر الرجوع إلى بيتها، وكل محاولة لاستعادة الحياة الطبيعية كانت تفضي حتماً إلى انتكاسة.

وقد يصبح المرض كذلك هدفاً لبعض الأشخاص. فالسوء الذي يحملون في ذاتهم برعمه يمثل إشباعاً مؤلماً لتطلعات مكتومة. والطبيب نفسه قد يصبح السلاح الذي بوساطته يتحقق الفشل وحتى الانتحار بلذة وشهوة. وهذه هي حال الرجل الذي كانت لنا فرصة معاينته فهو، بعد أن عمل كل حياته بشكل مضني، تقاعد حوالى الستين لكي يعتزل في مكان يملكه. كان الحلم بالنسبة إليه ختام حياته الشاقة. فترك أعماله، وأعدّ انتقاله إلى ذلك المكان الذي كان يقع بعيداً عن باريس. ولكنه، في يوم الرحيل وفيما كل شيء معدّ ومهيأ للانتقال، سقط مريضاً بروماتيزم عادي وحقوي. فالتجأ إلى طبيب وصف له حقناً، فانتظر أن يشفى لكي يسافر. ولذلك ضاعف عدد هذه الحقن، المكلفة جداً من جهة أخرى، وسريعاً اشتكى من خراج في الفخذ، نتيجة لحقنة أسوء إعطاؤها.

(١) باستور، لويس (١٨٢٢ - ١٨٩٥) كيميائي وعالم بالجراثيم، فرنسي. أدت دراساته وأبحاثه على التخمرات والجراثيم إلى تطور الطب والجراحة. وتركزت أبحاثه على داء الكلب (السعار) والأمراض المعدية بشكل عام.

(٢) روبرت كوخ (١٨٤٣ - ١٩١٠) طبيب وعالم جراثيم ألماني، تخصص في السل.

فازداد السوء . وارتفعت الحرارة وظهر التسمم الدموي . ثم مات المريض بعد بضعة أشهر رغم كل الجهود المبذولة لإنقاذه . إنه لم يستطع أبداً الذهاب ، والانعزال في المكان الذي يملكه ، كما كان يحلم ، ولتمتع بثروته . فهل يجب اتهام الطبيب بعدم الكفاءة أو بالإهمال؟ ليس بالضرورة ، في مثل هذه الحالة . إذ كان الأمر يتعلق على الأرجح بأولية فشل نموذجي ، منعت هذا المريض من النجاح . فهذا النموذج من المرضى ينتهي بشكل عام إلى التغلب على الطبيب الذي لم يفهم حاجته الى الفشل .

ونعرف أيضاً حالة امرأة أجريت لها عملية جراحية في ظروف مثالية والتهبت جراحها عند كل معالجة ، رغم الاحتياطات المأخوذة . مرة ، اثنتين ، ثلاث ، وأربع ، والجراح يعيد العملية الجراحية . وأخيراً ، أقلق عن ذلك . وقد سمح لنا علاج تحلفسي بأن نكتشف عند هذه المرأة حاجة ملحة إلى إفشال جراحها ، والتألم في جسدها بكل الوسائل التي تملكها . ومن غير المجدي الإضافة أن طبيباً مهماً أو مهتماً يستطيع بسهولة أن يضع نفسه في خدمة أعراض مماثلة وبشكل نهائي .

في الواقع ، إن جميع الحالات التي أتينا على وصفها في خطوطها الكرى تظهر وبأبعاد كثيرة للغاية . وسيكون من الأسهل علينا الدخول في التفاصيل بعد مؤالفة القارئ مع أسباب السوء وبعد عرض تكونه . وإن الموضوع الذي نعالجه سيبدو حينئذ بشكل أقل مفارقة وأكثر مناسبة لفهمنا . إذاً سنمحص هذه المسألة في الفصول القادمة ، بقدر ما تسمح دراستنا بتطويرها الآن وقد استطعنا بشكل عام ، تحديد المشكلة .

الذات الخارقة الفردية والاجتماعية

قد يتوقف المرء عند تقاطع الطرق لاختيار الطريق الذي سيسلكه، فما هو تقاطع الطرق هذا؟ ما هو هذا الخطأ الذي يرغمه على اتباع سبيل مضاد لسيرورة اتجاهه الطبيعي؟ للإجابة عن هذه الأسئلة يجب العودة إلى تعاليم التحليل النفسي التي تظهر لنا كيفية حدوث تطور المرء في كنف عائلته وتآلفنا مع مفهوم «عقدة أوديب»، كما أنها تساعدنا على أن نفهم كيف يجري تأثير جميع التيارات المعتمدة في الوسط العائلي، في الطفل للوصول إلى تكوين مفهوم أخلاقي يمارس فعله في الحياة النفسية بعيداً عن الوعي المباشر، ويتدخل في تحديد هوية جميع الأفعال والأعمال. وهذا المفهوم المهيمن على الفرد هو هذه «الذات الخارقة» وليس ما اتفق على تسميته بـ «الأنا العالي» وخاصة عند بعض علماء النفس الفرنسيين. ولعل بالمستطاع إيجاد اسم أفضل لها.

ولإدراك معنى هذا المفهوم للأنا الخارقة، يتوجب علينا أولاً الكلام على «الأنا» أو الذات ودورها في مواجهة الغرائز التي تحرك اللاشعور والشعور في الأشخاص. وقد تم في كتاب نسبية الحقيقة اللاشعور تحديد الذات على الشكل التالي: «إننا ندعو ذاتاً هذا النشاط الذي يقوم به الجهاز النفسي، والتي عبرها يتم تكوين إدراكاتنا، الداخلية والخارجية، وهو تكوين يتيح لنا التوضع في الزمان والمكان ونحن نشعر بوعينا بهذا التوضع وبمعرفة التصرف إرادياً تجاههما ووفق حاجاتنا»؛ ثم ذكر لاحقاً أن الوعي هو وظيفة الذات التي تعمل

بطريقة تتغير بحسب تغير الأفراد والعائلات والبيئات والطبقات والجماعات والجنسيات والحضارات التي ينتمي إليها هؤلاء الأفراد [. . .] ولدينا كل الأسباب التي تدفعنا إلى الإيمان بأن هذا النشاط النفسي الذي بوساطته تحقق الذات حالة الوعي هو نشاط معقد جداً، ويتطلب كمية محترمة من العمل رغم الإحساس بالسهولة والمباشرة اللتين يمكن أن نشعر بهما. ولا يشتمل هذا العمل كما نعلم على بلورة الانطباعات الحاضرة فقط، فانطباعات الماضي تشارك فيها أيضاً بشكل تجارب ومعارف وذكريات. لقد تم تكوين هذا الماضي وتحويله إلى رأسمال على يد الفرد والعائلة والجماعة وكل الأجيال التي أبدعت الحضارة. وتشكل هذه الحضارة مجموعة من الذكريات والتجارب المتراكمة بوساطة الأفراد والجماعات خلال ماضٍ مديد نسبياً، كما أنها تتدخل بشكل عريض بوساطة الأوليات النفسانية التي تتحكم بتأثير الجماعة في الفرد لتحدد موقفه تجاه معطيات الحياة. لذلك لن تكون الذات نتاجاً للفرد فقط، بل ستكون في الوقت نفسه نتاجاً للجماعة أيضاً، بقدر ما تعكس عقليتها. نعتبر عنها. فهي تتألف إذن، بشكل إجمالي، من ذات جماعية الأصل، ومن ذات فردية.

إن هذه الذات الجماعية الأصل، التي تتبلور أولاً تحت تأثير الأهل خلال الطفولة، ليست بالضرورة ذاتاً واعية. إنها تتصرف أوتوماتيكياً بقدر ما تصبح التجربة التي تحددها منسية أو لا شعورية، إلا أن فعلها ليس أقل واقعية منها، ويمثل حكماً أخلاقياً مستقلاً يتدخل في إعداد الأحاسيس والأفعال العائدة إلى الفرد، كما أنه يوجهه في هذا الاتجاه أو ذاك، ويرغمه على رفض أو قبول وجهة النظر هذه أو تلك، وطريقة الشعور أو التصرف. ولهذا الحكم بالذات أعطى الكتاب الألمان اسم الذات الخارقة، لأنها تستطيع مقاومة الذات، والتحكم بها وإخضاعها واستعبادها كأنها مميزة عنها وتقع فوقها.

ويحدث غالباً أن تخالف هذه الذات الخارقة مستلزمات تطور الفرد وضرورياته. إذ إن تأثير الأهل الذين أسهموا في بنائها وتكوينها لا يمارس دائماً في الاتجاه الصحيح والجيد. فقد يكون هؤلاء الأهل أسرى عُصاب يعيق

نشاطهم الشخصي وسيشل في ما بعد نشاط أطفالهم . كما أنهم يكونون أحياناً ضحايا عقلية جماعية تتصرف كعصاب باسم معتقدات دينية أو مفاهيم اجتماعية، فتمنع كل تفتح . وفي نهاية المطاف، قد يتخذ الفرد نفسه، إثر صدمة ما، نقيض تطوره الطبيعي، كأن هذا التطور الطبيعي يمكن أن يقوده إلى طريق مسدود ويشكل خطراً بالنسبة إليه . وفي جميع الحالات، من الممكن أن يستخدم الفرد ذكائه وطاقته لملاحقة ما هو مناقض له . ومن الممكن ألا يصبح هذا العمل عادة فقط، بل يصبح واجباً أخلاقياً أو مثلاً مقدساً . ولكي نفهم جيداً هذه الطريقة في مخالفة مستلزمات الحياة وضرورياتها يتوجب علينا الدخول في التفاصيل والتألف مع مفهوم العصاب العائلي .

إن «العُصاب العائلي» مصطلح يُطلق على مجموعة من الظواهر النفسية التي يتحكم بها العصاب، والتي تميز حياة الأفراد الذين يشكلون عائلة . ويبدو أن بعض أنواع العصاب يرغب الإنسان على اختيار زوج لديه عصاب مكمل له، كما ألمحنا إلى ذلك في الفصل الأول . ففي الواقع، نجد أن الرجل المخنث والسليبي والصبياني يختار عادة امرأة أنثى مسترجلة^(١)، متسلطة وحيوية، قادرة على أن تأخذ على عاتقها المسؤوليات التي كان من الواجب تحميلها للرجل . وهكذا يبدو الزوجان متكاملين، إلا أن اضطرابات حياتهما العاطفية تترجم بشكل عام بالعديد من الأعراض والعلامات الشاذة .

إن الأنوثة عند الرجل والذكورة عند المرأة هما بشكل عام ميزتا توقُف في تطور الحساسية وسرعة التأثر، كما أن من الممكن أن تحدثا من جراء تأثير الذات الخارقة . وصحيح أن هذه الصبيانية الجنسية يمكن أن تعوّض، بحسب الحالات والأشخاص، بنشاطات أخرى للفرد، وتظهر من جراء ذلك بطريقة متنوعة جداً . إلا أنها عادة تفسح في المجال للعديد من التعقيدات المشابهة للتعقيدات التي تحدثنا عنها للتو .

(١) نقترح هنا مصطلح (الرنثى) للمرأة المسترجلة .

إن معظم النساء المسترجلات يكرهن الرجل الطبيعي ؛ والرجل المخنث كذلك يكره المرأة الطبيعية ، فكلا الاثنين يتصرف ، الواحد منهما تجاه الآخر ، بطريقة عدوانية ، ومهما كانت مكبوتة فإنها لا تعبر عن نفسها عادة بلا معرفتهما . فالرجل المخنث يميل الى تعذيب المرأة ، ولكن ليس بالضرورة بشراسة ظاهرة ، بل يقوم بذلك غالباً بألف وسيلة ووسيلة بارعة ، وهذه الوسائل تفعل فعلها في مشاعر الذنب عند الأشخاص . وعلى النقيض من ذلك ، تثقل الرنثى الرجل بعنف وبرودة عاطفية قاسية ، ساعية إلى إصابته بجروح أخلاقية ومعنوية بقدر ما هي جروح مادية حسية .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو التالي : كيف سينمو ويكبر الأطفال في البيئة التي يكونها مثل هؤلاء الأهل ؟ لنعرف ذلك سنقدم حالة هذا الصبي .

إن تأثير الأم سيمارس ضد الصبي بعنف يكبر بقدر ما يكون هذا الصبي قوياً وحازماً ورجولياً ، إذ إن كره الرجل عند مثل هذه المرأة لا يتوقف أمام الولد . إلا أن هؤلاء الأمهات يتحملن بشكل أفضل الفتيات وكذلك ، غالباً ، الأولاد الضعفاء ، أو المرضى أو المستضعفين الذين يشيرون شفقتهم . إذ إن صورة الولد المعذب تلبي حاجات حياتهن الجنسية ، وشعورهن بالذنب يدفعهن إلى إصلاح السوء الذي بإمكانهن القيام به . ويكبر الصبي ، لكن والده الضعيف جداً سيكون عاجزاً عن إعطائه نموذجاً عن التمردات الصحية الشافية ، وعند الحاجة ، سيدع هذا الأب الأم تحركه وتديره لتدمر جذرياً رجولته هذه الرجولة التي كانت ستتيح له استئناف السلالة ، وسيسعى هذا الأب كذلك إلى توجيهه نحو نشاطات هي في الحقيقة نشاطات تأملية . وإذا سمحت الظروف ، سيجعل منه رجلاً مثقفاً ، فالنشاط الفكري أو الفني يتلاءم بشكل أفضل مع سلبية الرجل .

وفي المستقبل ، سيتعلق الابن بوالده أكثر مما يتعلق بأمه ، وسيعاني نموه العاطفي عاقبة ذلك . كما أن حياته الجنسية ، بدلاً من التوجه نحو المرأة ، ستتحول نحو الرجل بطريقة خفية تقريباً ، غير قابلة للإدراك من قبل الشخص

غير المعدّ لهذه المسائل وغير المتمرن عليها. ولا تضر هذه الأحوال دائماً بتطور الذكاء، لكنها تعرقل نمو الحياة الجنسية وتطورها. فكل صبي، خلال تطوره الجنسي يجب أن ينافس الرجال الآخرين، ويبدأ ذلك بمنافسة والده. إن هذه العدوانية تجاه الأشخاص المتممين إلى الجنس نفسه أمر طبيعي، وتثور في مرحلة ما من مراحل التطور العاطفي. إلا أنها تبقى عند الصبي الذي يربى في المحيط العائلي الذي وصفناه للتو، كآمنة في المهد، فهو يتفاعل في هذا الوسط بمشاعر كبيرة من الذنب، ويميل إلى معاقبة نفسه بحدة أكبر من حدة معارضته لنموه الجنسي الطبيعي، إنه يعظم حبه لوالده على حساب حبه لأمه، أما الميول التي ستتيح له أن يصبح هو نفسه أباً، فإنها ستفشل إلى هذا الحد أو ذاك، كأنه يخشى حذف والده بحلوله محله أو باستقلاله عنه. إذاً نتبين في هذه الحالات أن الرجل يصبح، أكثر من المرأة، موضوع حب الصبي، ويمكن أن نفهم الآن فوراً كيف ستكون نتائج هذا التعلق. ولا شك في أن إحدى هذه النتائج ستجذب انتباهنا بشكل خاص، وتعرف هذه النتيجة بعقدة الخصاء^(١).

في الحقيقة، ليس من السهل أن نشرح للقارئ ما تمثله عقدة الخصاء. فهناك أطباء نفسانيون دقيقون ومبدعون توصلوا إلى فهم عقدة أوديب بدراسة «أعراض الخصاء». إن هذا الأمر ناتج بشكل خاص من أن ثقافتنا، إذ ترغب في أن تتجاهل بشكل منهجي الصعوبات النفسية لدى الولد، قد أرغمتنا على تزييفها، معتقدين أننا بذلك نزيلها. إلا أن هذا الفعل للأسف يحرمنا بكل بساطة من السلاح الحقيقي الوحيد لمجابهتها والتصدي لها: وهو المعرفة! إن المجاملات قد عوّدتنا على ألا نأخذ بعين الاعتبار بعض مظاهر الحياة الجنسية، وعلى إهمال محاولة فهم الدور الهام الذي تقوم به، عند الصبي والرجل، القدرة على امتلاك الفحولة. ولا تتطور هذه القدرة إلا ببطء؛ وخلال تكوّنها،

(١) عقدة الخصاء هي خوف بلا مبرر من خسارة اكتمال الجسد وتمامه. وهي تتعلق في الواقع بنظام من الانفعالات ذي علاقة بالقيمة الرمزية لعضو الرجل أكثر مما تتعلق بمشاعر متعلقة بالجسد البشري المبتذل.

تعاني تغيرات هامة. وينبغي للوقوف على أهميتها الكبيرة، أن ندرك أنها لا تعبر عن نفسها فقط بالصلابة التي تجعل العضو الرجولي قادراً على اتمام وظيفته الجنسية الطبيعية، بل كذلك بمجموعة كاملة من العناصر النفسية التي هي، على مستوى الحساسية، النتيجة الطبيعية للقدرة على الفحولة. إنني أود الكلام على قدرة قتالية، على قوة عضلية، على سخاء ما، وهذه كلها أمور تميز بدرجة بارزة إلى حد ما مزاج الشاب البالغ وشخصيته. إذ ليس مصادفة أن الذهن المبدع، مثله مثل الذهن القتالي، يبدو أكثر تطوراً عند الشاب البالغ منه عند المرأة. إذ عندما يعتاد الصبي أو الرجل على معارضة نموه الطبيعي خوفاً من أن يقوده هذا النمو إلى معارك خطيرة، لا يعبر هذا الأمر عن نفسه فقط بضعف ووهن في رجولته النفسية، بل كذلك بوهن في كفاءته كرجل في العلاقات الجنسية. ففي هذه الحالات، وخوفاً من أن يتوجب عليه المخاطرة بنفسه في الصراع، ينطوي الذكر على وضعيات انطلاقه؛ فيبقى طفلاً ومختشاً ليكون سليماً محافظاً على نفسه. إنه يقطع جزءاً من رجولته ويضحى به خوفاً من أن تعرضه هذه الرجولة نفسها لخسائر جسيمة. إنه يخصي نفسه خوفاً من أن يُخصى. وهذا التصرف هو ما ندعوه «عقدة الخضاء». إنها النتيجة المباشرة لقلق الخضاء الذي يقوم في التطور الجنسي لدى الصبي الصغير بدور أكبر بكثير مما اعتقد دائماً حتى الآن المربون والأطباء.

ويزداد هذا القلق بتأثير غير الأم من رجولة ولدها. فتصبح جميع الوسائل جيدة ومشروعة لعرقلة شغبه وشيطنته، لإخافته من المبادرات التي يقوم بها، وباختصار يمكن القول إنها تسعى إلى تحويله إلى فتاة. أما عند الصبي المختث، فإن قلق الخضاء يأخذ أحياناً أبعاداً هائلة أمام الأب وحتى الأب الأكثر لطفاً لأن صفاته الرجولية ترعبه. فنراه حينئذ يرد على أقل المظاهر الحيوية للرجل البالغ بالخوف من أن يعامل بقسوة أو أن يُخصى. إن مشاعر القلق هذه، لا يتم الاعتراف بها في العادة أبداً. بل هي بالأحرى مخبأة ومكتومة بعناية، بحيث إن الصبي المختث، غير القادر على مواجهة الواقع، يميل إلى تحويلها إلى مثال أعلى وإلى عدم رؤية الأشياء كما هي في الحقيقة، فهو أكثر

ميلاً إلى اعتبار نقاط ضعفه فضائل، وخاصة عندما يتفق هذا الأمر مع مثال زمن ما ويشتمل على العديد من الحسنات.

إن المرء المعتاد على تزوير مشاعره باستمرار، يصبح منافقاً حتى دون أن يدرك ذلك. وينتهي في نهاية المطاف إلى السقوط ضحية لعبته الخاصة، والاعتقاد حقاً أنه نقيض ما هو عليه. فيتوصل بأولية النفي والإنكار إلى تجاهل المشاعر التي هي على علاقة بقلق الخصاء الذي يشعر به، وبما أن هذا القلق يقوم في حضارتنا المعاصرة بدور مهم إلى حد ما في نمو كل رجل، يصبح من المستحيل تقريباً، بالنسبة إليه، أن يجابه ضروب القلق التي تخالجه والتي اعتاد على تجاهلها. لهذا يكون من الصعب عليه أن يعيها ويدركها ويعقلنها. وعندما تتطور عقدة الخصاء إلى حد بعيد، يحمله نشاط الذات الخارقة على الشعور بأن كل ميل عاطفي أو جنسي يصب في الاتجاه الطبيعي للنمو هو ميل متهم وأثيم. وهذه الطريقة في التصرف ضد تطوره ونموه والشعور بالذنب هي غالباً طريقة مولدة لعدد كبير من الاضطرابات في الحياة العاطفية.

إن بعض الناس الموهوبين، رغماً عن تأثير الذات الخارقة ومشاعر الذنب التي يشعرون بها، يسعون تحت ضغط كل القوى المقهورة في شخصيتهم، إلى الارتفاع إلى الحياة الطبيعية. وفي مثل هذه الحالات، قد يصل الشعور بالذنب إلى حدة لا تطاق. فالفرد الذي اعتاد على الدفاع عن نفسه ضد قلق الخصاء بسلوك خاص، متجنباً كل ما بإمكانه أن يثيره، يميل أيضاً إلى إبعاد كل ما بإمكانه إيقاظ هذا الشعور بالذنب. ووسائل الدفاع التي يعتمد عليها كثيرة ومتعددة. وقد تكلمنا على إحداها في الفصل الأول، عندما ذكرنا ابتهاج بودلير الذي يصور المعاناة «كدواء إلهي لقطاراتنا». فالمعاناة بكل أشكالها، المقدرة بحكمة، مستخدمة لإزالة مفعول الشعور بالذنب ولدفع ثمن الخطيئة، لإعادة الانسجام والتفاهم مع الذات الخارقة المضطهدة. وندرك بسهولة أن الحاجة إلى معاقبة الذات قادرة على أن تضع في خدمتها كل الآليات القابلة للإيصال إلى الفشل والمشاركة من جراء ذلك بعلم الأعراض المرضية الذي ندرسه. ويتخذ هذا الفشل مظاهر مختلفة، بحسب الميادين التي يظهر فيها والطريقة

التي بواسطتها يكون الشخص قادراً على تعويضه أو حتى على إصلاح الوضع .

والآن ، لنر كيف يمكن أن يكون نمو الفتاة .

إنه على وجه العموم مهدد مثل نمو الصبي تماماً . وقد سبق لنا القول إلى أي حد تعبّر الطفولية الجنسية عندها عن نفسها بالميل إلى الاسترجال واكتساب صفات الذكور . وقد تبيننا أيضاً أن الأم تحتل البنت بشكل أيسر بكثير من الصبي ، بشرط أن تصبح موضوع حبها وأن تستطيع ، فضلاً عن ذلك ، تحميلها ميولها غير المشبعة . ويجر هذا التعلق من الأم بالبنت إلى نوع من الخسارة . بالنسبة إلى أنوثة الطفلة التي تسترجل لتكسب حب الأم . وهذه السيرة المقوّاة أيضاً بتصرف الأب المخنث الذي يعيق ، عند فتاته ، تطور كل ما من شأنه أن يمثل الأمومة . فعضو الحمل عند المرأة هو الرحم وتطورها ، المشابه تماماً لتطور القدرة على الفحولة عند الرجل ، يشتمل في الميدان النفسي على مجموعة من الكفاءات والقابليات المميزة للحياة الجنسية الأنثوية . فالطبيعة الأنثوية تظهر برقة خاصة تجعلها قابلة للتسلم والاستئثار ، أي صالحة للاستلام والحب ، في حين أن الرجل مؤهل للاختراق ، والقذف والإخصاب . وفي الواقع ، لقد تبيننا أن الفتاة التي تربت في بيئة عائلية مثل هذه يتم عندها ظهور نوع من الخصاء ، من خسارة الإمكانيات التي تجعلها امرأة . ولا يهدد هذا الخصاء عضو الرجل بل الرحم التي تحمل صدمة الوضع وتعاني في نموها .

إن الفتاة الشابة المسترجلة تبقى غالباً نحيلة وجافة مثل «هراوة» . فلاستدارة اللطيفة وهي ميزة تطور الفتاة الجسدي ونضجها تغيب عنها لأنها لن تثير كره الأم فقط ، بل بشكل خاص كره الأب . إننا نعرف حالات قام فيها الآباء المخنثون بكل شيء ليرغموا فتياتهم على النحول منذ أن دفعتهم الطبيعة البشرية إلى اكتساب أشكال أنثوية . إنهم يفتتنون فقط بميولهن الذكورية ، بقدرتهن على التفكير ، أو بقوة ضربتهن المباشرة في لعبة التنس . . . الخ . والفتاة ، من جراء هذا ، وتحت تأثير ذاتها الخارقة العائلية ، تتوصل إلى الرد على نموها الشخصي بقلق خصاء وخوف حقيقي ، من الفعل الجنسي سامحة

بذلك بولادة اضطرابات ستتوقف عندها متمعين في الفصل القادم . كما نلاحظ عندها أيضاً مشاعر الذنب التي تشل كل مبادرة إلى السير في الاتجاه الصحيح .

إن المظاهر العضوية التالية لهذه الحالة كثيرة ومتعددة . فالرحم يبقى غالباً ركيكة ولا تنمو بشكل طبيعي ، كما أنها تميل إلى التحجر وإلى اتخاذ وضع فاسد . وعملية الهضم سيئة ، فالأمعاء المحرومة من حيوية طبيعية ، تعاني الاسترخاء . وتهبط المعدة في الحوض ، وتصبح الكلية بسهولة طافحة . الإمساك مستمر ومصحوب غالباً بالبواسير . والعادة الشهرية مؤلمة ، وقد تصل فعلاً إلى الاختفاء والزوال . وفي حالات أكثر خطورة ، يظهر كره التغذية ويتجلى برفض الأكل المغذي خشية السمنة . وهكذا قد تتطور حالات على جانب من الخطورة وأحياناً معقدة جداً . وقد رأينا فتيات شابات تركن أنفسهن يذبلن وصحتهن تسوء ، بسبب تغذية سيئة ، إلا إذا سببن لأنفسهن مرضاً يصيبهن بفقر الدم ويدمرهن كالسل الرئوي مثلاً . ولا ننسى الإشارة بالحاح إلى مظهر خاص لهذه المشاكل . فالفتاة ، إذ تبقى صبيّاً ، لا تحل بشكل عام مشكلتها ، ويحدث أنها بهربها بهذا الشكل أمام خطر الخصاء الرحمي وبالتالي الأمومي ، تجد نفسها في خضم قلق الخصاء المميز للحياة الجنسية الذكرية وتعاني من أعراض مرضية مماثلة .

لقد رأينا كيف يمكن أن تتكون قوة دعونها الذات الخارقة التي تستطيع إجبار المرء على التصرف بشكل مخالف لميوله الطبيعية . ويفسر لنا فهم طريقة تكون هذه الذات الخارقة بعض مظاهر القدر التي تستلهمها مثلاً المأساة اليونانية . ففوق إرادة الناس ، وعبر الأجيال غير المحددة بزمان قوة ما ، فإن الذات الخارقة لا تثير فقط المرء ضد نفسه ، والمرأة ضد الرجل ، بل تثير أيضاً الأم ضد الولد . ولهذا السبب نتكلم على عقدة أوديب التي إذ تديرها وتتحكم بها قوانين شرسة ، تذكر بالمفهوم القديم للقدر . ولكن ليس تأثير الذات الخارقة فقط هو الذي لا نفهمه ، إذ إن مظاهر أخرى للقدر ، مثل ضرورة إعادة انتاج الأوضاع نفسها دائماً ، تشق طريقها رغماً عن التعاسة التي قد يشتمل عليها ذلك . وقد سمى الكتاب الألمان هذه الحاجة «إكراه التكرار» . ولهذا الإكراه ميزة القدر ،

الذي يحكم بالفشل على كل الجهود التي يبذلها الفرد الذي يقرر التصدي له . إنه يجعله مسجوناً أبداً في التعقيدات نفسها، ويرغمه على أن يقترب دائماً الأخطاء نفسها . وهكذا يجد الوحي الإلهي الذي قال به القدماء معناه ودلالته . فأحداث القدر ليست من عمل المصادفة ولا من عمل إرادة بعض الأشخاص . بل هي إلى هذا الحد أو ذاك محددة بوساطة هذه القوة التي تتجسد على يد الذات الخارقة وإكراه التكرار .

ويتوجب علينا على الأثر السعي إلى معرفة إلى أي حد تستطيع هذه القوى، القدرة على السيطرة على الأفراد، التأثير في الحياة الجماعية، وكيف نتصرف لمجابهتها ومحاربتها ولتغيير مسيرة القدر عندما تبدو متجهة حتماً نحو الكارثة . وقد سبق أن تكلمنا على تأثير العقلية الجماعية في تكوين الذات الخارقة التي تستطيع ميولها أن تناوئ نمو الأفراد أو نمو أقلية ما، ويلاحظ مثل هذا أحياناً بالنسبة إلى بعض المعتقدات الدينية . فالعقلية البدائية لدى كثير من القبائل الأفريقية، مثلاً، تشكل عائقاً أمام التفتح الطبيعي للشخصية وللحياة الجنسية . ففي ما يخص الحياة الجنسية، يظهر هذا الأمر في جميع الحالات التي يرغب فيها الهرب من ارتكاب المحارم أفراد قبيلة ما على اختيار قرينهم من بين أعضاء قبيلة أخرى، فقبيلتهم محرمة عليهم بشكل مقدس . ومن الطبيعي أن ينتج من ذلك مشاكل مهمة، كما أن بعض الأطعمة تعتبر محظورة بشكل مقدس . وبالنسبة إلى العقلية الدينية البدائية التي نتحدث عنها، يأخذ هذا الأمر أحياناً أبعاداً مهمة ويعبر عنه بتشكيل ذات خارقة جماعية لا تسمح للفرد بالوجود إلا تبعاً لها .

وفي ما يتعلق بالذات الخارقة الجماعية، يقدم إلينا تاريخ اليهود مثلاً نموذجياً . إننا نعرف كم كان تطورهم معاقاً من قبل مفاهيمهم الدينية والعرقية ومن قبل مفاهيم العصر الوسيط الذي حرّم عليهم زراعة الأرض والعيش في موضع آخر غير الغيتو^(١) الذي كانت أبوابه مثل أبواب السجن تنغلق كل مساء

(١) الغيتو مكان تقيم فيه أقلية منبوذة .

على ساكنيه. كما كانوا مرغمين على ارتداء ملابس خاصة، وعلى إطالة شعرهم بطريقة خاصة لكي يكونوا دائماً معروفين مثل البُرص أو المجذومين. باختصار، لقد كان اليهود مضطهدين. وقد أثرت هذه الظروف طبعاً في تكوين ذات خارقة للأفراد المنتمين إلى الجماعة اليهودية إلى درجة أن عدداً كبيراً منهم اليوم أيضاً يسعون إما إلى زرع الاضطهاد، وإما إلى تكريس أفضل قواهم لتحرير الأشخاص الذين يعتبرونهم، عن خطأ أو عن صواب، أشخاصاً مضطهدين. لقد حافظوا على وسواس الاضطهاد وهم ينقلونه غالباً إلى بيئة لا تبرره. فالكثير من اليهود، بوساطة ذاتهم الخارقة والحاجة إلى إعادة إبراز الأوضاع العاطفية القديمة، ظلوا عقلياً أسرى الغيتو وقوانينه ولذلك يميلون بشكل لاشعوري إلى إعادة تكوينه في كل مكان، حتى في المكان الذي يستطيعون العيش فيه بسلام في الجماعة التي يشكلون جزءاً منها. ومن المستحيل أن نفهم المشاكل التي تولدها النزعة المعادية للسامية، إذا لم نحسب حساب تأثير الذات الخارقة الجماعية في اليهود. وتساعد هذه الذات الخارقة على الاضطهاد وتحديثه عند الحاجة. ولنتذكر كيف يمكن استخدام مشاكل خارجية لإيقاف وإعاقة التطور الموزون للأفراد، وكيف أن معارضته قادرة على التسبب بنزعة طفولية معلنة إلى حد ما ويميل جنسي إلى الأفراد المماثلين، كميل الذكر إلى الذكر والأنثى إلى الأنثى، وهو ميل خفي وقوي إلى حد ما. ويتوجب علينا الدخول في تفاصيل المشكلة لإدراك كل نتائج هذه الظروف، وبشكل خاص تلك النتائج ذات العلاقة بالذات الخارقة اليهودية.

لقد رأينا في الفصل الأول كيف أن فرداً كان قادراً على الارتباط بمن كان نقيضاً له وعلى اختيار عدوه قريباً له، وبعض الأشياء المماثلة قد تحدث عندما يسعى امرؤ إلى الاضطهاد. إذ يصبح المضطهد موضوع حب لاشعوري، بدلاً من أن يكون بالنسبة إليه موضوع كره كما هو طبيعي ومنتظر. فالجنسية المثلية^(١)

(١) الجنسية المثلية هي ميل الرجل إلى الرجل أي اللواط وميل المرأة إلى المرأة أي السحاق، أي ميل الإنسان إلى من يماثله في الجنس. (المترجم)

الكامنة عند الرجل تعبّر عن نفسها بميل قوي تقريباً إلى أن يكون ضحية بدلاً من منتصر. لقد احتجنا إلى الخبرة التحلّفية^(١) لفهم كل دلالة هذه الأوضاع ولتوضيح كيف أن المعاناة تصبح متعة جنسية بشكل خالص. فهذا الحب للألم، الذي يترجم بالاضطهاد أو بهموم المال، هو أحد المظاهر المميّزة للنفسية اليهودية، كما تطورت في الغيتو. وسنعود لاحقاً إلى هذا التعلق العاطفي الذي دعاه المتخصصون في هذه المسألة «النزعة السادية - الماسوشية»^(٢).

وسيتوجب علينا أيضاً التنقيب عن علاقات الذات الخارقة الجماعية، مثل ذات اليهود الخارقة، بالذات الخارقة الدينية والذات الخارقة الطبقية. فتاريخ اليهود يعلمنا أنهم لم ينتظروا الغيتو ليصبحوا مضطهدين. فربما كان مضطهدهم الأول هو يهوه، أو على الأصح الفكرة التي كوّنها عنه. لقد كان يهوه^(٣) سيداً مرعباً، يلاحق شعبه المختار بأنواع متعددة من العقاب والانتقام، ويريد منعه من الاختلاط بالآخرين. وأعتقد أن من غير الممكن فهم كيفية تكون الذات الخارقة اليهودية من دون أن نحسب حساب هذه المعتقدات التي أدخلوها في ديانتهم.

ولنتصدّ الآن للمسألة من زاوية أخرى، زاوية الذات الخارقة للطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الإنسان. إذ هناك ذات طبقية خارقة تذكر في العديد من وجهات النظر بالذات الخارقة لليهود في الغيتو: إنها ذات الطبقات البروليتارية. فحتى الآن استطعنا التعلل بالوهم القائل إنه يكفي القيام بدراسات أرباح الكثير من المال لتغيير العقلية والطبقة الاجتماعية بشكل كلي. إن

(١) أي التحليلية النفسية. (المترجم)

(٢) النزعة السادية هي الشعور باللذة من جراء تعذيب الآخرين، والنزعة الماسوشية هي الشعور باللذة من جراء تعذيب النفس.

(٣) يهوه، إله اليهود في التوراة.

الإيمان بالقدرة الكلية للعقل والعلم، والجهل الذي يسيطر على الإنسان بخصوص القوى الخفية للاشعور، القدرة على إفشال العقل والعلم، كانا يفضيان إلى نوع من الإيمان بالقدرة الكلية للإرادة البشرية. وإلى بنية هذا الإيمان يتوجب علينا اليوم العودة للبحث والتنقيب. ولن نستطيع التخلص كما نتمنى من العقلية الطبقيّة، وعقلية الطبقة الشعبية، وعقلية العائلة أو الدين. فالمعرفة الأكثر انطلاقةً، مهما كان الوهم المكوّن عن القدرة الكلية أو الإشباعات الحسية التي يقدمها، بدلاً من أن تحرر المرء لا تفيد غالباً إلا في تفاقم النزاعات بين شخصيته وذاته الخارقة.

وهذا النزاع هو من الخطورة بحيث إن المرء يستخدم غالباً إيمانه بسحر علمه لتجاهل الوضع الذي يمكن أن يوجد فيه في مواجهة ذاته الخارقة. إن تجربة علم نفس اللاشعور أفهمتنا هذا الوضع بإظهارها لنا حدود القوى البشرية في مواجهة القدر.

ولنحاول في سبيل إدراك كيفية تكوّن الذات الخارقة الطبقيّة أن نعرض ونحلل بنية الذات الخارقة البروليتارية. ففي الواقع ومنذ قرون انقسم الأوروبيون إلى طبقات اجتماعية تؤلف معاً الجسم الجماعي. وفي العصر الوسيط، كان يتم تمييز النبلاء والإكليروس أو رجال الدين، والبرجوازيين، والفلاحين الأحرار والرقيق أو العبيد، فالبرجوازية كانت قد أعلنت ظهورها المتأخر نسبياً، شيئاً فشيئاً مع تطور المدن ونموها، ولم تكن المفاهيم الاجتماعية في ذلك العهد، والبؤس الذي كانت تعيش فيه أغلبية البروليتاريين الذين نستطيع أن نصنف معهم العبيد ومعظم برجوازيي المدن، تتيح للفرد التحرر بسهولة من بيئته وتغيير طبقته. إذ لم يكن ذلك ممكناً إلا لأفراد الإكليروس (رجال الدين) في بداية العصر الوسيط، وهو العصر الذي لم يكن تنظيم الطبقات الاجتماعية بعد قد بلغ الحدة التي سيعرفها لاحقاً. ففي القرن الثالث عشر فقط أصبح لقب فارس وراثياً ولم يعد مكتسباً في أرض المعركة. لقد أسهمت المفاهيم الاجتماعية والبؤس المادي في تكوين طبقة العامة من الشعب أو الأرذال. وربما لم تكن هذه الطبقة مضطهدة مثل طبقة اليهود،

ولكن، مع ذلك، كانت أسيرة وضعها الاجتماعي ومستغلة، ومغرمة بضرائب عالية وتحظى بمعاملة سيئة في أغلب الأحيان. ومن هنا كان تكوّن ذات خارقة جماعية يحرم على الأفراد تغيير وضعهم والتحرر والتفتح، وامتلاك الحق بالحرية لا يحتاج إلا إلى خطوة واحدة أي أنه سهل جداً، ومع نمو الحضارة البرجوازية، قبل العام ١٧٩٢ م وبعده، لم تتغير هذه الظروف والأحوال التي ادعت الثورة الفرنسية تغييرها وقلبها رأساً على عقب، إلا في الظاهر. فقد كان البروليتاريون ممثلين بأغلبية من الفلاحين والعمال المسلمين دون مقاومة، من جراء فقرهم والنقص في تنظيمهم النقابي، إلى أولئك الذين كانوا يستغلونهم، رغماً عن الحرية السياسية وحق الاقتراح اللذين انتزعوهما. ووحدهم بعض برجوازي المدن وكبار الملاكين، بفضل تطور الصناعة والتجارة، استطاعوا تحصيل الثروات والحلول ببطء في المحل الذي كانت طبقة النبلاء تشغله سابقاً. إن الوضع الحقيقي للطبقات في المجتمع لم يتغير إذاً كما كان يُعتقد، رغم تحوّل الوضع السياسي، بسبب عادات مكتسبة وتأثير الذات الخارقة للأشخاص. إذ لا يكفي الحصول على حقوق اجتماعية ولا أن يكون المرء موهوباً لكي يستطيع تغيير وضعه، إذ يلزمه أيضاً أن يحسن استخدام حقوقه واستعمال مواهبه. وهذا هو ما يحدد الثورة الحقيقية، وهذه هي ميزة تغيير الأشخاص والطبقات خلال تحررهم الاجتماعي.

إن هذه الثورة محكومة بشكل خاص بمستلزمات التطور الصناعي والجماعي، إثر الاكتشافات العديدة التي تمت في كل ميادين النشاط البشري. ففي المصانع نحتاج إلى المهندسين ورؤساء العمال المعدّين والمدربين لتحقيق صناعة معقدة أكثر فأكثر. وفي المختبرات، يُبحث عن كيميائيين قادرين على اكتشاف مصادر جديدة للذهب. وفي المدارس، يتزايد سعي الأساتذة لإعداد التلاميذ القادرين على إشباع متطلبات الصناعة. وهكذا يتم بالنسبة إلى عدد كبير من البروليتاريين تغيير الطبقة الاجتماعية. وفي كل مكان تخصص منح للطلاب الأكثر موهبة. وفي كل مكان يسعى إلى وضع مصير الجماعات بين أيدي أشخاص مدربين بشكل خاص ومتحلين بالذكاء والعلم

الذين ننتظر منهما معجزات وخوارق. ولكي تثار حماسهم يكافأون بشكل مادي؛ ويولد من جرّاء ذلك إيمان جديد يميزه الاعتقاد بحسنات التعلم والتثقيف والمال. وفي كل طبقات المجتمع يسعى الأفراد إلى اكتساب هذا التعلم وإلى جني المال، مقتنعين بوصولهم هكذا إلى السعادة. إن عدد الأشخاص الذين يسعون إلى التحرر والانعتاق من طبقتهم الاجتماعية وإلى الفوز بهذه الغبطة المادية والفكرية كبير جداً. ولنضف إلى ذلك أثر التحرر الديني الذي يحدث عند البورجوازيين باسم العلم، وعند البروليتاريين باسم أخوة إنسانية جديدة تدعى اشتراكية. لكن هذه الثورة تصبح بالنسبة إلى الناس مصدراً للعديد من أنواع الفشل من جرّاء كونها تتم بشكل مخالف للذات الخارقة البروليتارية التي تكلمنا للتو عليها.

إننا نعرف أن الذات الخارقة للطبقة الاجتماعية متأثرة بقوة بالمعتقدات التي تفعل فعلها في نمو الأشخاص. فبرغم النضالات العنيفة التي خاضتها الثورة الفرنسية، فإن تأثير المعتقدات بقي مسيطراً في الحضارة الغربية حتى نهاية القرن التاسع عشر تقريباً. وليس إلا الإيمان بالقدرة الكلية للعقل الخالص ولإرادة البشر هو الذي أرغم الناس تحت ضغط التطور العلمي، وبشكل خاص النخبة من جماعاتنا، على التخلي عن معتقداتهم القديمة. صحيح أنهم في معظم الحالات قد استبدلوا المعتقدات القديمة بمعتقدات جديدة، دون التوصل دائماً إلى التخلص من الحاجة إلى الإيمان بمعتقداتها ودون تطوير عقلية علمية حقيقية. وتمثل هذه العقلية في أيامنا الحاضرة أيضاً استثناء، ولا تدرك جيداً دون معرفة علم نفس اللاشعور الضروري للإنسان لكي يتيح له التغلب على النزاعات مع ذاته الخارقة، وهي النزاعات الناجمة عن تحرره من التقاليد.

ولكي نفهم المسألة المطروحة بهذا الشكل جيداً، نوردُ مثلاً يوضح كيف يمكن أن يظهر تدخّل الذات الخارقة للطبقة ويحتّم الفشل. فهذا رجل أتم دراساته بفضل كاهن القرية. وقد كان والده عاملاً في مصنع، وأمه حاجبة في بناء، وإخوته وأخواته ظلوا عمالاً بؤساء إلى أن استطاع تحسين وضعهم. وعندما أنهى دراسته انطلق إلى باريس حيث عمل في متجر كبير كموظف

تجاري . وقد جعله انضباطه في العمل وكفاءته محط الأنظار، فعُهد إليه بمسؤوليات أكبر فأكبر. وسُمح له بالتردد على منزل رئيسه حيث التقى ابنته الوحيدة التي أُغرم بها. وقد رفض والداها في بداية الأمر فكرة زواجهما، ثم أخيراً قبل به. وبوساطة هذا الزواج انضم إلى عائلة تمتلك مؤسسة تجارية مهمة. فبدأ بالاحتفاظ بوظائفه القديمة مع حصوله في الوقت عينه على مكافآت أكثر بكثير مما في السابق. وخلال بعض الوقت لم يبدُ أن الزواج الذي تم بسعادة وفرح قد أثر كثيراً في طباعه. ثم ولد له صبي، وبهذه المناسبة عُهد بإدارة الأعمال إلى الأب الشاب، الأمر الذي أَمَّن له إيراداً مهماً، وبدءاً من هذه المرحلة تغير كل شيء، مع أن أي شيء في الظاهر لم يبدُ أنه قد تغير. لكن الأطباء المشاركين في الحياة الحميمة للعائلة وحدهم يستطيعون معرفة الواقع وتقديره.

أما بالنسبة إلى الآخرين، فإن هذا الرجل قد أصبح محسناً إلى الإنسانية. إذ شارك في عدد كبير من أعمال الإحسان ذات الطابع الديني، وأعان مالياً مستوصفات ودوراً للأيتام وأديرة وكنائس قروية، وأنشأ مؤسسة للتأمين الاجتماعي لموظفي شركته، واستمر يكسب المال أكثر فأكثر. ولكن، في حياته العائلية، نجد الفشل العاطفي مسيطراً بشكل لا يرحم. فسلوكه تجاه زوجته، التي كانت واحدة من الذين يعرفون طباعه الحقيقية، صار احتمالاً مستحيلاً. إنه يرفض منحها المال الذي تحتاج إليه في حياتها الخاصة، وفي الوقت نفسه يقدم إليها مجوهرات تعادل ثروة. وتباعدت علاقاتهما الجنسية، وتحولت إلى علاقات صعبة من جراء عجز كان يمنعه، في هذا الميدان أيضاً، من أن يحقق لها أقل سعادة. ولتمويه هذه الأحوال، وإخفائها وإلقاء المسؤولية على زوجته، اتخذ عشيقته كان يدّعي أنه يحظى معها بحياة جنسية طبيعية. فيما كان في الحقيقة يتعدها ويرعاها ببذخ وإسراف دون أن يحصل لقاء ذلك على علاقات جنسية معها. وكانت زوجته، التي هي على علم بكل ما يجري تغض الطرف عن ذلك آملة أن يتغير يوماً ما. إلا أنها اكتشفت ذات يوم عند زوجها كتباً جنسية منحرفة تصور أعمال جلد وتعذيب ففهمت أن هذه الأمور ضرورية لإثارتها.

وزيادة على ذلك اعترف لها أنه غير مؤمن في الحقيقة بل يتظاهر بالإيمان تجاه الجماهير، وأن المخدرات وحدها هي التي تتوصل إلى تهدئة القلق الرهيب الذي يلاحقه في كل مكان، وهو يتعاطاها سراً، بصحبة عشيقاته اللواتي يزددن عدداً. فانفجرت الأمور بين الزوجين واندلعت المشاجرات العنيفة التي كانت دلالتها مفهومة وواضحة لأي شخص يعرف ميل بعض الرجال إلى وضع زوجاتهم في خدمة الحاجة إلى العقاب والتعذيب.

وكبر طفلهما في هذه البيئة، ونقلت الأم كل مشاعرها إليه. لكنه نما بشكل سيء ففترض على الدوام للضرب والمعاقبة. ولم ينجح في متابعة دراسته، وفشل في امتحاناته، وعندما وصل إلى سن البلوغ، بدا مختلاً. فكان يختفي ويغيب عن المنزل، ويعاشر أوساطاً مشبوهة ما لبث أن التقى فيها ممثلة شابة عودته على تعاطي المخدرات. ثم تزوجها رغم رفض والديه وخاصمهما. وهكذا كان وحيداً تجاه العالم، ومع عدم حصوله إلا على مبالغ شهرية ضئيلة، أخذ يرتكب أعمالاً مشينة، وفي نهاية المطاف، تركته عائلته يواجه قدره معتبرة إياه مفقوداً أو ميتاً. وقد قام الزوج بكل الوسائل التي يملكها بمنع زوجته من الطلاق، وضحى بمبالغ كبيرة لرشوة رجال الأعمال الذين كانت زوجته تعهد إليهم بأموالها. فدفعها ذلك، وخاصة بعد خسارة ولدها، إلى انهيار عصبي خطر، كما خالجتها أفكار بالانتحار، وما لبثت أن فرت من المنزل الذي اعتبرته مرعياً. إننا لن نلح ونتوقف أكثر من هذا على تفاصيل أخرى من هذا الفشل العاطفي الذي يظهر لنا التواطؤ الحاصل، عند هذا الرجل، بين الحاجة إلى التطور وتغيير طبقته الاجتماعية وتأثير ذاته الخارقة.

ومن جهة أخرى، فإن حالات من هذا النوع أكثر تواتراً مما نعتقد، إذ ليس من المصادفة أن يكون ذوق المحدثي النعمة قد أصبح شيئاً مميزاً جداً لعقلية كاملة، لطائفة كبيرة من الأشخاص.

وهناك ذوات طبقية أخرى مثل الذات الخارقة الأرستقراطية التي لن نتطرق إلى الكلام عليها الآن. أما الأمر الواضح والحتمي فهو أن إجلال تقاليد ما، عبر عدة أجيال، يتجسم في ذات خارقة خاصة، تضع الأفراد في خدمتها بقوة

تقريباً. إلا أن تأثير الأنا الخارق الأرستقراطي يبدو لي معقداً جداً بحيث أنه تقتضي دراسة أكثر عمقاً. إلا أن نطاق هذا الكتاب وحدوده لا تسمح بها.

إننا لن نفهم بشكل كافٍ كل ما يشارك، في بعض الحالات، في صنع وتكوين هذه الذات الخارقة وما يجعل منها مصدراً للانحطاط والانحلال، إذا لم نحسب حساب تأثير القانون البيولوجي، قانون الإشباع والرضى الذي ربما أهملناه كثيراً في أبحاثنا. ألا نرى الثمار الأكثر نضجاً التي احتاجت إلى أشهر لتكوين طعمها اللذيذ وعطرها، تقع في الوحل وتسلم كنوزها للانحلال والتعفن، والبذرة التي تحتوي عليها إلى المجهول الخطر؟. إن الأشخاص أنفسهم إذ يصلون إلى قمة إمكاناتهم، ألا يكونون معرضين للضياع وعاجزين عن المحافظة على أنفسهم في قمة نضجهم؟ إنهم لن يتجددوا إلا إذا بدأوا من جديد دورة الأحداث التي سمحت لأجدادهم بالوصول إلى درجة رضاهم الاجتماعي. وهذا القانون قادر على أن يجعل من بعض أشكال الفشل شرطاً لازماً لانحلال عائلة أو جماعة لا تستطيع النجاة والصمود إلا بالعودة إلى نقطة انطلاقها وبتكرار نموها المتصاعد، بعد أن تكون قد مرت بمرحلة من السقوط. وسيكون هذا مظهراً مهماً من القدر البشري الذي يلاحق بيسر وعسر أهدافاً خارج الإرادة الفردية للأشخاص.

الحياة الجنسية والليبدو^(١)

إن ميدان الحياة الجنسية عند الإنسان ميدان من تلك الميادين التي ظلت مدة طويلة محرمة أمام الأبحاث العلمية. فقبل التحليل النفسي كان خدس بعض كبار الكتاب أو الفلاسفة قد سمح بتحسس أهميتها وإدراك أبعادها. فبالنسبة إلى أفلاطون، تمتزج الطاقة النفسية مع الإيروس^(٢) كما أنشد العديد من الشعراء. وقد ذهب غوته^(٣) إلى أن العديد من مساوئ المرأة وأضرارها يمكن أن يشفيها الحب. وشدد شوبنهاور^(٤) ونيتشه^(٥) على أهمية الحياة الجنسية في تطور الشخصية الإنسانية. ولكن، حتى هذه السنوات الأخيرة، وتحت تأثير المفاهيم الدينية والاجتماعية، ظلت مسائل الحياة الجنسية متعذرة الإدراك بالنسبة إلى معظم الناس، فحتى في أيامنا الحاضرة، يجهل الكثير من الأطباء مسألة عجز الرجل وبرودة المرأة، الأمر الذي يمنعهم من امتلاك أفكار جازمة في هذا الموضوع. فيحتملون العادة السرية كل الجرائم عندما لا يكون الذي يتهمونه هوداء السفلس.

(١) الليبدو طاقة حيوية شبقية في جوهرها تتمثل فيها غريزة الحياة.

(٢) الإيروس غريزة الحب.

(٣) غوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) أشهر الكتاب والشعراء الألمان مؤلف مأساة «فاوست».

(٤) شوبنهاور (١٧٨٨ - ١٨٦٠) فيلسوف ألماني ذو ميول تشاؤمية.

(٥) فريديريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) فيلسوف ألماني نادى بالقوة وأثر في العنصرية الهتلرية.

إن أسباب هذا الجهل متعددة. وفي عصرنا المسمّى العصر العلمي ، نجد أن سطوة بعض المعتقدات ما تزال كبيرة في روح الجماعات ، ويتم هذا بواسطة الذات الخارقة الجماعية ، كما رأينا في الفصل السابق . ومن الجدير بالذكر أنه حتى نهاية القرن الثامن عشر ، كان من المستحيل على الطبيب في الأرياف الاهتمام بأمراض النساء أو بالولادة . فهذه الأمور هي ، لأسباب أخلاقية ، من اختصاص الدايات . ولم يتم إلا في القرن التاسع عشر قبول الطبيب في المخدع العائلي وتوصله إلى اختراق أسرارهِ . ومع ذلك ظلت مفاهيمه مضللة بالأفكار المسبقة لذلك العهد . ورغم الأفكار الجريئة التي طلع بها بعض الأدباء أمثال موسيه^(١) ، أو جورج صاند^(٢) أو بلزاك^(٣) ، فقد ظلت مفاهيمه عند سطح المسألة وظل غير قادر على التصدي لها في العمق . فالجنسانية المثلية في عمل لأوسكار وايلد^(٤) كانت جريمة . وفي فرنسا ، تعامل القضاة مع ديوان أزهار الشر لبودليير^(٥) ككتاب خلاعي . ولكن بتأثير من عمل لبودليير وعمل لفرلين^(٦) ، ولاحقاً عمل لبروست^(٧) ، ولجيد^(٨) ولكوكتو^(٩) وللعديد من الكتّاب الآخرين

-
- (١) ألفرد دو موسيه (١٨١٠ - ١٨٥٧) شاعر فرنسي وكاتب رومنتيقي له دواوين كثيرة .
 (٢) هي أورور دوين ، بارونة دودفان المعروفة بجورج (١٨٠٤ - ١٨٧٦) كاتبة فرنسية عاطفية واجتماعية وريفية .
 (٣) أونوريه دو بلزاك (١٧٩٩ - ١٨٥٠) كاتب غزير الإنتاج صوّر واقع الحياة الفرنسية .
 (٤) أوسكار وايلد (١٨٤٥ - ١٩٠٠) كاتب وشاعر انكليزي .
 (٥) شارل بودليير (١٨٢١ - ١٨٦٧) شاعر فرنسي ترك أكثر من ديوان وترجم قصص إدغار ألن بو .
 (٦) بول فرلين (١٨٤٤ - ١٨٩٦) شاعر فرنسي ، كان تأثيره كبيراً في المدرسة الرمزية . له عدد من دواوين الشعر .
 (٧) مارسيل بروس (١٨٧١ - ١٩٢٢) روائي فرنسي مؤلف الرواية الشهيرة «بحثاً عن الزمن المفقود» .
 (٨) أندريه جيد (١٨٦٩ - ١٩٥١) كاتب فرنسي أثر كثيراً في الأدب المعاصر .
 (٩) جان كوكتو (١٨٨٩ - ١٩٦٣) كاتب ومخرج أفلام فرنسي .

أيضاً، الذين، على غرار روسو^(١)، وضعوا مسائلهم الشخصية في مركز النشاط الأدبي لعصرهم، باتت المسألة الجنسية أقل فأقل غموضاً.

وبموازاة هذا التطور في الأدب، سعى العلم إلى الدخول إلى الجوهر الحميم للأشياء. فقد اعتاد الإنسان على غض النظر عن المفهوم التقليدي للمادة ليتبنى مفهوم القوى الديناميكية. فالمادة، بأشكالها المختلفة ومظاهرها المتنوعة، تعتبر التركيب الموقت والعابر تقريباً لهذه القوى. إذ إن الاكتشافات الأخيرة للكيمياء والفيزياء قد أفضت إلى المفهوم الدينامي للقوى غير المحسوسة وغير المرئية التي تشكل المادة والتي لا يمكن قياسها إلا بواسطة تأثيراتها ونتائجها التي عبرها تكشف لنا القوانين التي تحكمها وتحددها. وقد تشكلت كذلك مفاهيم كونية جديدة ينبغي أن تدفع الإنسان إلى البحث، في ما وراء التجسيدات الحية للأجسام، في نشاط القوى المماثلة لتلك التي ستكون المادة المسماة «ميتة» تجسيدا لها. وهذه المفاهيم، سبق أن وجدناها في الأعمال الأولى التي ظهرت في علم نفس اللاشعور، كما في كتاب المؤلف الألماني شوبيرت عن صراعات الروح، الذي ظهر في العام ١٨١٥، وفي كتاب شرنر عن الأحلام، الذي ظهر في العام ١٨٦٤.

لقد كانت التربة مهيأة إذاً للمفهوم الفرويدي عن «الليبدو». وجميع الأفكار التي كوّنوها القرن التاسع عشر عن الإنسان تمّ التخلي عنها تقريباً. فاعتبر الطفل البريء والطاهر لأجدادنا كائناً تحركه الغرائز المتعددة الأشكال وغير المنظمة التي تجعل منه كائناً منحرفاً، مثله مثل الأفراد الذين يمتلكون حياة جنسية عنيفة ومضطربة. إن دراسة النفس الإنسانية تقع اليوم في مركز الاهتمام العام، تحت ضغط الأبحاث التحلّفية^(٢) التي تقود إلى مفاهيم جديدة للحياة

(١) جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) كاتب فرنسي شهير أثر في الثورة الفرنسية والحركة الرومنطيقية.

(٢) أي التحليلية النفسية.

الجنسية. ولا نستطيع، اليوم، قياس مداها ولا نتائجها، لكننا نعتقد أننا نستطيع القول إن هذه المفاهيم هي في عمق توجه جديد للحضارة المعاصرة ومعرفة الحياة.

ومن المستحيل علينا أن نصف بالتفصيل كيف تكونت هذه المفاهيم الجديدة. ونتمنى على المهتمين بشكل خاص بهذه المسائل العودة إلى أعمال مدرسة فرويد ويونغ^(١)، ثم إلى أعمال جونز الذي يلخص في كتابه أوراق في التحليل النفسي تطور هذه الأفكار. وفي كتاب نسبة الحقيقة إسهام في توسيع المسألة، وخاصة في ما يختص بنظرية المعرفة.

لقد حاولنا في الفصل السابق أن نوضح الدور الذي تقوم به العائلة في تطور الحياة الجنسية لفرد ما ونموها عنده. فلنتصد الآن لمفهوم الليبيدو كما يبدو لنا اليوم.

إن الليبيدو هو الطاقة النفسية التي يمتلكها الإنسان لبناء جسمه، وبالموازاة مع هذا التطور، للقيام بتكوين شخصيته. وبعبارة أخرى، ومن وجهة نظر علم نفس اللاشعور الجديد، إن الكائن البشري كما يظهر في ظروف حضارتنا وأحوالها، سيكون نتاج تركيب رحيم يستلزم استهلاك طاقة كبيرة. وسيتم هذا التركيب في نطاق إمكانات تطورنا، ومع عدد ما من البدائل والمتغيرات، ولن نستطيع حتى الآن، وفي أي حال من الأحوال، تجاوز بعض الحدود. إنه يمتلك كنقطة انطلاق الفعل الجنسي للأهل الذي يحدد تكون الثمرة البشرية التي يمثلها الطفل. فالولادة لا تحطم الروابط التي تصل هذه الثمرة بالأم. إذ يتواصل نموها متوازياً مع نمو الإدراك. وللحواس نصيبها في ذلك حتى لو كانت تجلياتها ليس لها طابع جنسي بالتحديد. إذاً، هناك منذ بداية هذا التطور تبادل بالانفعالات والإدراك بين الطفل والأهل. وبوساطة هذا الإدراك

(١) كارل غوستاف يونغ (١٨٧٥ - ١٩٦١) عالم نفساني سويسري وأحد مؤسسي علم التحليل النفسي.

يؤثر هؤلاء الأهل فيه لتكوين شخصيته . حتى نخال أن هناك تبادلاً لليبيدو بين الأهل والطفل ، فالرباط النفسي الذي يجمعهم يمثل رباطاً ليبيدياً .

فالكلمة ليبيدي هي التي استبعدت لفظة «ليبيدو» عند الكثير من الفرنسيين ، لأن الكلمة المشابهة ليبيداوي تستخدم للتعبير عن معنى آخر اكتسب دلالة محقّرة . وقد اقترح بيشون لفظة «جاذبية» للحلول محل لفظة «ليبيدو» ، لكنها لم تحظ بالكثير من المؤيدين ، فيما دخلت لفظة «ليبيدو» في اللغة والتعابير المتداولة .

فالروابط التي يتوجب على الفرد إقامتها مع محيطه متعددة ويتم إيجادها بوساطة قطاعات جنسية مختلفة تتطور بمستوى الإدراك . فيتعلم الفرد أن يستهلك طاقته الليبيدية أو يبادلها بطريقة متنوعة لكي يؤمن وجوده أولاً ، ووجود النوع بعد ذلك . ويتم هذا التبادل للطاقة الليبيدية عند الرضيع بشكل أساسي بوساطة القطاع الفمي في كل مرة يرضع فيها . فنقول إن الليبيدو في المرحلة الفمية من تطوره ، وبعد عمر ستة أشهر تقريباً ، يظهر قطاع جنسي آخر ، دون أن يستبعد القطاع الفمي كوساطة للتبادلات الليبيدية . إذ يبدأ الطفل بالاهتمام بما يفعله ، وبتعليمه النظافة ، يصبح القطاع الشرجي وساطة مهمة للتبادلات العاطفية بين الأم والطفل . ويضاف إلى هذين القطاعين على الأثر قطاع ثالث ، قطاع تناسلي يثير اهتمام أجزاء مختلفة من الجسم أولاً ليتموضع على الأثر في مكان الأعضاء التناسلية . ومع نمو الطفل يكتسب القطاع الجنسي أكثر فأكثر شيئاً من الأهمية ، ثم نصل إلى المرحلة القضيبيّة لليبيدو ، وتقوم هذه المرحلة بدور مهم عند الجنسين ، إذ تبدأ الفتاة الصغيرة بنمو مشابه لنمو الصبي قبل أن تنخرط في اتجاه خاص بها . وتمثل كل مرحلة من مراحل هذا النمو نمطاً من التبادل الليبيدي يقوم به الفرد مع محيطه . ولهذا السبب نتكلم على ليبيدو فمي وشرجي وتناسلي بحسب طريقة استهلاك الليبيدو .

لقد وُجّه الكثير من النقد إلى لفظة «شرجي» بسبب طابعها المبالغت ، على الأقل لأولئك الذين لم يتألفوا مع هذه المسائل . وقد تم التساؤل أحياناً عما إذا لم يكن من الأفضل اختيار لفظة «استثنائي» التي اقترحها بيشون ولافورغ ، أو

لفظة «هضمي» أيضاً . لكن التجربة العيادية أظهرت ، في الواقع ، أن في المرحلة الشرجية من نمو الليبدو، مصالح ذات طابع شرجي ونمائي تسود في البحث عن إشباعات لبيدية . وسنصل إليها بعد قليل . أما الآن فسنحاول وصف ما يميز ، على المستوى النفسي ، كل مرحلة لبيدية .

أما في ما يتعلق بالمرحلة الفمية ، فإن سلسلة الإمكانات للتبادلات العاطفية محدودة بالضرورة . فالرضيع يتعلق بأمه أو ببديلها . وهو عاجز ، بمبادرته الخاصة ، عن الدفاع عن نفسه . فيخلق هذا الارتباط عدوانية مهمة كلما كان الشخص الذي يحتاج إليه غير حاضِر . ولكن إذ لا يعرف ماذا يفعل بها ، ينخرط في البكاء مستهلكاً إياها ، ويثور ويهاجم نفسه في أكثر الأحوال ، فهو لا يملك أي مخرج آخر . ويبدو أن هذا الأمر يتغير مع ظهور المرحلة الشرجية . فبدءاً من هذه اللحظة ، تختار العدوانية أهدافاً ، ومع بداية ظهور الأسنان تستطيع الانصباب على أشياء خارجية . فلذة التجميع والعجن وتحويل كل شيء إلى جسم مهروس لا شكل له وقابل للتمثل والهضم ، مميزة لهذه المرحلة . وتقوم الاهتمامات البرازية بدور هام ، فكل رائحة برازية ، بدلاً من إثارة النفور والاشمئزاز ، تشكل جاذبية . ويظهر إصرار على هذا الاهتمام لاحقاً ، عند بعض المنحرفين ، على شكل ميل لكل ما هو نتن ومشوه وعفن .

وفي المرحلة الشرجية ، تصبح سلسلة الإمكانات العاطفية أكثر كبراً . إذ يمتلك الفرد طاقة عدوانية تتيح له مهاجمة الأشياء الخارجية ، مع الحاجة إلى أن يجلب لنفسه كل ما هو أهل للاستسلام له . ومع الوقت تتوطد معرفة ما بالأشياء التي تنقسم إلى فئتين : الأشياء التي تستسلم وتلك التي تعصي . ومن بين تلك التي تستسلم وتطيع نزوة طفل ، أطراف الجسم . وتجربة لذة إظهار العدوانية إلى الحاجة إلى ممارسة قوته لغاية وحيدة هي التعبير عن نفسه . وتظهر هذه الحاجة ويعبر عنها بوساطة المظاهر الأولى للإرادة عندما يثابر المرء في اتجاه خاص . وبفضل إرادته يستطيع امتلاك أطرافه وتعلم استخدامها ، الأمر الذي يتطلب تناسق حركات الجسم ، وهو تناسق ضروري لبلوغ هدف ما والبقاء عنده . إلا أن إمكانات التبادل في هذه المرحلة محدودة أيضاً . إذ لا يهتم الفرد إلا بما

يستطيع جلبه لنفسه. فيضع نفسه في مركز الكون، فهو استثنائي ولا يستطيع إدراك شيء إلا نفسه أو ما يشبهه.

فلدى الطفل في المرحلة الشرجية ميل إلى الإمساك. وتظهر هذه الطريقة في الحفاظ أيضاً، بشكل متناقض ظاهرياً على المستوى النفسي عبر ملكة التعلم بحفظ المادة النفسية التي تمّ تمثيلها. وهكذا تتطور الذاكرة بوساطة ملكة تشكيل ذكريات مع انطباعات محفوظة ومتمثلة بوساطة الحياة النفسية. فلن تكون الذكرى إذاً شيئاً آخر يختلف عن تأليف من الأحاسيس التي تتحقق مع شيء من الليبيدو خلال تجربة سيقى المرء مرتبطاً بها. وهذا التأليف يمكن أن يستحضر، ويعالج في موضوعه ومادته فيما يستطيع الليبيدو دائماً أن يكون من جديد على اتصال بهذا التأليف عندما يتم الشعور بالحاجة إلى تذكير الأحاسيس المعاناة لجمعها وضمها إلى أحاسيس أخرى، ومقارنتها في ما بينها، وتكوين فكرة منها. فالرابطة التي ستربط هذه التداخيات ستكون بدورها رابطة ليبيدية. ويستلزم أن تكون مثل هذه التأليف، وبشكل مقبول: طاقة نفسية. وانطلاقاً من تدخل الإرادة والذاكرة تتكون بهذه الطريقة العناصر الأولى للشخصية. وهذه الشخصية، في المرحلة الشرجية، لا تبلغ تماماً المفهوم الواضح للذات.

إن الذات تمايز للأنا، كما أن هذا ينبثق من الجملة «أرى نفسي». فالأنا يمثل الشخص، نفسياً كما جسدياً. ويبدو أن مفهوم الشخص، وبالتالي مفهوم الأنا، يتكوّن أولاً، أي مفهوم ما يشكل أو لا يشكل جزءاً منا. فممارسة الرغبات الليبيدية في المرحلة الشرجية اختيارية بشكل قوي، وكما سنرى لاحقاً، مخربة جداً وجنسية شبقية. فما يميّزها بشكل واضح هو القساوة التي تعبّر بها عن نفسها عدوانية الفرد. وقد تطلق رؤية الآلام والتعذيب عنده متعاً حقيقية، وتفسح في المجال لحاجة تُشبع أيضاً عبر تدخل المخيلة أو الحلم. فالقساوة التي تظهر في القصص التي يرويها الأطفال معروفة أيضاً من الجميع.

وفي المرحلة الشرجية من الشخصية لا تستطيع المعرفة، بالبُعد الذي نعطيه لهذه اللفظة، التحقق أيضاً بشكل طبيعي. غير أن الإنسان يحتاج إلى المعرفة، وليس ذلك إلا ليقى نفسه من القلق الذي يوحيه له التحقق من وجود

قوى مناقضة له ولا تخضع لإرادته . وهو إذ لا يستطيع أن يدرك شيئاً غير ذاته ، ينسب إلى القوى والأشياء التي تحيط به ، والتي تفلت منه معرفتها العقلية ، طريقته الشخصية في الشعور والإدراك . باختصار ، إنه يمنح الأشياء شخصيته وحاجاته ورغباته ، ويعتقد أنها تماماً كما يحس ويشعر . ونخال أنه يُسقط مفاهيمه ، وأن طريقة معرفته هي طريقة الإسقاط . ويلاحظ هذا الإسقاط أيضاً عند البدائيين في مرحلة الفكر الإحيائية^(١) .

وتفيدنا الأثنولوجيا^(٢) أن المرء في هذه المرحلة يؤمن بالسحر . فماذا يمثل السحر في رأينا؟ إنه وسيلة لمكافحة القلق الذي يثيره فينا خطر ما ، ليس بالإلغاء العقلي للخطر ، بل بالتأثير فقط في التصور الذي نكوّنه عنه . فإذا ما شعر أحدنا مثلاً بأنه مهدد من قبل قوة سحرية ، فإنه يدافع عن نفسه باستخدام مضاد للسحر يؤمن بقوته وفعاليته ، حتى حين يستمر الخطر الذي يهدده بالوجود فعلياً . فبالإيمان بمضاد السحر يلغي ببساطة المفهوم أو التصور الذي يكوّنه عن الخطر ، فضلاً عن القلق الذي يتصاعد منه . إنه يضع ، كما يُرى ذلك أحياناً ، بعض البراز على جرح لمكافحة خطر سوء يعزوه إلى تأثير قدرة سحرية . ويعتقد أن هذا الخطر يزول بممارسات هي في الواقع لا تستطيع إلا زيادته ومفاقمته .

لماذا يوجد هذا الإيمان بالسحر؟ إن الفرد يعوّض شعوره بالدونية ، ويقصي القلق الذي يسببه عبر شعوره بقدرة كلية . وبإسقاطه يعزو هذه القدرة الكلية إلى أشياء ، الأمر الذي يجر إلى الخوف من هذه القدرة الكلية في نطاق ما تستطيع التأثير فيه . فالإيمان بقدرته الكلية سيظهر كذلك بالخشية من قوى سحرية تحرك الكون كما هو مدرك في هذه المرحلة من الفكر .

وبحسب الأفراد والحضارات التي تشكلهم والتي يشكلونها ، يتجسد حول هذه المحاور للشخصية النشاط الأساسي النفسي للأشخاص في جميع

(١) الإحيائية نزعة ترى أن للموجودات الطبيعية أرواحاً تحركها .

(٢) الأثنولوجيا علم يبحث في أصول السلاسل البشرية .

الحالات التي لا تسمح لهم ظروفها في الخروج إلى نمط آخر من الفكر. ويُترجم هذا باعتقادات سحرية أو بتنظيم اجتماعي مميز للقبيلة البدائية. وبالمقابل يستطيع فرد مكبوت، منتسب إلى حضارتنا أن يتعلم على الوجه الأكمل التصرف ظاهرياً مثل كل الآخرين. ولكنه في الواقع، ولا شعورياً، يبقى في مرحلة من تطوره ومن فكره، ترغمه على البقاء، من غير علمه، أسير معتقدات ومفاهيم بدائية. وينبغي لكي نفهمه أن نتألف أكثر مع التطور اللاحق للشخصية. ذاك التطور التالي للمرحلة الشرجية والمشروط بظهور التدرج التناسلي لليبدو. وستتطرق إلى ذلك لاحقاً، أما الآن فلنكتف بتوضيح أن تنافرات من هذا النوع تستطيع إرغام الإنسان على تعليم وثقافة متقدمين جداً ظاهرياً، وعلى الاستسلام إلى ممارسات يعرف هو نفسه أنها خرقاء كما نلاحظها غالباً في الوسواس وعُصابات الفشل.

ففي الوسواس مثلاً، قد يمتنع إنسان ما، أثناء تسلُّقه سلماً، عن تخطي أقل من ثلاث درجات في كل خطوة خشية أن ينهار المنزل. إن الممارسات الوسواسية تنكشف عند التحليل كأنها محددة من قبل الإيمان بالسحر. ومهما كانت المفاهيم الدينية أو العلمية لدى فرد موسوس، فإنه لا يستطيع الرد على الواقع بشكل مغاير للفكر السحري. إذ يُظهر التأثير المسيطر للذاتية الشرجية على شكل حب ذاتي مفرط، أهمية مبالغ فيها منسوبة إلى الشخص، وحاجة إلى الحذر وحماية النفس من كل إصابة وكل خطر بوساطة ممارسات سحر احتفالي. وفي ظروف حضارتنا ومعطياتها يظهر هذا السحر عبر زهو وتأثير واضح، بوساطة نزعة وسواسية مدققة في لمس الأشياء وفي العلاقات مع الآخرين، وعبر ميل بارز إلى حد ما إلى تجميع المال أو أشياء تمثل قوة ما. ويجرّ حب الذات المفرط إلى تصور خاص للعدالة ولطبقات المجتمع. فلممارسة السلطة عند مثل هؤلاء الأشخاص الذين يمتلكون مسؤوليات أو وظائف عامة حكومية، هدف رئيسي هو تأمين المستلزمات الملحة لشخصهم الذي يحكمه ويسيطر عليه حب الذات هذا. فالحاجة إلى ممارسة السلطة تظهر غالباً باكتساب بلاغة خاصة عند بعض السياسيين أو الخطباء الذين بالنسبة إليهم

كل الحجج جيدة للتأثير في جمهورهم ولإبراز وجهة نظرهم الخاصة .

إن دراساتنا تظهر لنا أن تطور المرحلة التناسلية يقتضي إعداداً طويلاً، ويحتم جزئياً إعادة سبك للمحاور البدائية للشخصية كما تكونت سابقاً . في حين أن المرء في المرحلة الشرجية يسعى إلى إدخال شيء من النظام إلى انطباعاته، محاولاً إعادة كل شيء إلى صيغة بسيطة مثل الصيغة التي يزوده بها الإسقاط، وخلال المرحلة التناسلية، نجد الانسجام الذي نجح في نشره في عالمه مهتداً من قبل الميول الجديدة التي ولدتها الغرائز التناسلية في تصوراتهِ . وتتأسس في المرحلة الشرجية أطر صارمة وتناظرات ومعادلات وصيغ شعائرية ترجع إليها جميع الإدراكات والتعابير العائدة إلى الشعور . ويبدو أن هم رعاية حب الذات الذي يخالجه كل فرد والدفاع عنه ضد القدرات السحرية في أساس التنظيم الاجتماعي المدرك في هذه المرحلة . ومع تطور الغرائز التناسلية خلال تكون عقدة أوديب، يميل الطفل إلى الدخول في تنافس عاطفي مع من يماثله في الجنس من والديه، بسبب الارتباط الليبيدي الذي يتوطد مع من ينتمي إلى الجنس المناقض له من والديه . لكن هذا الواقع ، البسيط جداً في الظاهر يسبب تعقيدات عديدة، ويخضع الشخص لمحن كبيرة، وضرورية لتطور الشخصية البالغة الراشدة .

إن منافسة الصبي العاطفية مع والده ومنافسة الفتاة مع والدتها يتسببان عند الجنسين، كما رأينا سابقاً، قلقاً ذا طابع خاص : قلق الخصاء . وللدفاع عن النفس تجاهه، يخالف المرء تطوره الجنسي ، الأمر الذي يؤدي في الحالات المرضية التي يستمر فيها هذا التناقض، إلى قلب حقيقي للحياة الجنسية . ويبقى هذا القلب طبيعياً طوال الطفولة، ويظهر مصحوباً بحساسية فعلية حتى سن المراهقة، وغالباً إلى ما بعدها، بشكل ميل إلى الجنس المماثل، بشكل خفي أو ظاهر واضح . وعندما تتحقق الشخصية أو ثقافة ما في هذه المرحلة العاطفية، يحتم هذا القلب تطوراً خاصاً للفكر نود أن نسميه مع فريزر: الفكر الديني في مواجهة الفكر السحري التابع للمرحلة الشرجية في الشخصية . وفي حين أن السحر في هذه المرحلة له كهدف الدفاع عن الكائن ضد القوى

الكلية القدرة التي يعتقد أنها تهدده، نجد في المرحلة التناسلية أن التنافس مع من هو من جنسه من والديه يؤدي به إلى مفهوم شخصية أخرى، أرفع منزلة من شخصيته. ويدل هذا المفهوم الشعوب على وجود القوة الإلهية ويقودها إلى الإيمان. وليس على مظاهر هذه القوة الإلهية أن تكافح بوساطة طريقة سحرية، بل يتبنى المرء الوسائل التي وضعتها الثقافة في تناوله: فيصبح متواضعاً، ويسعى إلى أن يكون أهلاً للرحمة والمحبة والعطف للحصول على المساعدة والحماية من الرأفة الإلهية. فليصل وليطلب العفو والمغفرة.

في السحر الطقوسي، نوع من المساومة، يستبدل بالصلاة التي لم تعد تدعي مكافحة قوة بوساطة السحر الكلي القدرة، بل التي تقبل بخضوع أن تتم إرادة الله، مع الرغبة بأن تكون، بشكل شخصي محفوظة بوساطته. وهكذا يتطور على هذا الأساس العاطفي الفكر الديني، كما فهمه فريزر، مميزاً بالخضوع لإرادة الله الكلي القدرة. وبحسب تطور الأفراد والحضارات، نجد الفكر الديني أهلاً للحلول شيئاً فشيئاً محل السحر الاحتفالي التابع للمرحلة الشرجية، لكي لا يحفظ منه إلا بعض الآثار. وسيمثل، مثله مثل السحر الاحتفالي، أوعية الدفاع النفساني ضد الخوف الذي تثيره أخطار الحياة. وفي الواقع، إن الفكر السحري لا يمارس أي تأثير في الإنسان أو في القوة التي يريد الوصول إليها؛ في حين أن الفكر الديني يسعى إلى التأثير في الإنسان بوساطة المحبة وبكل الاحتفالية الدينية للتوبة. فتنشأ إذاً علاقة بين الفرد والقوة التي يخشاها. وهذه الرابطة هي التي بتطورها ستحدد التنظيمات الأولى للعلاقات الاجتماعية المميزة لحضاراتنا الأبوية. وتحت ضغط تطور الليبدو، مع التدخل الأكثر فالأكثر قوة للغرائز التناسلية، قد يخضع هذا النمط من العلاقة إلى تغييرات متعددة. فهو في أساس تصور جديد للأشياء التي لم تعد تدع مكاناً للتصور العائد إلى المرحلة الشرجية: التصور الديني للواقع. إذ تصبح جميع الكائنات وكل الأشياء من خلق الكلي القدرة وتحدد إرادته حياتهم ومظاهرها.

فالآرباب أنفسهم في الأساطير تم تصورهم بشكل العائلة البشرية. إذ يسيطر الآلهة. الأسمى على الآلهة الأخرى كملك يحكم رعاياه. ويمتد هذا

التصور الأبوي للعالم تقريباً على كل الظواهر المنظمة بشكل عائلي ، ومع معنى خاص لطبقات المجتمع . ويتوافق هذا التصور أيضاً مع تصور جديد للإنسان ، مع ذاته وأناه وجسمه وروحه ، فالذات تسيطر على الفرد كله كما يسيطر أب على العائلة . ونجد أن الحضارات التي تتطور في هذه المرحلة العاطفية من حياة الإنسان ذات سيطرة أبوية وفردانية ، في حين أن حضارات المرحلة الشرجية هي أكثر جماعية . فالعائلة في مفهومنا تحل محل العائلة الاصطلاحية التي لا تزال تجهل الأبوة كما تجهل مفهوم الطبقة والبنوة كما هي ميزة للمرحلة الدينية من الفكر . لكن هذه التصورات ، بدورها مؤهلة أيضاً للخضوع إلى تحولات عديدة ، رغم الطابع المقدس الذي تمتلكه في نظر الفرد . وتولد عقلية جديدة تحت ضغط الغرائز التناسلية تسبب ، عند الأفراد والرجال منهم بشكل خاص ، معارضة قوية بشكل متزايد تجاه الأب ، ثم يصبح من الصعب عدم المساس بالمعتقدات الأسطورية وتصورات الواقع المكوّنة في بداية المرحلة التناسلية . فبقدر ما يعبر الفرد عن نفسه ويؤكد ذاته تثير الآلهة قدراً أقل من الرعب ، ويتكشف قلق الخصاء كشعور لا مبرر له ويهاجم الشك معتقداته الأسطورية القديمة ليتيح له التفكير بتفسيرات أخرى للواقع غير تلك التفسيرات التي زودته بها الأساطير فقط . إنه يعتمد ويثق بنفسه بخبراته ، بعلمه ، ويطور كذلك التصور العلمي للواقع الذي قد يواجهه على الأثر التصور الأسطوري ويقاومه ويستبدله كلياً تقريباً . وفي نسق الأفكار نفسه ، قد يولد مثال اجتماعي جديد ويؤدي إلى تنظيم لمجتمع جديد .

ولكن كيف سيتطور هذا الفكر العلمي ؟

في الواقع بقدر ما يتوصل الفرد إلى إدراك العلاقات القائمة بين الأشياء تولد حاجة خاصة كلياً لم يُدرّس تكونها بشكل كافٍ حتى الآن : إنها الحاجة إلى السببية . وتتوافق هذه الحاجة مع الضرورة العاطفية التي يوجد فيها الإنسان في المرحلة التناسلية ، الحاجة إلى ترتيب الأشياء بعضها مع بعض بإقامة علاقات البنوة والقربة فيما بينها . وستكون هذه الحاجة إلى السببية المهمة جداً في النشاط الفكري ، والحالة هذه ذات علاقة بالاحتياجات العاطفية للكائن

الذي يصل إلى المرحلة الدينية من الفكر. إذ تتيح له إنشاء روابط منطقية بين مختلف الظواهر المدركة، وأن يخضع للمنطق كل تفسير للوجود، وأن يصل إلى معرفة بالظواهر وتكوينها. وبدءاً من درجة معينة من هذا التطور، يتعد المرء عن مفاهيم المعارف المألوفة ليتبع طريقه الخاص في البحث عن تحديد الأشياء وحتميتها، فيصل إلى ما يسميه فريزر «المرحلة العلمية» من الفكر. وفي هذه المرحلة، ولمقاومة القلق الذي تثيره فيه أخطار الواقع، يكف المرء عن اللجوء إلى السحر وإلى الفكر الديني، ويعتمد على المعرفة العقلية التي اكتسبها، بفضل تعليمه ومحيطه وخبرته الخاصة. ولكننا لا ننخدع بالإمكانات والنتائج الحالية لهذا التطور. وفي معظم الحالات نجد أن العادات المقتبسة في أثناء تكوّن الفكر الديني قد أسهمت بشكل عميق، في ظروف حضارتنا، في توضيح وبلورة الشخصيات التي تشكل جماعاتنا، ففي عصرنا، حتى عند الوصول إلى المرحلة العلمية من الفكر، نحفظ في لاوعينا، وبشكل ذات خارقة، المفاهيم والمعتقدات والسلوك المكتسبة والمرسخة في عهد المرحلة الدينية، كما سبق أن رأينا في الفصل السابق. وإلى هذه المرحلة من التطور الليبدي، بالتحديد، يعود أكبر عدد من القوانين والأعراف التي تحكم حياتنا الاجتماعية. ثم أليس باسم الأخلاقية المميّزة للدين، كل دين، يلغى بتضحية:

تضحية الدفع، وأن كل عمل يعطي الحق بتعويض ومكافأة، كما أن التوبة تستحق غفراناً؟ ويعني هذا الواقع أن مجتمعنا، حتى في الجماعات العلمانية، منظم على أساس التصورات الدينية. وتصبح هذه القاعدة هشة أكثر فأكثر بقدر ما يتحرر الأفراد تحت تأثير تطور الفكر العلمي الذي خلق الآله. وتنطرح بحدة متنامية مسألة معرفة من سيحل محلها، دون أن نستطيع، في الوقت الحالي، إعطاء جواب مرضٍ عنها. إلا أن من السهل التحقق أننا سنجد أنفسنا عند منعطف من تاريخ مؤسساتنا الاجتماعية. فهل نندفع نحو النزعة الجماعية البيولوجية؟ وهل ستكون هذه النزعة نتيجة للفكر العلمي أم إننا سنعود إلى تنظيم اجتماعي أكثر أبوية؟ المستقبل وحده يستطيع الإجابة.

إن هناك العديد من التوجهات المختلفة بين مختلف الأفراد الذين وصلوا

إلى المرحلة التناسلية من التطور البشري، فكيف نستطيع تمييزها من النموذج الذي وصفناه سابقاً، بسيطرة شرجية للييدو؟ لقد تبيناً أن اللييدو التناسلي يسمح للفرد بإقامة روابط عاطفية مع أشخاص مختلفين عنه، يهتم بهم في ذواتهم، دون منحهم بشكل منهجي طريقته في الإدراك، وهذا الأمر ميزة خاصة بالمرحلة الشرجية من المعرفة. أما في المرحلة التناسلية، فإنه يهتم بتصنيف العناصر والأشياء وفق مظاهرها الخارجية بشكل أقل من اهتمامه بالروابط التي يستطيع إقامتها في ما بينها، روابط التسلسل، والسببية، والتكوّن. فنخال في هذه الحالة أن تصور الواقع قد أصبح أقل سكونية وأكثر دينامية. ويقود اكتساب هذه الطريقة في الرؤية علماء عصرنا إلى التخلي عن التصور السكوني أو المادي للكون كما تحقق في القرون الأخيرة. فالشكل والمادة والفضاء والزمن تصبح شيئاً نسبياً، في تغيّر مستمر أبدي.

إن الهم الطاغي لشخصيته الخاصة لم يعد يهيمن على اهتماماته عند وصوله إلى هذه المرحلة. بل قد ينمحي لحساب الأشخاص والأشياء التي يحبها. ولا يقوم بذلك بطريقة متعصبة أو متزمتة، على طريقة الـ ساك بل بتساهل. وبعبارة أخرى إنه لن ينظر إلى وجوده الشخصي بجدية كبيرة لأنه ليس الهدف الوحيد لحياته. وسيسمح له هذا الفعل بالعيش بسهولة، وبالنتيجة، العيش دون أن يكون موسوساً بشكل متواصل بالحاجة إلى توكيد قوته الخاصة أو تأمين خلوده، كما هي الحال في المرحلة الشرجية.

هذه بعض المفاهيم العامة عن تكوّن الشخصية عبر المراحل المتعددة للتطور البشري، بحسب هيمنة تأثير هذا المحور أو ذاك، التي تميز بينها محاور ذات طبيعة فمية - شرجية، وشرجية، وشرجية - تناسلية أو تناسلية. ويتم تأليف الشخصية في اتجاهات مختلفة. ولكل اتجاه نشاطه النفسي والفكري الخاص، أي عقليته الملائمة. وبعض هذه العقليات يتوافق مع العقلية الجماعية للوسط الذي ينمو الفرد فيه. وبعضها الآخر يقع خارجها أو معارضاً لها، فإما أن يظل دون مستوى تطور العقلية الجماعية أو يصل إلى ما بعدها، الأمر الذي سيحكم غالباً على الفرد بالفشل العاطفي أو الاجتماعي. إذ لمفاهيم العقليات الفردية

المتقاربة بعضها من بعض نقاط مشتركة، في حين أن الاختلاف بين مفاهيم العقلية المتطرفة والمتناقضة يمكن أن يكون كبيراً إلى حد أن أي تفاهم حقيقي لا يمكن أن ينشأ في ما بينها .

إن تصور الفشل العاطفي ، إذاً، تابع للعقلية الجماعية التي ننتسب إليها والتي نتبنى منها المفاهيم القيمة . وله بشكل خاص قيمة تطبيقية، لأنه يعلمنا عن مجموعة من العوامل التي يتوقف عليها توجه حياة الأفراد أو الجماعات، ونشاطهم الفكري أو الاجتماعي، وتطورهم أو انكفاؤهم . لقد قمنا في الفصل الحالي بالإشارة سريعاً إلى المستويات المختلفة التي يمكن أن تبني الشخصية البشرية عليها، بحسب حدوث تأليفها في هذا الاتجاه أو ذاك .

ملاح من الحياة الجنسية للرجل

من المهم بمكان أن ندرس مقدار ارتباط أعراض الفشل بالحياة الجنسية للمرء، وكيف تظهر على شكل اضطرابات مهمة أكثر مباشرة في هذا الميدان من الحياة العاطفية.

إن هذه الاضطرابات، بشكل عام، غير المعروفة بشكل جيد بعد والمفهومة بشكل سيء هي نتيجة النزاعات التي تعرقل نشاط الليبدو وتدسّله عن طرق تطوره وتعبيره الطبيعي. وتظهر هذه النزاعات عند الرجل بطريقة متنوعة للغاية. كما أننا نميز عيادياً ثلاثة أنواع من العلامات المرضية: اضطرابات الفحولة، واضطرابات الإنعاز، واضطرابات الشهوة الجنسية.

١ - اضطرابات الفحولة

إن اضطرابات الفحولة تحدّد بشكل عام العلامات المرضية التي تشكل جزءاً من العجز الجنسي عند الرجل. وفي العجز الكلي، لا ينجح الرجل بالاتصال بالمرأة إذ تصبح القدرة على الاتصال الجنسي بها مستحيلة.

أما في العجز الجزئي فإن الرجل يشعر أولاً أنه طبيعي وأنه قادر على مباشرة المرأة، لكنه يخفق على الأثر، وبشكل عام بعد إراقة مبكرة تمنع من متابعة الجماع إلى نهايته. وهذه الإراقة المبكرة تصيب المرء بدرجات مختلفة جداً. فقد تحدث عند كل جماع، كما أنها قد تكون طارئة مفاجئة إلى حد ما. فأحياناً لا تحدث إلا أثناء الجماع الأول، في حين أن جماعاً ثانياً قد يحدث بعد بضع

ساعات، يتم بشكل طبيعي أو أيضاً يكون الرجل طبيعياً أثناء الاتصالات الأولى مع امرأة، ثم تختفي قدرته ما إن يعتاد على شريكته.

وفي العجز الكامل قد تحدث الإراقة دون أن يكون هناك اتصال مباشر بين المرء وشريكته، على بعد تقريباً، ودون حصول أي نوع من الجماع، فالرجل يشعر بالرخاوة والارتخاء. أو أيضاً عندما يشعر بالقوة، تزول هذه القوة مباشرة بعد الإراقة التي تتم كذلك خارجاً.

٢ - اضطرابات الانعاض^(١)

إننا نواجه في جميع الحالات اضطرابات الانعاض التي لم تستطع حتى الآن أن تلت بشكل كافٍ انتباه الطبيب السريري ولا العالم النفساني. فهما في أغلب الأحيان يهتمان بالاضطراب العميق للميول العاطفية لدى الإنسان، وهو اضطراب يمتلك انعكاسات حتى على التوازن الجسدي. وبإمكان اضطرابات الانعاض الإضرار بالرجل بدرجات مختلفة وفق الحالات. فهناك إراقة دون انعاض مثلاً، في حالة الإراقة المبكرة، أو يتأخر الانعاض كثيراً وكذلك الإراقة أو لا يتم الانعاض. ولا الإراقة أبداً، رغم فحولة كافية وجماع ممتد ومطول.

وفي العديد من الحالات، نجد أن الانعاض هو مؤلم بدلاً من أن يكون مرضياً، وقد يحدث الألم فجأة وبشكل حاد وواخز إلى أن يسبب تشنجاً مكدرًا يوقف الجماع دون حدوث أي إراقة أو أن الإحساس يتحول إلى قلق قبل الوصول إلى حدة الانعاض وذروته: فيجهض الانعاض ويخفق ويخلي المكان لشعور بالنفور والخيبة. وفي بعض الحالات يستبدل الانتعاض كلياً بالألم الذي قد يمتلك طابعاً انتخابياً. فقد لا يحدث مع بعض النساء، النساء الباردات مثلاً، وبالمقابل فإنه يسري وبقوة عند الاتصال بامرأة غير باردة جنسياً بل حرة التعبير عن أنوثتها. وأحياناً، لا يحدث الانعاض إلا مع نساء ذوات مستوى اجتماعي أدنى ونساء محتقرات في حين أنه يجهض مع النساء المحبوبات

(١) الإنعاض : ذروة النشوة الجنسية.

وذوات المستوى الاجتماعي الراقى . وتطالعنا الحالة نفسها بالنسبة إلى الفحولة، الأمر الذي يخلق عجزاً انتخابياً يظهر فقط في بعض الحالات المحددة .

إن كل هذه الخصائص للسلوك الجنسي ، التي بكل أسف لا يعيرها الاهتمام الذي تستحقه ، لا الطبيب ولا صاحب العلاقة ، لها تاريخ عاطفي مميز جداً . وسنعود إليه عندما سنحاول تفسيرها بوساطة طبيعة النزاع الذي تكشفه ، وهو نزاع ، بشكل عام ، لاشعوري .

٣ - اضطرابات الشهوة الجنسية

إن اضطرابات الشهوة الجنسية تشكل جزءاً من ميدان الانحرافات المتميزة بدقة بشهوات جنسية مرضية . والاضطراب الأكثر شهرة هو الميل إلى أفراد الجنس المماثل كاللواط أو السحاق . ومن الصعب أن نتخيل عدد أنواع الشذوذ الذي نعثر عليه قيد التطبيق . فهذه الأنواع والأشكال تبدأ من حدود الطبيعي إلى الشذوذ المتطرف . فبشكل عام ، إننا نميز ما بين النزعة الجنسية المثلية النشيطة والنزعة الجنسية المثلية السلبية . فالأولى لا تمنع الرجل من القيام بالدور الرجولي خلال الفعل الجنسي ، إلا أنه يختار شريكاً ذكراً مختلاً يهوى الرجال . أما في النزعة الجنسية المثلية السلبية ، فإن الرجل يتوحد ويتماثل مع المرأة ويسمح لرجل آخر بالنوم معه .

وخلاف هذه الحالات الكلاسيكية ، نبتين مظاهر للجنسية المثلية أكثر تعقيداً . فالعلاقة بين الشاذين جنسياً يمكن أن تحدث بشرط وحيد هو أن تؤدي إلى نتائج اجتماعية سيئة وخطيرة إلى حد ما ، بالنسبة إلى أحد الشريكين . فقد يتم هذا الفعل الجنسي ، مثلاً ، في مبرة عامة ، حيث هناك خطر حقيقي في أن يكتشف البوليس هذا الفعل الجانح . أو قد يحدث أيضاً بين شخص من مكانة اجتماعية مميزة كأن يكون أستاذاً جامعياً أو دبلوماسياً أو كاهناً ، وشخص مشبه مؤهل لأن يقوم بالابتزاز . وينتهي مثل هذا الأمر غالباً بسرقة المحفظة الشخصية أو بأشكال أخرى من الخيبة لصاحب العلاقة الذي وضعه البحث اللاشعوري عن الإذلال والخزي أو العقاب ، بوساطة الفعل الجنسي اللواطى

الشاذ، في وضع من أكثر الأوضاع إضناء وتكديراً. إننا نتكلم في هذه الحالة على ماشوسية تظهر عبر البحث عن المتعة الجنسية بوساطة الإذلال أو التعذيب، كما أننا نميز ما بين الماسوشية الأخلاقية – الأفلاطونية أو الخيالية – إذا صح التعبير – والماسوشية الجنسية.

وأحياناً، لا يحدث الفعل الجنسي الشاذ، عند رجل ضحية للماسوشية، إلا بفضل السكر. فكمية من الكحول ضئيلة يمكن أن تكفي، في هذه الحالات للتسبب بالسكر، فيصبح المرء فريسة سهلة لبعض الأشخاص السفلة الذين يرتمي في أحضانهم ليساعدوه في عادته السرية وعلى الأثر ينهبونه في مغامرة قاتمة.

وهكذا قد تدفع الماسوشية عدداً من الرجال إلى أن يكونوا مستغلين، مضروبين أو معذبين على يد رجال آخرين، أو أيضاً على يد نساء مرتديات أحذية عالية (جزمات) ومسلحات بأسواط طويلة، يحللن محل الرجال بشكل واضح وجلي. ولنتذكر في هذا الشأن الرجل النموذج الذي وصفه بروس في روايته «بحثاً عن الزمن المفقود» تحت اسم البارون دو شارلوس.

وفي الحالات الأكثر تعقيداً، نرى هذه الماسوشية الجنسية تتعقد وتتفاقم بتناول البراز. وقد يذهب الرجل حتى حدود التهام براز شريكه أو يطلب منه أن يبول في فمه.

وليس اضطراب الشهوة الجنسية شعورياً دائماً: فمثلاً عندما تكون الجنسية المثلية خفية كامنة يسعى الرجل إلى الاتصال بالمرأة، وقد يعتقد أنه طبيعي لأنه لا يخالجه أي شعور بميله إلى أفراد جنسه. ولكنه يفضل التوجه إلى نساء قادرات على إرضاء طبيعته اللواطية. ففتاة أحلامه رنثي^(١) تمتلك صفات ذكورية وتسلطية؛ وتتألق بذكاء نادر، أو أنها تهتم بالأعمال، فهي طبيعية، طبيعية أسنان، محامية... إلخ. وفي ظروف حضارتنا، نجد أن عدد الأزواج

(١) الرنثي: المرأة المسترجلة.

«اللواطين» كبير، وينبغي التأكيد أنهم غالباً لا ينقصهم بعض الانسجام. وأن أنواع العصاب التي يشكو منها الشريكان يمكن تعويضها. فثمة مثقف، ذكي وأديب، يتزوج امرأة يسمح له مالها الكثير بأن يعيش بعيداً عن النضالات القاسية للحياة. ومثله فنان يستطيع أن يكرس نفسه لفنه، دون الاهتمام بالغد، بفضل تضحيات المرأة التي تعيله. ولكن للأسف، تظهر في أغلب الأحيان نزعة جنسية مثلية عند الرجل بشكل عداوة لدودة تجاه المرأة، بشكل طمع مرضي أو أيضاً بشكل حاجة إلى الانحطاط، مفسحاً المجال لمضاعفات اجتماعية معقدة، تبدأ من الاضطراب البسيط في المزاج وتمتد حتى الانحراف الإجرامي.

ولندخل قليلاً في التفاصيل: هذا رجل حكمت عليه نزعته الجنسية المثلية، أي اللواطية الكامنة، بالعيش بعيداً عن النساء. فكان يفر منهن دائماً ويبحث عن التعويض عنهن بالعادة السرية التي تتيح له التماثل مع هذه المرأة أو تلك التي يتخيل نشواتها. وعلى إثر مبادرة من عائلته تزوج فتاة من عائلة محترمة وغنية، كان يحبها من بعيد، فأجبره الزواج على تنفيذ أحلامه الشهوانية وعند ذلك كره زوجته. وسعى إلى الهرب إلى نساء أخريات، ولكنه ما إن يراهن عن قرب حتى يصبح غير مهمات بالنسبة إليه. ثم تابع الهرب على هذا الشكل، وطوّر نوعاً من الموهبة الدونجوانية^(١) قادرة على أن توفر له، في الأوساط غير الخبيرة بهذه المسائل، صيت زير نساء، فيما هو ليس إلا نصف عاجز يخفي ضعفه خلف واجهة يخدع بها نفسه.

ورجل آخر، فقد أمه وهو صغير وربّاه والده فقط، يحفظ في نفسه بإجلال ذكرى عيني أمه الراحلة وعطرها. ويبحث عنها في أحلامه، في نشوة شعرية كانت تدفعه إلى تكريس نفسه لاستعادة ذكرياته. وتوصل في نهاية المطاف إلى

(١) نسبة إلى دون چوان، ذلك الرجل الذي كان يبحث بلا انقطاع عن مغامرة نسائية غرامية جديدة.

العثور على العينين اللتين يحبهما في أرملة لها أطفال كان سلوكها يذكّره بلطف بالشخص الذي كان والده يكلمه غالباً عنه. فتعلق بتلك المرأة أو بالأحرى بالصورة التي كوّنها عنها. وأخذ يكتب إليها رسائل طويلة وجميلة بكلمات مؤثرة شجية. وضمّها إلى ابتهاله الذي كان معتاداً على توجيهه إلى أمه في طفولته. وتحدّث عنها إلى أصدقائه العديدين الذين يحب العيش إلى جوارهم، خالِباً لَبْهم بذكائه ومخيلته وأناقته، تماماً كما كان يفتن والده الذي كان ابنه المفضل. وقد نصحه أصدقاؤه بالعدول عن الزواج من هذه الأرملة، خائفين من طبعه المتقلب. وفي الواقع لم يكن كذلك، وقد قدّم إلى أصدقائه الأدلة على محبة مخلصة، ومستديمة، لكن شيئاً ما لا يعرفون ماهيته كان يحملهم على التردّد. وفي الحقيقة كانوا يخشون عدم فهمه المرأة، وقد برهن على ذلك سابقاً. فهو، بكل سرور يستسلم لمغازلتهم ويقبل الهدايا، إلا أنه لا يهديهن بالمقابل هدايا أبداً. فيبدو قليل اللباقة نحوهن، إذ يصعد قبل رفيقته إلى سيارة التاكسي تاركاً إياها تنتظر دورها باحتقار، كان يُظهر تجاه المرأة، وخاصة عندما تعود معرفته بها إلى بعض الوقت، إهمالاً وتعوزه اللياقة، الأمر الذي لا يتوافق أبداً مع اهتمامه المعتاد بالشكليات والمجاملات.

وهكذا رغم معارضة أصدقائه، تم الزواج، وبدا الزوجان متفاهمين ولكن الحقيقة ظهرت سريعاً لهما، فقد ذهلت المرأة من الاهتمام الكبير الذي يوليه زوجها زينتته الشخصية. فهو يمتلك عدداً كبيراً من البذلات والقمصان من جميع الأنواع، ويستخدم الأدهنة والمساحيق لوقاية جلده من التجاعيد، ويتعبّر آخر إنه يعتني بنفسه كالمرأة تماماً. والزوجة من جانبها، رغم أنها أنجبت ولدين، قد حافظت على حيوية وشباب تود الآن الدفاع عنهما، وتسعى إلى تفتحهما، ولا سيما أن زواجهما الثاني قد قدم إليها هدفاً جديداً. ولكن وكأن الأمر مصادفة، اندلعت شرارة سوء التفاهم من خلال الأسئلة المتعلقة بهذا التزين المبالغ فيه الذي يقوم به الزوج. وكان في سوء التفاهم هذا من خصائص المأساة ما لا يسمح لنا بإغفاله. فقد عادت الزوجة يوماً نضرة مشرقة من عند مزينها الذي أجرى لها تسريحة جديدة، جدّدت شبابها بشكل كبير - على حد

زعمها - فتقدمت من زوجها، سعيدة جداً بأن تقدم إليه هذه المفاجأة، إلا أنه قطع سريعاً سعادتها. إذ قال لها: كيف تجددين شبابك، أتريدين إذاً أن تظهريني عجوزاً ومثيراً للسخرية أمام الجميع؟
فأجابته متعجبة: مثيراً للسخرية؟

— طبعاً، فبقدر ما تجددين شبابك تجعليني طاعناً في السن، ولذلك آمل أن لا تعودني إلى هذه الأمور الخرقاء.

ويحزن كبير أتلقت المرأة تسريحتها. إنها لم تكن تتوقع أن يتصرف زوجها هكذا، كامرأة تخشى منافسة امرأة أخرى. زد على ذلك أن الأحداث ستثقل سريعاً بما يضيء الوضع ويوضحه. لقد بدأ زوجها بالتهرب من العلاقات الزوجية، وصار يرفض مشاركتها غرفتها. ورغبت في الاحتفاظ بولديها قربها، لكنه أرغمها على أن تعهد بهما إلى بعض الأقارب. وفي نهاية المطاف، فرض عليها، بحجة كسب المال اللازم لرعاية ولديها، القبول بوظيفة مديرة في مؤسسة تجارية. وبدأت كميات المال التي يعطيها إياها تقل شيئاً فشيئاً، ثم حملها على السكن مع ولديها، بعيداً عن منزله، إذ لم يعد يحتمل رؤيتها في شقته.

إن هذا النموذج من الرجال متوافر إلى حد ما. فهو قبل كل شيء مميز بزهو زائد، يدفعه في كل مكان إلى لفت انتباه الحاضرين إليه، إما بأناقة مرهفة، وإما بفصاحة ظاهرة وأفكار سامية. فهؤلاء الرجال لديهم حاجة مرضية إلى الإعجاب وإلى سماع الآخرين يتكلمون عنهم. وبالإضافة إلى هذا يبدو أن نقص الرجولة الذي يعانون منه يظهر بشكل ميل إلى الرياء والخداع والاحتيال على الناس وإلى تجريد ضحاياهم من حسناتهم. وتجعل منهم هذه السمات مجتمعة، رغم المظاهر البراقة، أزواجاً أو مساعدين غير جديرين بالاحترام، وفي أغلب الأحيان نجد أن النساء هن من يدفع ثمن مشاكلهم العاطفية. وتظهر عدم قدرتهم على إقامة علاقات طبيعية مع الآخرين، وبشكل خاص، مع زوجاتهم. وعلى النقيض من ذلك قد لا توجد هذه الصعوبات مع الرجال. إذ

يجد الكثير من هؤلاء الشاذين، عند الاتصال بالرجال ووسطهم، مجالاً لاستخدام عاطفة تحاول عبثاً التعبير عن نفسها لدى النساء. هؤلاء الرجال قادرون على أن يكونوا عسكريين ممتازين، أو قساوسة متفانين، أو موظفين كاملين، منفذين بدقة الأوامر المعطاة، أو محافظين على علاقات جيدة مع رؤسائهم، فإذا كانوا أطباء، فإنهم يعتنون بالرجال بشكل أفضل من عنايتهم بالنساء. وإذا كانوا محامين، فإنهم يتعلقون بشغف ببعض الدعاوى التي تتلاءم مع توجه حساسيتهم وإدراكهم. وينضم إليهم عدد كبير من الممثلين والأدباء والفنانين.

ومن غير المجدي القول إن الشذوذ الجنسي الكامن هو في أساس العديد من الأعراض المرضية الجنسية كالإراقة المبكرة، والعجز والإنعاط المؤلم. وفي بعض الحالات، يفسح لمضاعفات عاطفية ذات نسق خاص جداً. فقد نجد غير مرضية تدفع الرجل إلى تصور المرأة التي يهتم بها، على علاقة برجال آخرين، مهما كانت عفتها واستقامة حياتها. ومن الأمثلة على ذلك، هذا الرجل الذي كان متزوجاً من فتاة شابة مخلصة، تقية ومحافظة، إذ كان يتصورها دائماً في أحضان أحد أصدقائه الذي كان يحسّ نحوه بغيرة غير عادية. ولم تفارقه لحظة واحدة فكرة علاقتهما الممكنة. وكان الحدث الصغير الأقل ضرراً يتحول إلى برهان ساطع على موضوعية شكوكه. فكان من المستحيل طمأنته. وإذا ما تكلم عن غيرته إلى شخص مطلع على حياة زوجته بدا عاجزاً عن إدراك الحقيقة كما تبدو جلية. أما بالنسبة إلى زوجته، فقد كان يتشاجر معها بعنف، ويراقبها، ويلاحقها في كل مكان، إلى درجة أنه كان يسيء معاملتها ويتفوه بتهديدات، بأنه سيقتل منافسه المزعوم.

وفي أية مفاجأة سنقع، عندما يكون تحليل هذه الأوضاع ممكناً، وعندما نتحقق من أن هذه الغيرة اللجوج، هذه الفكرة الثابتة عن المنافس الذي ينبغي العثور عليه، ذات علاقة مباشرة بشذوذ جنسي خفي يلزم صحته باستمرار. وفي هذه الحالات، يفكر الرجل دائماً في الرجل. وإذا لم يُسَرَّ بهذه الفكرة التي تلح عليه فمن الواضح أنها لا تفارقه أبداً. فالبرغم عنه، ورغم مثاله

الشعوري ورغبته في التفاهم مع المرأة، يجد الرجل نفسه معلقاً بالرجل، حتى عندما يثور ضد التعلق الذي يعذبه. إذ سيكون من المستحيل عليه اجتياز الهوة التي تفصله عن المرأة، والتي ترعاها بعناية المشاجرات العنيفة ومآسي الحياة الزوجية، وتصفية الشذوذ وحدها تسمح بإخفاء وإزالة هذا الشكل من الغيرة المرضية أو أيضاً بالقبول الواعي بالشذوذ، ومثل هذا الأمر يحدث في الحالات التي لا يستطيع الرجل فيها الاهتمام بأية امرأة إلا بشرط أن يعرف أنها على علاقة مع رجال آخرين. والوضع الأكثر نموذجية هو وضع الزوج والزوجة والعشيق: إذ يصبح صديق الزوج عشيق المرأة، وتصبح هذه الأخيرة وساطة الألفة بين الصديقين الحبيين.

إننا نواجه غالباً هؤلاء الرجال الذين لا يتحملون الحياة المشتركة مع المرأة، والذين يردّون على أمانة زوجتهم الزوجية بطبع نزق ومزاج سيّء مفسحين المجال لمشاجرات ومشاحنات. وتتوقف جميع هذه الاضطرابات فجأة عندما تقبل المرأة باتخاذ عشيق. فبشكل عام، يحدث هذا الأمر بلا علم الزوج، لكنه لا يرد على الوضع الجديد بأقل من إخفاء مزاجه السيّء، إذ يبدو أن هذا الوضع، لا شعورياً، يعزّيه. وهكذا نصادف غالباً أزواجاً لا تبدو سعادتهم المشبوهة قادرة على التحقق إلا بوساطة صديق حبيب. وفي بعض الأحيان، نجد أن الزوج هو الذي يفرض على زوجته أن تعاشر رجلاً آخر. وهناك حالات نجد فيها أن مشهد العلاقات الجنسية بين المرأة والصديق، وحده، قادر على إثارة حماسة زوج تخور قواه مع شريكته بدون ذلك.

هناك فئة من الأشخاص نجد أن الشذوذ الجنسي لديها كامن وخفي، ويظهر غالباً وخاصة بشكل معادلات عاطفية، ليس لها ظاهرياً أية علاقة بالحياة الجنسية. وهذه المعادلات العاطفية متعددة وتحدّد سلوكاً اجتماعياً وطبعاً خاصاً بحسب الاتجاه الذي يبحث المرء فيه عن هذه المعادلة. فشخص كهذا مثلاً، رغم مظهره الرجولي، وأفكاره النيرة وكلامه النظيف سيكون على علاقة دائماً مع النموذج نفسه من الرجال. فبارتباطه عن طيب خاطر بأشخاص يستغلونه، ورغم خيبات الأمل المتعددة، لن يشعر نحوهم إلا بالإعجاب. وهذا شخص

آخر، على العكس منه، يتعلق بالمال كوسيلة يحاول أن يخلب لبها واستمالتها ليملاً خزائنه بالمادة الثمينة التي يشعر عند لمسها بنشوة ذات طابع شبه شهواني. فالمال، في هذه الحالة، متملص من هدفه كوسيلة تبادل أو طمأنينة ليصبح موضوع هوى، وليسمح للرجل بالشعور أنه مخترق من قبل قوة فوق بشرية بتجميعه كنزاً في أحشائه. وهكذا سيجد الأول في الذهب وسيلة للتواحد والتماثل مع المرأة الحامل، فيما يجد الآخر الرضا في تعقيم السيل الخصب لصالحه بأذخاره حارماً منه المؤسسات التي تتعرض، دون مشاركته، لخطر الإفلاس.

إن البخل عارض من أكثر الأعراض المميّزة لهذا النوع من الشذوذ الكامن، وهو بشكل عام يترافق مع عجز جنسي عند الرجل. وفي هذه الحالات، يكون هذا الرجل أنانياً يخال الكون ممحوراً حول ذاته، ويتكشف أنه غير قادر على أي إنفاق، ولا على وضع رجولته في خدمة امرأة أو قضية. فليس مصادفه أن يصاب بالبخلاء بالإمساك. فهم كذلك، في الواقع، وفي معظم الأحيان تقريباً وغالباً ما يتفقم إمساكهم من جراء البواسير، والإمساك أحياناً هو العارض الرئيسي لحالتهم، وفي هذه الحالات، يكون الغائط بديلاً عن المال وانفعال المرء مركّز حول هذه المراد التي ينفصل عنها بصعوبة والتي لا تنكشف ميزتها الخاصة إلا بالتحليل.

إن هؤلاء الرجال يمتلكون عادة روح معارضة عنيدة، ويفضلون الوقائع المحددة، والتواريخ، وخططاً معدة بشكل جيد، إذ لا يترك أي شيء في تنظيم الأمور للمصادفة ولما هو غير متوقع. إنهم يمتلكون ميلاً واضحاً إلى التجميع، وشغفاً بالأنظمة الصارمة، فضلاً عن تعصب يجعل منهم في أغلب الأحيان أشخاصاً متطرفين ومنظرين إيديولوجيين أو علماء في العلوم التجريدية.

وعلى صعيد الممارسة نجدهم غير قادرين على أن يحبوا امرأة، وعندما يتوصلون رغم تعقيدات طباعهم، إلى الارتباط مع شريكة قرينة تصبح حياة هذه الأخيرة جحيماً. وبالمقابل، نجدهم يستطيعون الاهتمام بالطفل، وبالصبيان

خاصة، ويظهرون غالباً، في هذا المجال، موهبة حقيقية في التربية ومشاكل التهذيب والتأديب، الأمر الذي يدفعهم إلى التسامي بميولهم في مهنة التعليم. وفي أيامنا الحاضرة، لا يزال هم التعليم متفوقاً على هم التكوين النفسي والاهتمام بصحة الطفل، وهذا النمط من المدرسين أو الأساتذة ما يزال الأهل يقدرونه كثيراً، وكذلك المديرون. وربما لن يكون الأمر كذلك عندما يحسب الثقيف المدرسي حساب ضرورات التوازن النفسي للشباب، فضلاً عن تكوين الطباع.

لقد رأينا في الفصل الثاني كيف كان تأثير المربين يسهم في تكوين السلطة التي سمينها الذات الخارقة، وكانت هذه الذات مؤهلة للتطور في اتجاه مرضي عندما يكون تأثير الأهل أو البيئة في الطفل ممارساً في اتجاه مضاد لمستلزمات تطوره.

إن الشذوذ الخفي للأب قادر على توفير شروط الحالة نفسها عند أولاده، وأن يسبب، كما أظهرنا سابقاً، ميلاً واضحاً تقريباً إلى الفشل.

إذاً إن اضطرابات الرجل الجنسية هي في أغلب الأحيان مظهر خاص لأعراض الفشل. وخاصة في الحالات التي يظهر فيها الشذوذ الخفي على شكل سلوك سلبي ماسوشي يعتمد المرء الذي يفضل أن يكون ممتلكاً على أن يكون ممتلكاً أو مغلوباً على أن يكون غالباً. ولكن ينبغي أن لا نستنتج أن الحالة نفسها تؤدي دائماً إلى النتائج نفسها.

ومن المؤلف في أيامنا هذه أن نرى رجالاً مصابين بالعجز الجنسي أو بالإراقة المبكرة ومع ذلك حققوا بشكل ملحوظ نجاحاً واضحاً في مهن المثقفين أو العلماء أو السياسيين، وعديدات أيضاً هن النساء اللواتي لا يحتملن وجود رجولة طبيعية لدى شركائهن ولا يمنحنهن مساعدتهن وتعاونهن إلا بشرط أن تكون حياتهم الجنسية ناقصة وضعيفة. وهناك مهن لامعة في المجتمع تخاطر الرجولة الطبيعية فيها أن تشكل عائقاً. إذاً المسألة معقدة جداً، ولا يمكن أن تكون مدروسة من وجهة نظر ضيقة وتبسيطية. وقد سبق أن تكلمنا على ذلك عندما أوردنا حالة الفنانين.

ومن المؤكد أن الشذوذ الجنسي الخفي عند الرجل يتسامى على يد ملكات أو مواهب خاصة جداً ينبغي التعرف إليها لتكون قادرين على الحكم بشكل موضوعي على المسألة، ويجد القارئ معالجة لهذه المسألة في كتاب فشل بودلير، في فصل مخصص لعلم نفس الخلق الفني .

إن المخيلة الشعرية والميل إلى خلب اللب والإغواء هما تعبير عن طبع أنثوي أو طفولي أكثر مما هما تعبير ذكوري وراشد . فالشذوذ الجنسي الخفي قد يوجه نشاط الرجل في اتجاه هذه المخيلة، ويطور فيه الميل إلى تشكيل المادة، وإلى التأثير والانفعال بالألوان، أو يدفعه أيضاً نحو البحث عن الانفعالات الرقيقة والناعمة، كما نلاحظ ذلك لدى الرسام أو الكاتب . وحتى الميل الأنثوي إلى الإغواء لخداع الرجال قد يتحكم بنجاح الدبلوماسي أو رجل الأعمال الذي يعشق القدرة الشخصية للأنا . والتناقض الوجداني، الذي يعتبر الميزة الخاصة بالشذوذ الجنسي الخفي، قد يصبح بدوره ضماناً للنجاح . وبما أنه محدد بعجز المرء عن إثارة جنسه وبقلق الخصاء الذي يجعل اتخاذ أي موقف واضح مستحيلاً، فإنه يظهر بشكل اهتمام متواصل بعدم الالتزام بالزواج أبداً وبتحاشي اتخاذ قرار بذلك بأي ثمن . والتناقض الوجداني نفسه يظهر أيضاً بشكل حاجة ملحة إلى تأمين مخرج في المعاملات باستمرار، وبفن المراهنة دائماً على أمرين أو عدة أمور . وهكذا ينجح المرء في تحاشي اتخاذ أي قرار يتضمن مسؤولية ما . نعم، من الممكن أن يتقن استخدام وسائل المماثلة القادرة على إمتاع الخصم وعلى كسب الوقت اللازم لمشروع أو لالتزام أو لسياسة مؤهلة، قد تكون معرضة للخطر بوساطة إجراءات مبكرة جداً . ولكن في المقابل، من الممكن أن يتكشف أنه غير قادر على اتخاذ القرارات التي تستلزمها الظروف في مراحل ما من الحياة . وهكذا يحكم بالفشل على قضايا لأن تناقضه الوجداني يشله، فيصبح من المستحيل عليه الدفاع عنها . إن عظمة وبؤس الانتصارات والهزائم التي يمني بها بعض رجال السياسة تتعلق بهذا التناقض الوجداني . فهو يصنع نجاح الخطباء الذين يتفوقون في فن صنع الخطابات لكي لا يحتاجوا أبداً إلى التصرف، لكنه يقضي على كل رجل ينبغي أن يواجهه

الأحداث بالأفعال لا بالكلام . إذاً ليس أقل صحة أن الحياة الجنسية المتوازنة جيداً بالنسبة إلى نشاطات عديدة فكرية أو اجتماعية ، أفضل شرط للنجاح . وسنرى ذلك أيضاً على الأثر ، عندما سستيح تأملاتنا في حياة المرأة الجنسية مراقبة المسألة عن كذب .

مظاهر من الحياة الجنسية عند المرأة

إن اضطرابات الحياة الجنسية الأنثوية وعلاقتها بأعراض الفشل معقدة جداً ويصعب تعرفها. فمفاهيمنا عن الحياة الجنسية للمرأة لا تزال غير كاملة وتعود إلى تاريخ حديث نسبياً. فأعمال ستيكل (Stekel) المتطرفة إلى هذه المسألة، سطحية، وكذلك أعمال هيتشمان (Hitschmann) وبرغلر (Bergler) التي لا تعطي إلا فكرة عامة عن هذه المسألة ولا تحسب حساب مجموعة كاملة من المسائل والمشاكل المتعلقة بها. ونحن لا نستطيع في إطار هذا العمل معالجة الموضوع كما يستحق، وسنكتفي بإبراز المظاهر الأكثر أهمية.

إننا نلاحظ، عند المرأة كما عند الرجل، اضطرابات في التأثير لها انعكاساتها في الوظيفة الجنسية، فضلاً عن التوازن النفسي والعضوي للفرد. ففياً يختص بالحياة الجنسية بالتحديد، نميز لديها اضطرابات الإنعاض من اضطرابات الشهوة الجنسية.

إن اضطرابات الإنعاض متعددة، وتبدأ بالبرودة الجنسية. وهي كلية أو جزئية. وعندما تكون كلية، تكون المرأة عاجزة عن الإحساس بأي إنعاض. وعندما تكون جزئية، يحدث الإنعاض بوساطة العادة السرية، ولكنه يغيب عند الجماع الطبيعي. ففي هذه الحالة يتركز إحساس المرأة عادة في الأعضاء الخارجية، والإنعاض الذي تشعر به ليس إلا إنعاضاً جزئياً، ويمثل الشكل الطفولي لهذه الوظيفة. ولكي نفهم بشكل جيد هذا الجانب من المسألة، ينبغي أن نعرف أن وظيفة الإنعاض، لدى المرأة، تتطور بطريقة خاصة جداً. ففي

الأحوال الطبيعية، كل فتاة مراهقة مؤهلة للشعور بإنعاض عند الإثارة الجنسية، إما أثناء حلم خلال النوم، وإما إثر مداعبتها لنفسها. غير أن هذا الإنعاض لا يتعلق في تلك الحال إلا بالأعضاء الخارجية ويتوافق، عند تحليل المشاعر التي هو مظهر لها، مع تصورات شبه ذاتية أو شاذة جنسياً تقوم فيها الفتاة بدور ذكوري أكثر منه أنثوي، إيجابي أكثر منه سلبي. وعندما يكون هناك عصاب، يتوافق هذا الإنعاض بوضوح مع تصورات سادية قادرة على أن تأخذ طابعاً ملازماً للبنية. ولكن مع التطور الطبيعي للحساسية وقبول الأنوثة، يتغير هذا الإنعاض، ومن إنعاض ينطلق في الأعضاء الخارجية، ثم يتحول إلى إنعاض ينطلق من الأعضاء الداخلية، أي أن منطقة الإثارة الجنسية تتحول إلى الداخل، وعلى الأرجح كذلك بعنق الرحم، المؤهل عند الجماع لكي يصبح على اتصال بالرجل. وكذلك يبدو أن الإنعاض يتطور بالنسبة إلى نوعية الأحاسيس التي تشعر بها الفتاة. إذ تصبح هذه الأحاسيس، غالباً أكثر عمقاً وأكثر استمراراً، في حين أن الإنعاض الخارجي لا يتوافق إلا مع إحساس حاد قصير المدة، وليس له انعكاسات عميقة على مجموع تأثيرات المرأة. ويوضح هذا الأمر سبب قدرتنا على تبيين هذين الشكلين من الإنعاض اللذين قد يعانيان بدورهما من اضطرابات عميقة إلى هذا الحد أو ذلك.

فالإنعاض، كما هي الحال عند الرجل، قد يجهض عند المرأة فلا يصل، بعد بداية جيدة، إلى الغزارة التي عادة ينبغي أن يبلغها. وكذلك قد يكون مؤلماً. والألم قادر على أن يوقف على الفور كل تطور نحو تراخ مهدىء. أو أيضاً قد يكون انتخائياً، أي طبيعياً فقط مع بعض الشركاء ومؤلماً مع آخرين. وكذلك قد يختفي كلياً بحسب الحالات. وحينئذ نتكلم على برودة انتخائية لا توجد إلا في بعض الظروف المحددة. فأحياناً لا يحدث الإنعاض إلا مع رجال من مستوى اجتماعي أدنى، رجال محتقرين من قبل المرأة، في حين أنه يغيب مع شريك تحترمه المرأة ومن المستوى الاجتماعي نفسه. وسنعود إلى هذه المسألة عند الكلام على الصراعات النفسية التي تكون هذه الاضطرابات غالباً تعبيراً عنها.

ونلاحظ أيضاً عند المرأة اضطرابات الشهوة الجنسية التي يشكل الشذوذ الجنسي (السحاق) عاملاً مهماً جداً فيها. وقد يكون هذا الشذوذ كامناً أو ظاهراً. وفي الحالين يعتبر المسؤول الرئيسي عن البرودة الجنسية التي نصادفها عند العديد من النساء، وهو يقوم في الواقع بدور مهم وخطير في فشل التطور العاطفي الأنثوي. ولكي نفهم معناه ينبغي أن ندرك أن أكثر من نصف النساء، في أيامنا هذه، يبقين متعلقات بمرحلة طفولية من الحياة الجنسية ويحملن أزواجهن وشركاهن وأطفالهن على معاناة نتائج ذلك.

وفي أغلب الأحيان، يكون هذا الشذوذ كامناً وناجماً عن تطور ذات خارقة كابحة تحتم، كما رأينا في الفصل الثاني، تعلقاً بالأم. وحينئذ تظهر، وبشكل خاص، بوساطة مجموعة من ردات الفعل النفسية المميزة لرفض للحساسية الأنثوية. فإما أن تتصرف المرأة صراحة كصبي، في الهيئة والمشيئة والطبع، وإما عندما تتضح أنوثتها رغم كل ما يناقضها، تخفيها وعند الحاجة تدمرها، الأمر الذي يسبب في أغلب الأحيان نزاعاً خطيراً لتوازنها النفسي والعضوي. وسنرجع إلى هذه المسألة في ما بعد عند التصدي للعلاقة بين الشذوذ النفسي الجنسي (السحاق) الكامن الخفي وأعراض الفشل.

إن الشذوذ الجنسي (السحاق) الواضح والظاهر عند المرأة يقوم بدور أقل أهمية منه لدى الرجل. فهو يوجد فعلاً لكنه لا يأخذ طابعاً خطيراً إلا نادراً، أما عند بعض الرجال فإنه يكون في خدمة الحاجة إلى العقاب. إنه بشكل عام، ملطف جيداً بوساطة الجهاز العضوي الأنثوي، ومن المألوف أن نرى نساء قد عانين من أهواء سحاقية يتطورن في ما بعد نحو اشتهاة الرجال. ويُفسر هذا الأمر بكون الماسوشية الأنثوية تتجسد بالأحرى بوساطة ظاهرات من نسق آخر. فهي تستخدم في أغلب الأحيان شريكاً ذكراً قادراً على التجاوب مع هذه الحاجة. وقد تتوجه كذلك نحو الفشل الاجتماعي، كما رأينا ذلك لدى الرجل، إذا لم يكن الممرض العضوي هو الذي يخدمها ويؤمن لها ذلك. وعديدة هي الأمراض التي قد تزرعها الماسوشية، وخاصة في الحالات التي يدفع فيها المرأة عدم قبولها بأنوثتها وخوفها من الجماع، إلى مقاومة نفسها، لكي تتهدم

أخلاقياً وبدنياً، وفي كتاب رينيه لافورغ «عيادة للتحليل النفسي» وصف لنموذج من النساء الماسوشيات. وهذه الماسوشية عادة، على علاقة مع شذوذ جنسي قوي وخفي. وهي تتطور بشكل خاص عند الأفراد الموهوبين والذين هم ضحايا ذات خارقة والدية مناقضة لهم. وهذا ما نراه مثلاً لدى امرأة كانت أمها باردة ومتسلطة وسادية، أو أيضاً عندما خلقت عدة صدمات، حدثت في الطفولة (اضطرابات الفطام، الإسهالات الخضراء، أمراض) رضى خاصاً بالألم والمرض.

إن البرودة لا تظهر في العلاقات الزوجية، بل غالباً بوساطة لامبالاة خاصة تجاه الأولاد. وهذه البرودة أو اللامبالاة، في بعض الحالات، قد تصل إلى حد الكره، وخاصة عندما لا يكون هذا الكره إلا النتيجة المباشرة لكره امرأة مسترجلة للرجل. ومن المألوف إلى حد ما أن نرى أمهات يعذبن أطفالهن، يخترنهم كضحايا ويصيبين عليهم عدوانية ساخطة أبداً عبر خلافات مع الزوج أو المحيط.

ولكن كيف يتصرف الطفل في مواجهة عدوانية مماثلة؟

بما أن الطفل عاجز عن الحكم على أبويه، فإنه يعتاد على اتهام نفسه بأنه سبب السوء. فهو يعتقد أنه قادر، بسلوك ملائم، على كسب محبة الوالدين فيحمل مسؤولية الخطأ، فضلاً عن العقاب. وبهذه السيرة يسعى إلى أن يستعيد سمعته، إلى إلغاء خطأ الآخر لكي يكون له الحق بالحصول على المحبة، على الدفء والسلام الذي يحتاج إليه إدراكه لئيفتح. ولن ينجح بكل تأكيد في تغيير والديه، ولكنه يتألم من أجلهما وبوساطتهما، ولن يحبهما إلا بشكل مفرط، آملاً أن يستطيع مثاله أن يغيرهما، ويهدئهما. وهكذا يولد هذا الميل المشؤوم إلى أن يكون ضحية، هذا الميل الذي نسميه ماسوشية. وهكذا أيضاً يتم تعلق الطفل بالوالدين، ويصبح الطفل عاجزاً عن ملاحقة هدف آخر غير هدف كسب حب الوالدين. ويسبب هذا التعلق لدى الفتاة موقفاً خاصاً جداً تجاه أمها العدو، فهي تحبها ولذلك تميل إلى نقل هذا الحب إلى كل النساء اللواتي يشبهن أمها ويتصرفن كعدوات. باختصار، إنها تحب عدواتها وستكون

عاجزة عن الارتباط بصديقة حقيقية، فالميل إلى المعاناة والعادات المقتبسة يمنعها من أن تكون سعيدة، ومحبوبة، ويمنعها من النجاح في ميدان آخر غير التعاسة.

وأخيراً ستميل هذه الفتاة إلى حرمان نفسها من الغذاء، فالصيام وسيلة ممتازة للعقوبة والتوبة. فهذا الميل إلى الصيام، وخاصة في الفترة التي يحول فيها البلوغ البنت الصغيرة إلى فتاة شابة، قد يصل إلى حد الرفض الكلي لأي غذاء، ويسبب فقدان شهية عقلي يتوافق مع الطموحات المثالية لروح متلهفة إلى التطهر وإذلال الجسد. فكم من عذارى، بدون الحاجة إلى الهرب في رهبنة، ضحين هكذا بشبابهن، وجمالهن وحياتهن من أجل أم خلقت لديهن الواجب القاسي في رفض لذة العيش وفرحه.

وعندما يجد الطبيب نفسه في مواجهة حالة مماثلة، من النادر أن يفهم الأسباب الأخلاقية التي سببت هذا الموقف تجاه الحياة، ولذلك سيحاول عبثاً عقلته. وكل ما يمكنه فعله هو إمداد المريضة بالقوة، معتقداً، أنه بهذه الطريقة ينقذ كائناً محكوماً من كل جانب بذات خارقة أمومية. إذاً يمكن التصور بسهولة كيف يتوصل أطفال إلى تطوير رضى حقيقي بالمرض. أليس هذا المرض غالباً الوسيلة الوحيدة لإرغام الأم على الليونة والعناية بهم؟ ألا يسمح كذلك بالتألم بصمت ورفض الحياة؟. إن الفتيات، في هذه الحالة معرضات بشكل خاص للإصابة بالسل الرئوي، وخاصة عندما يكف جسمهن، المضنى من الصيام، عن مقاومة الميكروب. فهن يكن مصابات بمرض يتلف الجسد شيئاً فشيئاً، ويمنحه هذه الهيئة المرضية المميزة لشباب ترك الموت عليه طابعه، هذا مثال الحياة الذي تنوي هذه الكائنات تحقيقه. الصدر المهتز من جراء سعلة جارحة ممزقة، الدم المبصوق باستسلام، النظرة التي يضيئها بشكل غريب فرح التألم، تعبير عن الصفاء في الوجه الذي يقدم وحده الإنجاز الكامل للتضحية الشاملة إلى أولئك الذين اختاروا الموت كصديق حبيب، ها هي الدموع التي يستخدمها هذا الشباب المحكوم عليه بالفناء ليتهم ولينتقم لنفسه بوساطة تأنيب الضمير الذي يولده، في قلب أم سادية، مشهد الألم والمعاناة والعذاب.

وهكذا تأخذ فتيات كئيبيات على عاتقهن جريمة أم رفضت تغذيتهن بشكل طبيعي عندما كن رضيعات، ولكن أليست هذه الجريمة نفسها نتيجة نشاط ذات خارقة تجسدت عبر أجيال لتحطم دون شفقة، في لحظة معينة، بعض أغصان شجرة عائلة ما؟

إن العديد من النساء الشابات الماسوشيات، بدلاً من اختيار الصيام أو المرض، يندفعن في مغامرات جنسية، وفي أغلب الأحيان مع رجال مضطهدين يحلّون محل أم سادية. وقد رأينا قبلاً (في الفصل السابق)، إلى أي حد يكون بعض الرجال أعداء للمرأة. ولكن من الصعب أن نتخيل البؤس الذي يمكن أن يؤدي إليه الحب في هذه الحالات. فبعض النساء يتم استغلالهن وسرقة كل ما يملكن، وبعضهن الآخر يلذن بالمرض الجنسي، القادر على إرضائهن، مثل واحدة أو أكثر من العلاقات مع زوج أو قرين. ونجد بعض النساء، اللواتي يجرون بشهوة جمالهن إلى الوحل، متعطشات إلى الدنس والذل، وعاجزات عن التوجه نحو شيء آخر غير حياة فاشلة كلياً. وفي بعض الأحيان الطفل هو الذي يصبح وسيلة التعذيب أو الانتحار؛ فطفل غير مرغوب فيه، وهو غالباً طفل غير شرعي، يشكل تهديداً بالفضيحة. أو أيضاً، وبالتحديد، بوساطة سلوك مناسب، تنجح الأم في أن تجعل من هذا الطفل كائناً مضطهداً، وإلا ضحية ستضطهدها بتوبيخ الضمير الذي تكوّنه.

ويوضح هذا الأمر لماذا تكون مثل هؤلاء الأمهات عاجزات عن الاهتمام بتربية الطفل. فعادة، لا تشمئز الأم من العناية به، من غسله وتخصيص آلاف المداعبات له، وهي أمور تميّز الحب الأموي. أما المرأة الماسوشية، برغبتها في التطهر، تأنف من البراز والغائط. وبحجة جعل الطفل نظيفاً، تخضعه لنظام قاسٍ وتجعله مسؤولاً عن أقل لطخة، وأقل نسيان. باختصار، إنها ترهبه وتنمي فيه، منذ الأشهر الأولى من حياته، شعوراً خطيراً بالذنب. ويتجاوب الطفل معه كأنه يستطيع أن يكون مسؤولاً عن عدم قدرته الطبيعية على حبس بوله، ولأنه عاجز عن التجاوب مع ميول النظافة لأم مريضة.

نعرف كذلك حالات، حدث فيها، بفضل رقابة متواصلة لكل حاجات

الطفل، أن أصبح هذا الطفل نظيفاً بعمر أربعة أشهر أو خمسة، ونرى بوضوح أشد ماذا يمكن أن تكون النتائج المشؤومة لهذا التهذيب. ولنضف إلى ذلك أن هاته الأمهات، غالباً، يصرون على الرغبة في تغذية أطفالهن، رغم النوعية السيئة لحليبهن أو كميته الضئيلة، وسنفهم بذلك العواقب المتعددة التي يتعرض لها العديد من الأطفال. وبشكل عام يتألم الصبيان أكثر من البنات، ليس بسبب ركاكتهم الواضحة، بل بشكل خاص لأنهم يثيرون أكثر كره الأم الماسوشية والسحاقية. فبمبادئها عن النظافة والنظام، تسعى إلى أن تخنق في المهد كل مظاهر الرجولة في الصبي. أما بالنسبة إلى ما قد يتبقى لديه من ذلك، فإنها ستشن عليه حرباً ضارية، لتحطيم «رأسه العنيد»، لإذلاله، وحمله على الشعور بالعار بالنسبة إليه، زارعة فيه مثلاً للطهارة والنعومة الأنثوية ليس لها أي قاسم مشترك مع التطلعات الطبيعية للذكر. إنها تسعى بكل قواها لخصيه، من الجهة المعنوية على الأقل، لأنها لا تستطيع فعل ذلك جسدياً. ويتفاعل الصبي مع ذلك بأشكال مختلفة، وفق مزاجه الوراثي. فهناك صبيان يصبحون «فتيات» مع كل ميولهن. فهم يكبرون وفق ما تريد الأم، مع اهتمام خاص بالطهارة والنظافة، وحاجة إلى الظهور مسالمين وهادئين ورفيقين. وتسمح لهم الأم غالباً بإطالة شعرهم كالفتيات، وتلبسهم فساتين بدلاً من «البنتلونات». ولأنهم واسعوا الخيال، نجدهم قادرين على التأقلم مع هذا النوع من الحياة، وعلى أن يصبحوا مثقفين محبين للتأمل أو فنانين، ولكنهم يصبحون في أغلب الأحيان لواطيين ماسوشيين يفشلون في كل ما يشرعون فيه في حياتهم. وعندما يكون الصبي ذكياً وموهوباً ورفيقاً فإنه يرد بعدوانية كبيرة على المعاملة المذلة التي تفرضها عليه أمه. وهذه العدوانية التي لا تسمح لها الظروف بالتعبير بشكل صريح أمام أم، كل شيء بالنسبة إليها تتخذ حجة للمعاقبة، لا يملك الصبي إلا أن يوجهها ضد نفسه أو يسقطها على ضحية ما : على كبش المحرقة.

وفي هذه الظروف ينشأ الطبع الذهاني^(١)، بمظاهره الخاصة والمتعاطمة

(١)الذهان: مرض نفسي من أعراضه الرئيسية الهذاء الثابت مع نزعة إلى الشك والارتباب.

وعندما يتعلق الأمر بعقلي، ذي شعور مرعب بالاضطهاد عندها يتحول إلى الجنون. ونجد أن عدداً كبيراً من المدعين يعيدون في حياتهم خلق النزاعات التي يسببها الحرمان والآلام التي فرضتها عليهم أمهاتهم في طفولتهم. ومنذ تلك المرحلة إلى أن يصبح لا اجتماعياً ليس ثمة غير خطوة واحدة. ونحن نعلم كيف أن السلوك الأمومي، بوساطة الذات الخارقة، يتوصل إلى أن يشكل جزءاً من المرء. وقد رأينا أنه في حالة الكآبة أو فقدان الشهية يصل إلى حد رفض كل غذاء. فيحوّل تجاه نفسه الكره الذي كان من واجب الأم التي عدّبت طفلها أن تطلقه فيه حتماً. وفي حالة الذهان، تأخذ الذات الخارقة كذلك على عاتقها السلوك الأمومي تجاه الصبي. فيعادي هذا الصبي نفسه، لكنه يتصرف بطريقة خاصة جداً، إذ يبقى نموه العاطفي غير كامل.

وتحت تهديد ذاته الخارقة يكون المرء في الآن نفسه مرعوباً واثراً على الدوام. ويتصرف كأن قوة شريرة تضبطه في كل لحظة، وتمنعه من كل استرخاء، وكل راحة، فارضة عليه بلا انقطاع رقابة على كل أفعاله. فأقل هفوة قادرة على إثارة قلقه وجعله مذنباً. وهكذا يحافظ على مخاوف طفولته والشعور الحاد بالذنب التي أثارها أم مضطهدة في ذاته. ولكنه إذا كان ذكياً وموهوباً، فسيتعلم أن يخلق أسلحة ضد القلق والشعور بالذنب. فهو يطور ذكاءً موجهاً بشكل خاص نحو هدف واحد: هدف تهديّة إحساس مصدوم ومبطل بشكل عميق والدفاع عن نفسه ومقاومة اضطرابات وجدان متعلق بمرحلة بدائية تماماً من حياته.

ولكن كيف يتوصل الشخص الذهاني إلى هذه النتيجة؟

إنه يسعى إلى الدفاع عن نفسه بوساطة نوع من قلب الوضع. فينكر الشعور بالدونية، الناجم عن توقف نموه العاطفي. وسيحاول أن يقوم بدور الرجل الاستثنائي النادر، لكي يبدو كبيراً وفي وضع لائق في نظره هو نفسه. فيسعى إلى جمهور يمدحه باستمرار. فإذا كان يمتلك موهبة ممثل، فسينجح بشكل ممتاز وعجيب في القيام بهذا الدور، وفي خداع نفسه والآخرين. ولكن كيف يقاوم الرعب؟ هنا أيضاً سيكون المحور قلب الوضع. وينبغي أن يكون

الآخرون هم الذين يرتجفون وليس هو نفسه، ولهذا يكفي أن يستخدم كل الوسائل التي قد يمتلكها الرجل لإرعاب محيطه وبيئته.

إن القلب نفسه ينطبق على الغرائز السادية، وعلى التعطش إلى الانتقام وإلى الدم، وهي الأمور المميّزة لتوقف النمو العاطفي لدى الذّهاني. إذ سيتم اضطهاده باسم مثال اجتماعي، وأخلاقي، وديني، وسيكون لديه، كما قال ليون دوديه (Léon Daudet) شغف بالتنبؤ واللعن والكراهة. وهكذا يتوصل، بوساطة هذا القلب، إلى إعادة إسقاط معاناته الخاصة على ضحية ما، وإلى التحرر بفضل تضحية كبش محرقة. فينجز بوساطة هذه السيرورة نوعاً من الشفاء الذاتي، بشرط العثور على ضحية. أما من دونها فيضيع. وهؤلاء هم بشكل عام الرجال الذين يختارون نساء ماسوشيات كطغاة ليدبرن تعاستهم. وبين هؤلاء أيضاً نجد بعض نماذج الثوريين، كروبسيير مثلاً الذي ستتكلم عليه في فصل قادم. ولكن لا يصبح ذهانياً كل من يريد. فتحت تأثير الأم، يصبح أغلب هؤلاء الصبيان أشخاصاً فاشلين غير موفقين. ويعيش الكثيرون منهم كمقامرين وكأشخاص مهملين، وقليل جداً منهم ينجح في التسامي بتعاسته، كما فعل: فرلين.

وهكذا نجد أنفسنا في مواجهة بعض مظاهر أعراض الفشل وعلاقاته بالحياة الجنسية. وسواء أكان هذا الفشل للتطلعات العائلية لشخص ما، ولتطهيره يتحقق بوساطة المرض أو البؤس الاجتماعي، أم إن هذا الفشل يحصل أحياناً بوساطة الغير، من وجهة نظر طبية، فإن الأمر يتعلق بأعراض المرض نفسه، ولكن، من وجهة نظر اجتماعية، هناك فرق شاسع بين الأشكال التي يتخذها الفشل العاطفي، حسبما يجد الفرد نفسه، من جراء هذا الفشل، خارج المجتمع، أو حسب الغنى الذي قد يمثله هذا الفشل لجميع الناس.

ففي حالة بعض كبار الفنانين، أو القديسين، أو بعض الدعوات الأخلاقية أو أيضاً بعض كبار العسكريين مثل نابوليون، فإن المرء، رغم الحظر الداخلي بأن يكون خصباً على منوال الرجال، يجد سبلاً ملتوية لنقل مادته وللتقرب من

أمثاله بوساطة نشاطه الاجتماعي، قلبياً أو فكرياً. ولا ننسى، في هذا السياق، نموذج صونيا (Sonia) الذي وصفه دوستوفسكي^(١) في روايته المشهورة الجريمة والعقاب. فصونيا الشابة، المومس الواقعة في زاوية الشارع، ابنة رجل سكير وأم مصابة بالسل تأخذ على عاتقها، على منوال قديسة الكرمل، الإثم والعقاب العائدين إلى راسكولنيكوف، القاتل الذي أراد تقليد نابليون، فتصحبه إلى سيبيريا لكي تكفر معه عن جريمته وتحرر روحه.

أفلا يكون الألم علاقة مثيرة بين الأشخاص؟ ألا توجد محاسبة خارقة تسمح لتضحيات المرء بأن تحرر روح امرئ آخر؟ وألا يتوافق هذا الإيمان الورع مع الواقع الغريب الذي يتيح في حالة الشخص الذهاني أن يتم إنقاذ هذا الشخص فعلاً على يد ضحيته؟



(١) فيودور دوستوفسكي (١٨٢١ - ١٨٨١): روائي روسي شهير ويعتبر من رواد التحليل النفسي.

أعراض الفشل وانعكاسها في الحلم

إننا نتصور نمو الشخصية كتوليف ضخم للتجارب العاطفية . ويمكن أن يتم هذا التوليف باتجاهات مختلفة، بحسب كون الميول المتنوعة لليبدو المساعد على هذا التوليف متوافقة في ما بينها أو متجابهة، مخاطرة بأن تشل نفسها في نشاطها وتشوه عملها أو تخريبه . فقد رأينا كيف أن طاقة المرء، تحت تأثير العوامل الكابحة في الوسط العائلي، يمكن أن تكون مستخدمة لتشجيع ما هو مضاد لنموه على المستوى الفردي والجماعي، ولإحداث نكوص الشخصية وارتدادها . وقد استعرضنا مبحث أعراض الفشل الذي قد يظهر بوساطتها هذا النكوص، حسب حدته ودرجته .

إننا نرغب الآن في دراسة علاقات أعراض الفشل مع الحلم . ليس لأن الحلم يهمننا هنا بشكل خاص مثل أعراض الفشل، بل لأن ممارسة التحليل النفسي قد برهنت لنا أن دراسة الحلم تتيح ملاحظة كيف أن الميول المختلفة لليبدو يمكن أن تتجابه في اللاشعور، وتولد نزاعات قبل أن تتجسد هذه النزاعات بطريقة واضحة للفرد بوقت طويل . إذاً دراسة الحلم تعطينا وسيلة للقيام بنوع من الإحصاء للإمكانات الكامنة للحياة النفسية، وهذه الإمكانات قادرة في بعض الحالات على التحكم بأعراض الفشل . إنها تسمح لنا بالتنبؤ في أي جانب سيكون النصر، وفي أي اتجاه سيتم التوليف اللاحق لشخصية ما، وبأي نشاط سيستطيع هذا التوليف التحقق .

إننا نمتلك هنا وسيلة دراسة من الطراز الأول لكي نمسك بحيوية بتيارات

حياة الإنسان، بتشخيص الاضطرابات، والجيشانات أمام العوائق، والفشل عندما لا يجد امتداده مخرجاً إلا عبر الانقراض ومع المخاطرة بتحطيم بنية الشخصية، يبحث عن طريق بعد تخليه عن الاتجاه الطبيعي. فكيف يستطيع كل هذا أن يظهر وينقل بوساطة الصور الشاردة العابرة وغير المنطقية لحلم نمسك أحياناً ببعض بقاياها النافهة والمفككة بحيث نأبى أن نأخذها على محمل الجد وأن نعطي معنى لهذا الذي يبدو ظاهرياً خالياً منه؟

إنها مسألة صعبة ينبغي شرحها لأولئك المعتادين على اعتبار الأحلام من نفايات النشاط النفسي. ومع ذلك نود أن نحاول تفسير الحلم، لأن هذا الأمر يؤدي بنا إلى جذب انتباه القارئ إلى مجموعة من مظاهر الفعالية البشرية التي نجهلها بشكل عام. في حين ينبغي أن نعرفها جيداً إذا أردنا فعلاً معرفة بوساطة ماذا ينقل إحساس الإنسان وما الذي يقوده خارج ذاته في حين أنه يعتقد أنه يوجه حركته ويسيطر عليها. إلا أن من المستحيل تكوين فكرة عن مكونات نشاطنا النفسي والأخلاقي والاجتماعي إذا لم نأخذ بعين الاعتبار ما تفضي إليه إلا على مستوى وعينا فقط، إذا لم نرجع الميول والرغبات والقرارات والأفعال والمشاعر إلى نقطة انطلاقها، مع العلم أنها الطرق التي بوساطتها تظهر فعاليتنا.

ولنفهم سعة المسألة المطروحة، لتذكر أن هذه الفعالية تتجسد، على المستوى الفردي، بوساطة تكوّن الشخصية وعملها. كما تظهر على المستوى الاجتماعي بوساطة مجموعة من العلاقات والتبادلات بين أفراد جماعة ما. وتؤدي هذه العلاقات والتبادلات إلى نتائج متعددة على الصعيد الديني والأخلاقي والعلمي، ولهذه النتائج انعكاساتها على كل حضارة بمثلها العليا وتنظيمها الاجتماعي واكتشافاتها ونضالاتها وحروبها وكوارثها الجماعية.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن دراسة الحلم تؤالفنا مع نسق خاص من أشياء الحياة النفسية التي عادة ما تفلت منا، فتظهر لنا تعدّد الشخصية البشرية التي ينقل بوساطتها العالم المصغر الذي يمثله كل فرد، بإمكاناته الكامنة المؤهلة لكي تتجسد في الحلم والحياة. ولا تمثل هذه الحياة حينئذ، من وجهة النظر

هذه، إلا التجسيد المحسوس والملموس للقوى والميول نفسها التي كانت تتخذ في الحلم الأشكال العابرة وغير المنطقية لعالم يتكوّن. وحتى الآن، الشعراء هم بشكل خاص الذين شبهوا الحياة بحلم، كما أنهم معتادون على استخدام الناطق بلسان قوى الروح التي يصورونها. لكن دراسة الحلم تقودنا إلى تبني تصور مماثل. فهي تعلمنا أن نغض النظر عن مفهوم الزمن ومفهوم الفردية، وتظهر لنا كيف أن عوالم نفسية، في بضع لحظات، تخلق وتتهدم، متماثلة مع ما يحدث في الحضارات خلال التاريخ. وهكذا إذ يُستدرج الإنسان إلى التفكير في أجيال، يتوصل إلى أن يقيم في مجموعة واسعة من الظواهر التي ليس ماضيها وحاضرها ومستقبلها إلا مظاهر متغيرة. وتتحكم بهذه الظواهر قوى وقوانين تجعلنا بدراسة الحلم نتعرف، بعملها عبر الأفراد، إلى الأجيال والقرون بالمعايير نفسها المميّزة لفعالية لبيد والبشر.

ويعود الفضل إلى شرنر الألماني، ثم إلى فرويد ومدرسته في إعطاء دراسة الحلم المكانة التي تحتلها اليوم في الحركة العلمية المعاصرة التي تضع في أغلب الأحيان الأشياء الصغيرة جداً مثل الذرات على المستوى نفسه الذي تضع فيه الأشياء الكبيرة جداً مثل الأكوان. ومن الصحيح أيضاً أنه قد تمت معرفة رمزية الحلم وإلى حد ما دلالاته العاطفية قبل فرويد. يدلنا على ذلك كتاب شوبرت المنشور سنة ١٨١٥، فضلاً عن كتاب شرنر عن رمزية الحلم المنشور سنة ١٨٦١. وقد اعترف فرويد نفسه بذلك وبجهود شرنر واستحقاقه لقب المكتشف الحقيقي لرمزية الحلم، رغم وجود اختلاف لا يستهان به بين نظريته ونظرية فرويد، إلا أن من الواضح أن هذه الأعمال التي سبقت كتاب فرويد عن الأحلام لم تكن معروفة إلا على نطاق ضيق جداً.

ومع أن كتاب فرويد يبدو لنا اليوم قديماً، وعلى جانب كبير من التشويش، إلا أن هذا الأمر لا يقلل شيئاً من قيمته، وخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار المرحلة التي كتب فيها. لقد حاول فرويد أن يجعلنا نتألف مع الموضوع متخذاً غالباً كنقطة انطلاق أحلامه الشخصية. وبسبب الرصانة والصعوبة التي تعاني غالباً عند تقديم العناصر الضرورية لتحليل الأحلام الخاصة، لم يعطنا

المعلومات الضرورية التي تسمح بجعل هذه الأحلام، فعلاً، مفهومة وواضحة. لكن تحليلها الناقص وغير المُرضي يسمح لنا، مع ذلك، أن نعرف كيف ينبغي التصرف لتفسيرها. فليست أفضلية هذا الكتاب، إذاً في أنه يفسر لنا أحلاماً، بل في أنه بالأحرى يقدّم إلينا نظرية لتفسيرها؛ وبفضل هذه النظرية والتجربة الشخصية المساعدة، نستطيع معرفة دلالتها. وحالياً، حانت اللحظة التي نستعيد فيها هذه المسألة بمجموعها، ونخصص لها دراسة نشعر بعمق بالحاجة إليها. ولن نستطيع بالتأكيد، في نطاق عملنا، الدخول في تفاصيل هذه الدراسة؛ بل سنكتفي بعرض المسألة في خطوطها العريضة، دون أن يغيب عن نظرنا الهدف من هذا الكتاب.

لقد أعطانا كتاب فرويد تفسيراً للحلم، ومع أنه غير كافٍ اليوم، فإنه قد سهل فهم المسألة. لقد برهن أن الحلم، هو بشكل ما، تحقيق «حلم» أي رغبة، يستهجنها الوعي عادة وينبذها، أو على الأصح ترفضها الرقابة المتيقظة دائماً في الفرد، حتى عندما يكون هذا الفرد في حالة النوم. فتسعى هذه الرغبة إلى تحقيق إشباعها بطريقة متنكرة ومقنّعة، رغم العوائق التي تواجه بها الرقابة تحققها. فالتنكر إما بوساطة رمزية الحلم، وإما بتنكر الفكر أو المشاعر، وإما بوساطة تكثيف عدة صور في صورة واحدة. وهذا التنكر، المرهف غالباً، يُحصل عليه بوساطة تقنية حاذقة، تركز على وضع اللمسة العاطفية على التفاصيل، وعلى إهمال تعابير الفكر التي يمكن أن تخون الانفعال الحقيقي، وعلى قلب معاني الأشياء لكي يصبح من الصعب التعرف إليها. وتسمح هذه التقنية بتجنب قسوة الرقابة المتعارضة مع محتوى بعض الأحلام، والانزعاج الذي ينتج عن قيام الرقابة، في حال تيقظها بقطع الحلم الذي يصبح هكذا، بحسب فرويد، حارس النوم الهادئ.

لقد توجب أن يتم اكتشاف الذات الخارقة، والأناء، والهوى، أي اكتشاف السلطات النفسية الثلاث الحاضرة دائماً في الفرد، لكي يتاح لنا اعتبار الحلم كنتاج نزاع بين هذه السلطات الثلاث، وللتوصل إلى استخدامه كوسيلة لتشخيص الأمراض. ونحن إذ نرى مع بشون (Pichon) أن الحلم حالة نزاع بين

السلطات المختلفة، نُدخل في تصوراتنا مفهوم تعدُّد الميول أو الرغبات الحاضرة، ونستطيع التكهن بمخرج النزاع، الذي قد يتم بوجهة طبيعية أو مرضية. فيضع الحلم، من وجهة النظر هذه، سلطات مختلفة في الحياة النفسية في حالة مواجهة، سلطات يشخصها ويعبر عن ميولها أو رغباتها المؤهلة للتوافق في ما بينها أو للتواجه. إنه يظهر لنا كيف ينظم، وفق تأثير هذه السلطات، إما تعاونها في ما بينها، وإما قتالها، وكيف يظهر ذلك، بوساطة أي تسويات، أي تصادمات، أي أزمات. وهكذا نستطيع معرفة طبيعة النزاع الذي نحن بصدد، وقياس القوى المتواجدة، وتكوين فكرة عن دورها الطبيعي أو المرضي والمرض في البنية النفسية للفرد. إذاً يصبح الحلم التعبير عن نزاع نفسي، ويستطيع أن يطلعنا على طبيعة هذا النزاع.

فكيف يظهر في الحلم تأثير السلطات الثلاث النفسية هذه؟ ولنستخدم لفهم ذلك أحلاماً بسيطة وسهلة نسبياً على التفسير. وهذا مثال عنها. حلم رجل أنه يركب دراجة ويتجه نحو حديقة جميلة تبين عند مدخلها أن عجلة الدراجة الأمامية «منقّسة». لقد تردّد في التوقف، لكن الحارس القائم هناك تدخل حينئذ ولفت انتباهه إلى هيئته. وقد تحقق الحالم أنه يرتدي قميصاً وهو شبه عار. فترجل عن الدراجة، وعاد أدراجه، وتوجه إلى مرآب حيث طلب من صاحبه إصلاح عجلة الدراجة.

إن هذا الحلم، النموذجي إلى حد كبير، مألوف وكثير الوقوع، مع تغييرات هنا وهناك، عند الرجال الذين يشكون من عجز جنسي، حيث عجلتهم الأمامية تتراخى قبل الدخول إلى حديقة فينوس الجميلة. وهكذا نرى في هذا الحلم، ذات المرء مصورة بوساطته هو نفسه. إنه يتعرف إلى نفسه، يريد أن يركب دراجته ويدخل تلك الحديقة. أما الذات الخارقة فيمثلها الحارس، أي الناطق بلسان الرقابة، التي منعه من الدخول. أما الهو، فبكل وضوح زوّد الحالم بالنزوات التي ينبغي إشباعها، أي بالنزوات الجنسية، حائلة الأنا على التحرك لدخول الحديقة.

في هذا الحلم، هناك نزاع ما بين الأنا والذات الخارقة أولاً، إذ تتدخل الذات الخارقة لمواجهة الأنا، ولجعلها مذنبية بوساطة فكرة هيئته غير اللائقة، ولحملة على التخلي عن مشروعه. والرجل إذ لم ينجح باتجاه المرأة، توجه نحو الرجل، الميكانيكي الذي أراد أن يعهد إليه بعجلته لإصلاحها وإعادة نفخها. هناك نزاع إذاً يفضي إلى فشل مشاريع الأنا. وتحت تأثير الذات الخارقة تتخلى الأنا عن الاتجاه نحو المرأة لتتوجه إلى الميكانيكي. فيلزم النزاع المرء بالسير في اتجاه مخالف للاتجاه الطبيعي، أي في الاتجاه المعكوس. ونخال حينئذ أن هناك نكوصاً للذات نحو المرحلة اللواطية، تماماً كما في الحياة، حيث يصبح المرء، تحت تأثير الذات الخارقة الكابحة، لوطياً بدلاً عن أن يكون طبيعياً. فما هي تداعيات الأفكار التي تضيف إلى المحتوى الظاهر للحلم محتواه الخفي؟ للحصول عليها ينبغي أن نسأل الحالم عما تجعله الأوضاع المختلفة لحلمه يفكر. ولنبدأ بالحديقة.

إنها تذكره بنزهة قام بها عشية في حديقة عامة التقى فيها امرأة جالسة على مقعد. ولنسمع الكلام: «عندما رأيت هذه الفتاة الشابة، أردت أولاً متابعة الطريق، ثم تساءلت عما إذا كان بإمكانني الجلوس إلى جانبها وبدء المحادثة، وفي هذه اللحظة، لا أدري لماذا، جاءني الفكرة أنه قد يرانا أحد، وأنه سيكون من غير الملائم التكلم مع فتاة شابة ترعى طفلاً كان يلعب بالقرب منها. وقد لفت هذا الطفل انتباهي، فاهتممت ببلعه، ولكن، وخوفاً من أن أبدو سخيفاً بالتوجه إليه، تابعت طريقي مؤكداً لنفسي، بعد مئة متر منهما، أنني سأعود غداً، ولكن لن أكون مغازلاً للنساء».

وماذا يفكر حالمنا بخصوص حارس الحديقة؟

«الحارس؟ كان يرتدي بزة رسمية، وكان يبدو لي مسناً جداً. وأعتقد أنه كان ملتحيماً ولكنني لست متأكداً من ذلك. فالبستاني الذي حدثك عنه يا دكتور، بستاني المكان الذي أمضيت فيه طفولتي الأولى، في وادي المارن كان ملتحيماً. وأنت تعرف أنه

لم يكن يحبني كثيراً، وأنه كان يريد أن لا ألمس الأزهار أو الخضرة. وكان يحقد على والديّ اللذين منعاني من معايشة ابنتيه الصغيرتين اللتين كنت أرغب غالباً في اللعب معهما. وذات يوم، فاجأتنا أمي ونحن نصنع معاً قوالب حلوى من التراب ونبول فيها. فعاقبني والدي الذي وجد لعبتنا، بشكل غير مفهوم على الإطلاق، وقحة وغير لائقة، وبموقفه هذا جرح شعور البستاني الذي انتقم لنفسه مني، في حين كنت أنا بلا مقاومة أو دفاع. ثم مع مرور الوقت، أرخى أبي لحيته. وكان كما أخبرتك، رجلاً متسلطاً، يغضب بسهولة لأنه لا يمتلك أية سلطة فعلية. أما أمي فكانت هادئة وقاسية. ولم تكن تحب أن ألعب مع الأولاد الآخرين، وأخافتنني في أغلب الأحيان بتهديدي أنها ستروي كل شيء لأبي. ولم أكن أشعر بالراحة إلا مع الخادومات أو مربيات الأطفال عندما يهتمن بي، ولم تكن تجري الأمور هكذا دائماً. غير أنني أتذكر واحدة منهن كنت أرسل معها غالباً للتزّه. وكان لديها حبيب، وهو موظف جمرك، كما أعتقد، جمركي أو شرطي. في كل حال كان يرتدي بزة رسمية».

ولنر الآن ما يمثله الوضع «الوضع غير اللائق في الحلم»؟ هذا الأمر يحملني على التفكير في أشياء قبيحة جداً. فأنت تعرف أنني بقيت فترة طويلة أبول في فراشي إبان طفولتي. وقد حاول والداي مكافحة ذلك بجعلي أشعر بالعار. فكانا ينشران الشرشف عند نافذة غرفتي ليظهر للخدم ما قد قمت به. وكانا يتحدثان عن ذلك أمام أعمامي وعمّاتي والأولاد الآخرين عندما يحضرون مصادفة إلى بيتنا. «لا تلعبوا مع بول الذي بال في سرير» . هذه اللازمة لا تزال ترن في أذني. وقد بدا لي ذلك الأمر ظالماً جداً! وقد خطر لي أن لا أنام طوال ساعات لأتجنب أن يحدث لي ذلك، وأخيراً، وأنا منهك أغرق في النوم وتحدث الكارثة. ومن جهة أخرى، اليوم أيضاً عندما أدخل إلى صالة، أشعر دائماً أن لباسي ليس منظماً، وقد توصلت إلى أن أرتدي ثيابي بتدقيق كبير، لكن هذا الأمر لم يفد شيئاً في طمأنتي. إذ كان يتملكني خوف وخجل لا يُقهران عندما يطلب مني الكلام أمام حشد، أو عندما اضطر إلى التبول في مbole عامة. بحضور رجال آخرين».

والآن، الميكانيكي؟ «الميكانيكي؟ لنر، أعتقد أنه كان ذا مريول أبيض مثل الصيادلة في حوانيتهم أو الأطباء في مستشفاهم. إن زوجتي ترتدي أحياناً مريولاً أبيض عند قيامها بأعمالها المنزلية. وأذكر أن ذاك المريول كان يناسبها جداً، وأعطاني بعض الأفكار أحياناً. فكنت أطلب منها أن تلبسه لتثيرني ثم لتساعدني في عاداتي السرية. وكانت الأوقات النادرة التي استطعت فيها مجامعتها، قد حصلت بهذا الشكل. ولكن لسوء الحظ، لم يكن هذا الأمر ينجح دائماً وخاصة أن قدرتي الرجولية تزول بعد بدء الجماع مباشرة.

لنتوقف هنا مع هذه التدايعات التي يقدمها إلينا حالمنا، والتي تشكل في مجموعها المحتوى الكامن للحلم. وماذا نستطيع الاستنتاج منها؟ إن المحتوى الكامن لهذا الحلم يعكس قسماً كبيراً من التأثيرات التي مورست على مريضنا خلال طفولته لعرقة نموه العاطفي. ويتجسد هذا التأثير التربوي في نشاط الذات الخارقة الكابحة، في حارس الحديقة، الذي صورته ووجهه مقتبسان من الأب كما من البستاني ومن عشيق مربية الأطفال الذي كان يرتدي «بزة رسمية». ونستطيع أن نفهم إلى أية نقطة شاركت كل هذه التأثيرات مجتمعة في إخافة الحالم من نفسه، وفي أن ترسخ في ذهنه فكرة أنه كان من غير اللائق أن يبول، وأن «يلمس» الأزهار، والثمار في الحديقة، وأن يلعب مع الفتيات. إلخ. ونتبين الانزعاج الجنسي الذي كان نتيجة ذلك، الخجل، والشعور بالدونية والفشل. ونعلم من هو الميكانيكي الذي توجه إليه لينفخ له «عجلته». إنه امرأته في مريول رجل، لأن زوجته رثى ذات طبع ذكري، كما ينبغي أن نتوقع في مثل هذه الحالة. وما نعرفه عنها يسمح لنا بالقول إنها لا تحب دور المرأة في الجماع، وأنها باردة جنسياً خلال العلاقات الجنسية الطبيعية وتفضل كثيراً العادة السرية المتبادلة أو في ما يتعلق بالصيدلي الطبيب، فقد كانت قد بدأت دراستها كطبيبة أسنان قبل زواجها، وهي دراسة أوقفتها في هذه الآونة، لكنها تفكر جدياً في متابعتها لكي تستطيع في المستقبل احترام المهنة.

ولنحاول الآن إعطاء معنى للحلم. إنه يريد أن يقول: «أنا أيضاً أود أن أكون عشيقاً لمربية أطفال كتلك المربية التي رأيتها مع الجمركي أو الشرطي،

أرغب في أن أكون رجلاً، جندياً، أمارس الحب علناً دون الحاجة إلى الخجل. ولكنني منعت من ذلك، لقد جعلوني رجلاً شائناً، فاشلاً، عاجزاً، لا يملك مخرجاً لحياته الجنسية إلا العادة السرية، والفشل لمشاريعه. إنني مرغم على التخلي عن مكانة الرجل والعيش تقريباً كامراً يثيرونها ويلاعبنها. ولحسن الحظ بقي لي الأمل في رؤية طبيب يشفيني ويعيد نفخ «العجلة» ليتيح لي أخيراً الدخول إلى الحديقة الشهيرة، رغم كل العوائق التي سأصادفها».

إن تداعيات أفكار الحلم لا تعطينا طبعاً كل محتواه الكامن. إذ لو ألححنا لكان حالنا روى لنا أيضاً الكثير من الأمور. ولكننا علمنا ما أخبرنا به لاحقاً، وهو أن الجمركي الشهير، رجل البوليس أو المسؤول عن الرخص، الذي كان له على الأرجح علاقات جنسية مع مربية الأطفال وعلى مشهد من الصبي، قد هدد يوماً بأن يقطع عضوه إذا استمر بالتبول في فراشه، كما أن الشخص الذي علمه العادة السرية كان يرتدي مريولاً أبيض... إلخ. ولكن لم يكن من الضروري، في نطاق هذا العمل، التركيز على كل مظاهر هذه الحالة. ولنضيف ببساطة أن الشذوذ الجنسي، عند مريضنا، كان لاشعورياً، على الأقل قبل التحليل. أما في الحياة العادية، فقد كان متزوجاً بكل لياقة، وأباً لطفل، وعلى رأس قضية متعلقة بمدير، ويبدو أنه كي يستطيع مقاومة الفشل الذي كان يهدد قضيته اقتنع بمعالجة نفسه.

بكل تأكيد، ليس بوساطة حلم واحد نستطيع القيام بتشخيص للمرض. فبشكل عام، عندما يكون النزاع جدياً وخطيراً، كما هو الأمر في الحالة الحاضرة، فإن جميع منامات الحالم تدور حول المسألة نفسها التي تلازمه لا شعورياً، كجرح يتجدد كل يوم.

وهناك مجموعة من الأحلام من النمط نفسه الذي ذكرناه أعلاه، تتيح لنا أن ندرس كل حالات التحول والانتقال ما بين الحالات المرضية والحالات الطبيعية. ونحن نحصل عليها إما خلال معالجة واحدة، عندما يتدرج المريض بعالج نحو الشفاء، وإما من لدن أشخاص مختلفين، بحسب كون حالاتهم

قائمة في مواضع متوسطة ما بين اللاطبيعي والطبيعي . وهكذا نستطيع ملاحظة التحولات ما بين الحالات المتنوعة تماماً، كما أن دراسة المقاطع النسيجية لعضوما، في مراحل مختلفة من نموه، تسمح لنا في نهاية المطاف بإعادة تشكيل قصة تكوّنه .

إننا نعرف إذاً ما هي السلطة النفسية التي تتحول في الحلم بقدر ما يصبح طبيعياً وبأية تأثيرات يظهر ذلك . فالسلطة التي تتحول وتتغير هي السلطة التي يمثلها حارس الحلم عند مريضنا . وفي حالات أكثر خطورة، يرعب هذا الحارس الحالم، ويبلغ حد الإساءة إلى التعيس الذي يريد دخول الحديقة، فيجرّحه، ويقتله . وفي الحالات الأكثر إيجابية، نجد أن الحالم، على العكس، هو الذي يهاجم الحارس . إنه يتشاجر أولاً معه، ثم يشتمه، ويجتاز ممراً رغماً عنه، أو أيضاً يجرّحه ويقتله .

وما هو حلم الرجل القادر على الوصول بشكل طبيعي ؟ سنذكر الحلم التالي الذي رآه رجل تألم طويلاً من عجز جنسي ونجح في التخلص من ذلك العجز في أيام هذا الحلم : «حاولت الانطلاق للدخول من باب إلى غرة رأيت فيها عمالاً يعملون . وكانت امرأة تراقبهم . فاندفعت حيناً، أو على الأصح تشبّثت بالأرض لأدفع نفسي داخل الغرفة، لكن قوة جبارة كانت توقفني كلما أصبحت على وشك اجتياز العتبة، وأخيراً، لا أعرف بوساطة أي مجهود خارق توصلت إلى الدخول، وها أنا في الغرفة التي تحولت في هذه اللحظة إلى نوع من الخيم الزراعية مليئة بالأزهار . ورأيت فجأة إلى جانبي عدواً أوحى لي برعب كبير . ولكن بدلاً من أن أراجع اندفعت إليه أمسكته من خناقه، وضغطت إلى أن مات . وحينئذ طرحته خارجاً، دون الاهتمام بما فعلته للتو، وعملت مع الرجال الآخرين على نكش الأرض أو القيام بشيء قريب من ذلك» .

لقد رأينا للتو أن هذا الحلم قد بني على شاكلة الحلم السابق نفسها . فقد استبدل مدخل الحديقة بمدخل غرفة يُعمل فيها . وهذه الغرفة تستطيع، فضلاً عن ذلك، أن تحل محل الحديقة لأنها تشبه خيمة زراعية، ينكش فيها العمال

الأرض. ويُمثل حارس الحلم بوساطة العدو والقوة التي تمنع الحالم من عبور الباب. ولكن صحيح أيضاً أن هذا الحلم يختلف، في بعض النقاط، عن الحلم السابق:

فأولاً هناك عمال يعملون في الغرفة، وقد تماثل الحالم معهم على الأثر. وثانياً هناك فعل قتل، ثم إن مخرج الحلم أو نهايته تتم بطريقة مختلفة تماماً عن الحالة الأولى، فبدلاً من العودة على أعقابه، توصل الحالم إلى الدخول من الباب، وإلى احتلال مكانه في الغرفة، إلى جانب العمال.

وهذه هي تداعيات أفكار الحالم: العمال يرمزون في مخيلته إلى الرجال الأقوياء القادرين على استصلاح الأرض الزراعية التي حصلوا عليها. وعملهم النشط والرجولي كحارثين وباذرين يجعل الأرض «البور» خصبة. ويحملة العدو على التفكير ببساطة في رجل كان يتمنى حقاً خنقه، وكانت صورته الممقوتة خلال وقت طويل، في أحلام سابقة، قد نجحت في حمله على الفرار. وقد استطعنا أن نتحقق لاحقاً من أن هذا العدو كان يمثل أيضاً الجانب الرجولي من زوجته التي، حتى الآن قامت تجاهه بدور المضطهدة أكثر مما قامت بدور المرأة والزوجة. ولكن هذه المرأة، على أثر التحولات الطارئة في سلوك مريضنا، التي خضعت كذلك لعلاج آخر في الوقت نفسه مع زوجها، قد حُملت على أن تغير من سلوكها، وأن تتخلى عن العرقلة التي كانت تقوم بها، بشكل عصابي، تجاه مبادرات زوجها. وفي فترة الحلم، كانت العلاقات الجنسية بين الزوجين قد أصبحت ممكنة ومتيسرة. فكان الزوج قد تخلص من كبته الجنسي وتخلصت المرأة من برودتها.

فهل هذا الحلم الأخير طبيعي تماماً؟ لا أعتقد ذلك. فذات الحالم مرغمة على تحمل نضال مهول للوصول والنجاح. فهناك نزاع إذاً، ومن جرّاء ذلك رعب وقلق. فهل هذا النزاع وقف على كل حلم ينتهي في الاتجاه الصحيح؟ إن الكثير من الرجال قد لا يستطيعون الوصول بشكل طبيعي إلا بعد دفع الثمن، وهو ضرب من القلق الشديد، إلا أننا لا نستطيع التأكيد أن هذا الأمر قاعدة

عامة. إذ ما إن تقدّم حالماً نحو شفائه حتى كفّ عن رؤية عدوه. ولم يعد يتوجب عليه بذل جهود جبارة لاختراق باب خيمة الزهور أو «حديقة حواء». وصار بإمكانه حينئذ أن يجد نفسه في حديقة مدهشة، وأمام حوض تملكه الرغبة في السباحة فيه. وهذا الحوض محاط من جميع جهاته بالأزهار والعشب الأخضر. وقد تعرّى الحالم، وغطس من رأس سلم وسط إحساس بنعومة لا توصف. وفي هذه اللحظة استيقظ، وربما حتى مع حالة رجولة واضحة.

في هذا الحلم، كان مدخل الحديقة أو خيمة الزهور، إذاً قد استبدل صراحة بالدخول إلى «حوض» المرأة. إذ يصوّر الجماع بوساطة الغطس من أعلى السلم. ويستطيع العضو الأنثوي أيضاً أن يكون مرموزاً إليه بوساطة آلاف الأشكال التي تملكها الطبيعة وتستطيع تصويره: كأس الزهرة أو كأس أو مدخل كنيسة مثل كنيسة نوتردام^(١). ولكننا لن نلح على مسألة رمزية الحلم. إذ لا يتوجب علينا إلا النظر حولنا، وسيظهر لنا العديد من الأمثلة كيف تصور في الواقع الأعضاء الجنسية المختلفة. فالحلم لا يقوم إلا بتبعها، وهو يفهمها حتى في الحالات التي يمتنع فيها المنطق البشري عن النظر إلى الأشياء مواجهة. وبالنسبة إلى ذاك الذي لا يصم أذنيه عن هذا الكلام، فإن تفسير الرمزية في الحلم لا يعترضه الكثير من الصعوبات.

إن معظم الأحلام أكثر تعقيداً من هذه الأحلام التي ذكرناها. إذ لا يملك النزاع بالضرورة طابعاً جنسياً. ولكن كلما كان هناك نزاع، وهذا مألوف وشائع، نجد أنفسنا تجاه ثلاث سلطات نفسية سبق أن لفتنا انتباه القارئ إليها. وهذا النزاع بالتحديد هو الذي يمثل المعنى الحقيقي للحلم، حتى للأحلام التي ذكرها فرويد في كتابه. وعندما ندرس هذه الأحلام من وجهة نظرنا سنفاجأ برؤية كل ما نجح بالاعتراف لنا به بواسطة أحلامه، وخاصة بوساطة حلم إيرما. لقد رأينا أي دور تستطيع الذات الخارقة القيام به في الحلم متخذة

(١) كنيسة شهيرة في باريس.

موضع المخالف للأنأ. ومن الواضح أن نهاية النزاع ما بين السلطتين لا تتعلق فقط بتأثير الذات الخارقة في الأنأ، بل أيضاً بالطريقة التي يتوصل فيها الأنأ إلى معارضة الذات الخارقة. فقد يكون الأنأ ضعيفاً، وقد يكون قوياً. وبحسب ما يملكه من طاقة لنشاطه يقاوم تقريباً بشكل جيد ما هو نقيض له. وتستطيع ذات خارقة طاغية وعدائية تجاه الأنأ منع هذا الأنأ من التكوّن بشكل طبيعي. فيصبح تحليل الحلم وسيلة ممتازة لتشخيص عيوب الأنأ ونقاط ضعفه.

إن الأنأ الضعيف سلبي ومرعوب، وعاجز عن القيام بمبادرات عدوانية للدفاع عن نفسه بفعالية. ويسمح في الحلم دائماً، بأن يقوده شخص يفرض عليه في نهاية المطاف مبادراته. فيتخلى عن مشاريعه ويتألم غالباً، ولا سيما أن التألم، في العديد من الحالات، هو الوسيلة الوحيدة التي يمتلكها لمقاومة الذات الخارقة بإثارة إشفاقها. . فيصبح التألم إذاً سلاحاً للأنأ، يصوّره عند الحاجة في الأحلام كما في الواقع، ويظهر هذا الأمر، بدءاً من بعض حدود التسامح، بوساطة ظهور المعاناة العصبية التي ليس الفشل الاجتماعي أو العاطفي إلا مظهرها لها.

إن الأنأ الذي يقاوم بفعالية ذاتاً خارقة مضادة له مؤهل للنمو بوساطة النضال، ويقدر ما يتوصل إلى التخلص من العوائق التي تضعفها الذات الخارقة وإلى أن يجند، لحسابها، كل الطاقة التي يستهلكها، هذه الذات الخارقة لشلها. وهذا التحول للأنأ، قد يلاحظ أيضاً في أحلام الإنسان، عندما يتوصل هذا الأخير إلى مقاومة الذات الخارقة والسيطرة عليها، ليتحرر من الفشل والمعاناة العصبية. إن دور الهو في الأحلام أكثر صعوبة عند التقدير، لأن الهو لا يقدم بدقة مزايا شخصية ما واضحة جيداً، كما هي حال الأنأ والذات الخارقة. ولا يمثل الهو على الأقل السلطة المستقلة، التي ترغب الأنأ والذات الخارقة باستمرار على الاعتماد عليها وتبرير سلوكها أمامها، كما يحدث للحكومة التي تخضع للجماهير وتحركات الرأي العام. وكذلك نجد أن الهو يمثل غالباً في الأحلام بوساطة حشود شعبية، وجماعات يقودها الأنأ والذات الخارقة، حسبما تنجح هذه أو تلك في السيطرة وفي فرض اتجاهها.

ونود أن نضيف أيضاً كلمة بخصوص العلاقات بين الأحلام وأحلام اليقظة والإبداعات الأدبية أو الفنية. إن أحلام اليقظة والإبداعات الأدبية أو الفنية متحدرة من مخيلة المرء، لكنها أكثر قرباً لإدراكنا العقلي من الحلم. فأحلام اليقظة والأحلام لا تعاني بشكل أقل تأثير السلطات النفسية الثلاث للشخصية، وليست في أغلب الأحيان شيئاً آخر غير التعبير عن النزاع الذي يقسمها داخل الحياة النفسية. وأحلام اليقظة والإبداعات الأدبية يمكن تحليلها كأحلام، وتزودنا غالباً بالإشارات نفسها.

فإن لم تكن هناك أحلام لشخصية تاريخية نودّ فهم دورها ومصيرها، فإننا نستطيع بكل تأكيد تفسير خواطر مجموعة الرسائل، والتتاج الأدبي لشبيبة متعطشة إلى الاعتراف. ويستطيع هذا التحليل أن يزودنا بكل المعلومات التي اعتدنا على التفتيش عنها في أحلام الشخص الذي نعالجه. فمن المهم مثلاً دراسة الأعمال الأدبية لنابوليون أيضاً.

ففي العام ١٧٩٤ م، كتب بوناپرت قصة موحية. إذ في تلك الفترة، استمال امرأة أمينة قادرة على أن تحبه، إنها المرشلية الشابة ديزيره كلاري (Désirée Clary). وفي هذه القصة، التي عنوانها كليسون وأوجني (Clisson et Eugénie) تعرّفنا إلى العميد كليسون الذي تزوج الفتاة الناعمة أوجني. وقد تركها مباشرة بعد الزواج، وقاد جيشاً للقيام بمعركة وطنية. وعندما جرح في إحدى المعارك، أخبر زوجته بذلك بوساطة أحد ضباطه الشبان. وقد اغتنم هذا الضابط المناسبة ليغازل أوجني، فهل أصبحت عشيقته؟ يمكن افتراض ذلك لأنها لم تعد تكتب منذ تلك الآونة فصاعداً إلى زوجها. فأصبح كليسون حينئذ يائساً. وكتب إلى زوجته رسالة وداع وانتهزها للهرب منها حتى بالموت؛ فارتقى «مطأطأ الرأس في المعمة وقضى نحبه، وقد اخترقته مئات الطلقات».

وقد تسمح لنا هذه القصة الصغيرة أن نفهم لماذا استطاعت المواطنة بوهارنه (Beauharnais)، حبيبة الضابط الجميل ايپوليت شارل (Hippolyte Charles) أن تتلاءم بشكل أفضل مع ذوق نابوليون الشاب من ديزيره كلاري التي نجح من الهرب منها في احتدام المعارك.

أينبغي أن نقرب هذا الأمر من حلم لنابوليون، يبدو لنا موحياً بشكل

خاص؟ إنه ذاك الحلم الذي رآه في أرفورت^(١) (Erfurt) في ألمانيا، عندما ذهب إليها ليهر قيصر روسيا، بحسب اعترافه الشخصي، بوساطة عرض قوته وقدراته. فأرسل إلى أرفورت مع حرسه أثاث العرش، وأوانيهِ الأكثر غنى جماعة الكوميدي فرانسيز^(٢) كلها، برئاسة تالما^(٣) (Talma). ونظّم مهرجانات فخمة وفاخرة. ومثل تالما مسرحية أوديب ملكاً؛ وعندما أنشد البيت الشهير: «صداقة الرجل العظيم نعمة من الآلهة». تصافح إسكندر ونابوليون بحرارة وسط تصفيق الملوك والأمراء الحاضرين.

وفي الليل الذي تلا العرض المسرحي، سمع المملوك روستان (Roustan)، المكلف بحراسة نابوليون، صرخات فظيعة تنطلق من غرفته. واستيقظ خادمه كذلك، ففتح الباب، فرأى الأمبراطور ممدداً في عرض السرير، وقد ألقى كل الشراشف والأغطية عنه، وهو يوميء بيديه. وكان يتفوه بكلام غير مفهوم، ويضغط بيديه على صدره. فهزّه كونستان (Constant) وتوصل إلى إيقاظه بصعوبة. فأوضح له الأمبراطور، أنه رأى حلماً مربعاً شاهد فيه دُباً يفتح صدره ويلتهم قلبه. وقد اضطر كونستان إلى تغيير قميص نابوليون المبلل بالعرق. وبعد هذا الحلم، لم يستطع الأمبراطور أن ينام مجدداً.

أمن الممكن ربط هذا الحلم بفشل الحملة على روسيا، حيث نجح نابوليون في تقديم نفسه، هو وجيشه الكبير، ضحية للدب الروسي؟ هذا ممكن بكل تأكيد. إذ يمثل الدب الذات الخارقة لنابوليون التي تتصرف غالباً كدب لإخفاء أو إنكار شدة تأثيره؟ ألن تتغلب عليه هذه الذات الخارقة في جزيرة هيلانة ذات يوم؟ السؤال يطرح نفسه كما سنرى فيما بعد في الفصل المخصص لنابوليون.

(١) مدينة في ألمانيا الشرقية وهي مركز صناعي. شهدت مواجهة بين نابوليون واسكندر الأول قيصر روسيا.

(٢) الكوميدي فرانسيز، مسرح تأسس في باريس سنة ١٦٨٠ بناء على أمر من الملك لويس الرابع عشر وجمع الفرقة التي كان يقودها موليير وفرقة أوتيل بورغوني.

(٣) فرانسوا جوزيف تالما (١٧٦٣ - ١٨٢٦ م) ممثل تراجيدي كان نابوليون يعجب به ويفضله.

أعراض الفشل وتجلياتها في المجتمع

عندما ندرس مسألة فشل فرد ما في الحياة الاجتماعية، ينبغي الانطلاق من وجهتي نظر مختلفتين: وجهة نظر الفرد الذي أصابه الفشل ووجهة نظر المجتمع الذي ينتمي إليه. وبحسب الانطلاق من هذه الوجهة أو تلك من هاتين الوجهتين نتبين أن المسألة لا تنطرح، بالضرورة، بالطريقة نفسها. فما اعتبر بشكل صارم فشلاً من وجهة النظر الفردية، يبدو أحياناً نجاحاً من وجهة النظر الاجتماعية. ونذكر بكل بساطة مثلاً على ذلك حالتي روسو^(١) وبودلير^(٢) اللذين اعترفا لنا بفشلهما المؤلم في حياتهما الاجتماعية التي اعتبرها المجتمع نجاحاً، أو على الأصح إخصاباً للوجود.

تعاسات روسو وبودلير؟ ليس علينا إلا قراءة كتبهما: اعترافات قلب معرّي، للاقتناع بذلك. ومهما كانت دراستنا لحالتيهما ضعيفة، فإن إخفاق حياتهما يظهر جلياً واضحاً، وعصابهما نموذجياً، كما نجد ذلك معروضاً وموضحاً في كتاب: فشل بودلير.

إن روسو، كما سنراه في فصل قادم، كان منحرفاً، استقرائياً^(٣)، عاجزاً،

(١) جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨م) كاتب فرنسي شهير اتهم الفساد الاجتماعي ودافع عن العدالة والفضيلة، أثر في الثورة الفرنسية والحركة الرومانطيقية.

(٢) شارل بودلير (١٨٦٧ - ١٨٢١م) شاعر فرنسي اشتهر له ديوان أزهار الشر وترجمته لقصص إدغار ألن بو الغريبة.

(٣) أي لديه نزعة مرضية إلى تعرية الصورة.

ويعاني جنون اضطهاد حقيقي كان يجعله غير جدير بالقيام بدور الرجل أو أب العائلة . وكان بودلير مدمناً على المخدرات ، عاجزاً وغير قادر على رعاية ثروته ، وكان له قيم قضائي (أي وصي) . وكان يتشكى من عدم قدرة على العمل قوية لا تقهر . ومات مجنوناً ، بعد أن ارتقى في أحضان الشيطانين اللذين راح ضحيتهما : المرأة الخلاسية ، والسفلس . وقد دوّن قبل موته ببضع سنوات وبوضوح خارق : «اليوم . . شعرت بمرور ريح جناح الغباوة فوق جبيني» . لقد اعتبر روسو بودلير حياتهما الخاصة فشلاً أكيداً وتألماً من ذلك . في حين أن هذا الفشل يمثل ، من وجهة نظر اجتماعية ، نجاحاً أدبياً كبيراً .

فكيف نتفق في هذه الحالات على مفهوم الأعراض؟ كيف نوفق بين وجهتي نظر تبدوان متناقضتين؟ فهذه المشكلة هي التي تطرح نفسها أمامنا بقدر ما نتوغل في عمق موضوعنا .

ونورد مثلاً أيضاً ، في نهاية القرن التاسع عشر ، ماتت في ليزيو^(١) (Lisieux) راهبة كرملية شابة مضت في التوبة إلى حد السقوط ضحية الكسل الذي جعلت منه حليفاً للاتصال بالله . وقد كتبت هذه الراهبة الكرملية مذكراتها في كتاب غريب لا يُطلعنا على العذاب الذي عانت فيه حياتها ، بل أيضاً على شكوكها وضروب فشلها المتعلقة بإيمانها . وتظهر لنا دراسة متعمقة قليلاً العُصاب العائلي الذي كانت الطفلة المسكينة فريسته ، مثل أخواتها . ومنذ أن ماتت أصبحت القديسة تيريز في مدينة ليزيو ، وذكّرت حياتها لملايين المخلصين . فما قد يعتبر ، بشكل فردي ، فشلاً أكيداً لحياة واقعية حقيقية ، يصبح من وجهة نظر اجتماعية نجاحاً لهذه الحياة .

ماذا نستنتج من ذلك؟ ببساطة ، إننا نستنتج أن مفهوم الفشل ذو طابع اجتماعي ، ويتغير مع الأزمنة والعهود . وأعترف أن هذا التفسير لا يرضيني كلياً ، وأعتقد أن الموضوع يستحق أن يدرس عن قرب . فما الذي يجعل مجموع الآلام غير المجدية لفرد ما ، مجموع الطاقة المبذورة عبثاً في مشاريع عقيمة ،

(١) مدينة فرنسية شهيرة يخج الناس فيها إلى قبر القديسة تيريز .

قادرة في بعض الحالات، على أن يعاد تقويمها على يد جماعة، وأن تجعل هذه الجماعة مدينة لشهادتها بدين أبدي من العرفان بالجميل والامتنان؟ كيف يمكن تفسير واقع أن حياة بشرية تجهض دون فائدة مباشرة لأصحاب العلاقة أو لمحيطهم القريب أو لعصرهم، تكتب، عبر العصور، خلوداً لا يعترف به المجتمع عادة إلا لأولئك الذين كان لهم فضل النجاح في مشاريع بشرية؟

ولا ننسى كذلك حالة الراعية التي أُحرقت حية كساحرة، في الساحة العامة في مدينة روان (Rouen) (١)، بعد أن حاولت إنقاذ ملكها وطرد الإنكليز من بلدها. ويعرف الناس جميعاً ضروب فشل هذه الفتاة العذراء بعد تتويج شارل السابع في رانس (Reims) (٢) وكيف أن القضاة والأساقفة، قد حكموا عليها بالموت كمجرمة. ولكن بعد نصف قرن، أعيد النظر في هذه القضية التي كانت تبدو عادية وطبيعية، حتى للملك الذي أنقذته جان (٣) (Jeanne)، بناء لأمر من البابا، وأصبحت الساحرة التي أُعدمَت في زمن ما، مجاهدة، وبطلة وطنية فرنسية، وقديسة بين قديسي الكنيسة نفسها التي حكمت عليها بالموت على المحرقة.

نحن في مواجهة حساب غريب للقيم يجد العقل صعوبة في تفسيره، ويفرض واجبات ويخلق حقوقاً، حتى لو أراد الإنسان رفض الاعتراف بها.

إن الخبرة التي نمتلكها اليوم تسمح لنا بمقاربة المسألة بدقة وباستشفاف الارتباطات غير المألوفة للأسباب والمسببات التي يختلقها الليبدو لنفسه، حتى في الحالات التي يبدو أنه يدمر نفسه ويعقرها. ولفهم هذه المسألة، ينبغي أن

(١) روان مدينة فرنسية ومرفأ على نهر السين أُحرقت فيها جان - دارك سنة ١٤٣١.

(٢) مدينة فرنسية أسقفية. كان يتم فيها تتويج ملوك فرنسا.

(٣) جان - دارك أو عذراء أورليان. بطلة فرنسية (١٤١٢ - ١٤٣١) تنتمي إلى عائلة قروية. كانت تقية ورعة فحدث لها أنها كانت تتعرض لانجذابات وشطحات وتسمع أصواتاً تأمرها بإنقاذ فرنسا التي اجتاحتها الإنكليز. فاندفعت على رأس جيش صغير وأنقذت ملك فرنسا لكنها سقطت في قبضة حلفاء للإنكليز فأحرقوها في مدينة روان حيث يقام لها عيد في ٣٠ أيار وعيد وطني في ٨ أيار.

نتذكر كل ما ما قلناه في الفصل الثالث عن تكون الشخصية والذات لدى الأفراد.

إن الذات أو الشخصية لدى شخص ما تظهر كنتاج لتوليف واسع للخبرات والتصورات الجماعية والفردية التي، إذ تتجمع بشكل معرفة وقدرات للذات، تحدّد موقف الفرد تجاه الواقع الذي ينبغي أن يتألف معه. وبعبارة أخرى إن ذات الفرد مرتبطة بشكل كبير بالعقلية والمعارف الجماعية، كما تشكلت خلال تاريخ الشعب، عقلية ومعارف عانى الأفراد كثيراً لاكتسابها. وتشكل هذه المعارف كسباً أكيداً لكل الذين يتوصلون إذ يتسلحون بها للتغلب على الواقع بفعالية أكبر أو إلى التوافق معه. فيصبحون من جراء ذلك مدينين بغناهم وإثرائهم إلى كل أولئك الذين ضحوا بأنفسهم لتحصيلها. ولنر ما يمثله هذا الربح، ولنتذكر ما هو هذا الواقع الذي ينبغي تعلّم التوافق معه تحت طائلة الاختفاء دون ترك أي أثر.

إن هذا الواقع، كما نعرف، لا يظهر لنا فقط بكل ما يحتوي عليه العالم الخارجي من مشاكل، من متطلبات، من صعوبات وأخطار، بل يقوم أيضاً فينا. وقد رأينا كيف أن الذات الخارقة الجماعية والفردية قادرة على إخضاع الأفراد، وتحديد طريقهم وقطعه، وشلّهم وتعذيبهم عند اللزوم. فهناك الفكر الذي يحرّر والفكر الذي يقتل. فالعديد من حالات الانتحار دون ما سبب ظاهر، التي تحدث كل يوم، هي هناك لإقناعنا بذلك. وتظهر لنا دراسة أعراض الفشل العدد الكبير لحالات الانتحار الجزئي الذي يمثله في الواقع هذا العُصاب.

إننا نلتقي، إذاً، الواقع القاتل في ذاتنا بقدر ما نلتقيه في العالم الخارجي، بأشباحه المرعبة إلى هذا الحد أو ذاك التي يثيرها وبيعثها القلق الناشئ من هذا العالم، فتجعله مرعباً وشاسعاً لا يحد. إننا نجد هذا الواقع في آلاف التفاصيل التافهة ظاهرياً في الحياة، في التعبير عن الرغبات التي لا تحصى التي تدفع الأشخاص إلى التقاتل وإلى التناهنس لإشباع شهيات جشعة، متعطشة إلى الضحايا. وترغماً ضروب القلق التي يضطهدنا بوساطتها

على الهرب من الأخطار الحقيقية والخيالية وعلى مقاومتها بكل الوسائل الممكنة، وبعضها أكثر خطورة من السوء الذي نريد إزالته. وها نحن مرغمون على خوض معركة في كل دقيقة، وكل ثانية ضد هذا الواقع الخارجي أو الداخلي، مصدر الألم أو الفرح؛ بحسب ما نكون الرابحين فيه أو الخاسرين.

وفي الواقع الخارجي، هناك النضال ضد العوائق التي تمنعنا من احتلال مكاننا، ضد الأعداء الرهيبيين المنتصبين أمام الفرد بشهياتهم الأصلية، المنافسين الذين ينازعونه خيراته وسعادته، الطرائد التي تقاوم ولا تسمح بالتهامها بهدوء وسلام، الأمراض التي تقضم حيوية المرء، الطبيعة نفسها التي تمنحنا مهلة لتسمح لنا بالعيش، ثم تلعب لعبة الموت.

وفي الواقع الداخلي، هذا النضال يتلاءم مع ضرورة مجابهة التطلعات العديدة والرغبات والحاجة المتحدرة من الهوى، التي تقتضي إلى حد ما إشباعها بإلحاح، رغم العوائق والموانع الخارجية أو الداخلية والأخطار التي بعضها يجرف المد مثل الذات الخارقة التي تكلمنا عليها سابقاً.

وبين هذين الواقعين، الخارجي والداخلي، نجد الأنا منتصباً. إنه يسعى إلى التوفيق بينهما آخذاً بعين الاعتبار ضرورات كل منهما، منتصباً إلى تسويات لمصالحة ما تبدو غالباً في حياة الأفراد متناقضة ومتنافرة لكي تشبع هذه الحاجة أو تلك وتضمن هكذا حياة الفرد الواحد والبشر ونجاحهم.

وكما سبق لنا القول: «إننا ندعو أنا هذا النشاط للجهاز النفسي الذي بوساطته يتحقق توليف كل تصوراتنا، الداخلية والخارجية، ويسمح لنا هذا التوليف بالتموضع في الزمن والفضاء، مع الإحساس بالوعي به والقدرة على التصرف بشكل إرادي بالنسبة إليها وإلى حاجاتنا». وينجز الأنا هذا العمل بطريقة متنوعة للغاية بحسب ما يكون جيداً أو سيئاً لنضالها. وينبغي علينا التمييز بين وسائل عمل الأنا القوية ووسائل عمل الأنا الضعيفة، الأنا الطفولي، والأنا الراشد. فوسائل العمل تتنوع كلياً بحسب نوعية وكمية الليبيدو التي

تمتلكها الأنا للانتفاع بها. ويُظهر لنا علم نفس اللاشعور كيف يمكن أن يتطور الأنا ويكبر ويواجه عقلياً مهمته المعقدة.

إلا أن هذا التطور ينبغي أن يتم بشكل طبيعي في طفولة الإنسان، وبمساعدة محيطه. وفي معطيات حضارتنا نجد العائلة والجماعة تبدلان جهوداً مضاعفة لتسليح المرء في نضاله ضد الواقع. وتعلّمنا تجربتنا جميعاً كم يقتضي هذا التكون من جهود من جانب الفرد ومن جانب الجماعة، وكم من التجارب المؤلمة أحياناً هي ضرورية لتأمين تثقيف «شاب عادي» في عصرنا، مثلاً.

إن ذات هذا الشاب العادي تدين بكثير من معارفها وخبراتها للجماعة التي زوده بها كدليل مرشد وكدعامة الناطقون بلسان ما نستطيع أن نسميه الذات الجماعية. وسيتوجب علينا لاحقاً دراسة ما تمثله تماماً هذه الذات الجماعية. أمّا الآن فلنكتف بالتأكيد أن الذات الفردية تركز عليها لادّخار العديد من التجارب المضنية، ولكن الضرورية لكي تراكم طوال تاريخ أمة ما، المعارف التي تضعها هذه الأمة بتصرف المرء.

إننا ندعي إذاً أن الذات الجماعية تصبح مرشداً للذات الفردية، وتحاول هذه الأخيرة الارتفاع إلى مستوى تطورها، بامتلاك خبرة لم يعد الفرد مرغماً على اكتسابها. فهو يستخدم هذه القاعدة لينمو بقدر ما يسمح له تطوره بذلك، وليتجاوز مستوى الذات الجماعية. إنه يضيف فتوحاته الشخصية إلى التراث العائلي والوطني. ولكن لكي نفهم جيداً العلاقات التي تقوم بين الذات الفردية والذات الجماعية ينبغي أن نحاول تكوين فكرة أكثر دقة عما تعنيه هذه الأخيرة.

إننا نتصور تكوين الذات الجماعية كتكون الذات الفردية تقريباً. فهي التناج لتوليف يتم على نطاق أكبر للغاية من نطاق الذات الفردية. فالذات الجماعية مثل الذات الفردية تكبر انطلاقاً من الصفر تقريباً، وباستخدام الاكتشافات الفردية المختلفة التي قام بها أولئك الذين ورثوها تجاربهم واكتساباتهم في مجموعة محددة. فهي إذاً ثمرة حمل مؤلم، ثمرة معركة مع المنتصرين والمغلوبين، مع الناجحين والفاشلين.

إن الذات الجماعية، مثلها مثل الذات الفردية، تنطوي على عدة نوى لتطور الشخصية، وكل نواة متوافقة مع مرحلة خاصة من تاريخ الجماعة. ونحن نميّز ما بين النواة الفمية - الشرجية، والشرجية، والشرجية التناسلية، بتصوراتها المختلفة للواقع. فتكون ذاتنا الجماعية الحالية نتاج التحام هذه النوى المختلفة. وسيتم هذا الالتحام خلال تطور حضاري، بكل ما يقتضيه هذا الأمر من نضالات وتغيرات على مستوى التنظيم الاجتماعي، والمعتقدات الدينية والفتوحات العسكرية والاكتشافات العلمية. ولكن كيف يمكن تصور الأوعية التي يتم بها هذا الالتحام؟

عندما نتصور تكون الشخصية، مثلاً، قد نخطئ بتخيُّله كبناء لعمارة ترتفع على قاعدة، حجراً فوق حجر، بحسب خطة موضوعة مسبقاً. فسنكون أكثر قرباً من الحقيقة إذا تصورنا هذا التكون كنوع من الولادة المتجددة باستمرار للمرء الذي ترغمه ضرورات نموه على التخلي، جزئياً أو كلياً، عن بعض مكتسباته للوصول إلى غيرها. فكيف يظهر هذا الأمر عند الفرد؟

لنتذكر الفصل الثالث من هذا الكتاب الذي بيّنا فيه كيف أن الشخصية خلال تطورها تحت تأثير الغرائز في المرحلة التناسلية وهي لا تزال في المرحلة الشرجية، كانت مرغمة على التخلي عن طريققتها في الرؤية كلها، عن إنشاءاتها، وتصوراتها للواقع ذات طابع نظري وفردى أناني.

إن هذه التخليات والتنازلات تعني، بالنسبة إلى الفرد، القبول باختفاء إحساس وماضٍ شكّلاً جزءاً من ذاته كحياة لها أفراحها وأحزانها ومحبتها وكرهها. ولهذه التخليات أيضاً صفة محنة خسارة، وتؤدي إلى ردات فعل عاطفية عميقة. ونجد الأمر نفسه مع الذات الجماعية التي تأخذ هذه التخليات والتحويلات بالنسبة إليها صفة ثورات حقيقية. وسيتم عبرها التحام النوى المختلفة لتطور الذات الجماعية. كيف يمكن أن يظهر ذلك بالنسبة إلى جماعة ما؟

إننا نعرف كل هذه العهود من الهيجان الشعبي الذي يدعى ثورة. . حرب

دينية حرب مدنية . . إلخ . وهي تتميز بظهور أزمات اجتماعية تقوم خلالها الجماعة بتغيير نظامها الحكومي والاجتماعي ، إلى حد كبير ، من الحالة التي كان عليها قبل بروز هذه الأزمات . وتسير هذه التغيرات في الاتجاه ، غالباً ، بشكل متوازٍ مع التخلي عن بعض التقاليد التي كانت حتى ذلك الحين مقدسة إلى حد ما ، وعن معتقدات دينية كان من الممنوع الشك فيها . ونجد بشكل عام أن معظم ممثلي هذه التقاليد قد تمت التضحية بهم ، إما بحملهم على الاختفاء ، وإما بتجريدهم من سطوتهم ومن مسؤولياتهم ومراكزهم . وتسبب هذه السيورة اضطرابات خطيرة ، ولاسيما أن إلغاء حلقات المجتمع كلها لا يمكن أن يتم دون إراقة دم تحدثها الحروب الأهلية التي تستتبعها هذه السيورة . إن هذه الثورات ، هذه النضالات ، هذه التدميريات يقوم بها الرجال ، الناطقون بلسان الميول الجديدة التي تولد في الجماعة . ولهؤلاء الرجال قدر خاص سيتوجب علينا دراسته بتمعن . أما الآن ، فلنؤكد ببساطة أنهم يستقلون برأيهم ويتحررون من التقاليد ، ويسيرون في اتجاهات جديدة ولا ينجحون بشكل عام في مهمتهم دون إفشال شخصية متعددة . فلا يمكن أن يكون من المصادفة أن قيصر سيزار^(١) وأنطونيوس^(٢) قد قتلا وأن أغسطس^(٣) وحده استطاع إكمال إعادة تنظيم الإمبراطورية الرومانية على أسس جديدة . وتلك أيضاً حال الرجال الذين سعوا إلى الحلول مكان ملوك فرنسا . والكل يعرف المصير الذي لاقاه روبسبير وغيره . ولم يستطع رئيس الجمهورية الفرنسية ، إلا

-
- (١) يوليوس قيصر (١٠١ - ٤٤ ق.م) ديكتاتور روماني قام بفتوحات عظيمة . أسس في روما الحكومة الملكية وقتل من أجل ذلك . وبالإضافة إلى ذلك هو كاتب عظيم .
(٢) ماركوس أنطونيوس (٣٨٣ - ٣٠ ق.م) من ضباط يوليوس قيصر وأحد الحكام الثلاثة الذين حكموا روما . هو الذي غلب بروتوس وكاسيوس واشتهر في التاريخ بحبه لكليوباترة . تغلب عليه أوكتافيوس في معركة أكتيوم . ثم انتحر في ما بعد .
(٢) أغسطس (٦٣ ق.م - ١٤ م) إمبراطور روماني وهو نفسه أوكتافيوس قاهر أنطونيوس في أكتيوم . تسلم السلطات جميعاً بعد هذه المعركة . وعصره عصر لامع في تاريخ الحضارة الرومانية خلده الشعراء فرجيل وأوفيد وسالوست .

بعد عام ١٨٧٠، احتلال مكانه، دون الكثير من المخاطر الشخصية التي تعرض لها قبل الثورة الفرنسية ذاك الذي وجّه مصير فرنسا.

لقد رأينا كيف أن الذات الخارقة، أي تقاليد الماضي الفاعلة في اللاشعور، قادرة، في بعض الأحوال، على معارضة نمو الأفراد والجماعات ومقاومته. فكلما وجدت هذه الحالة، تجد ذات الأفراد نفسها في مشاجرة وخصام مع شعور بالذنب كامن تقريباً، وقادر على شل كل المبادرات الفردية والجماعية. وحينئذ يكون الفرد مجبراً على إنفاق كمية من طاقته كبيرة غالباً لكي يقاوم الإزعاج الذي يثيره في وجه نشاطه وحيويته الشعور بالذنب. إنه يستطيع الاحتماء بوساطة الآلام التي يستدعيها لإضعاف الشعور بالذنب بوساطة التوبة. وفي حالات أخرى، يسقط ثقله على بريء، ويستنجد بكبش المحرقة، أو بحمل التضحيات الدينية، أو حتى بضحايا بشرية يجعلها تدفع ثمن شعوره الذاتي بالذنب، الذي يضعف بوساطة تضحية الآخرين. فنحن نتكلم إذن على أولية الدفاع الذهاني للذات ضد إحساس لاشعوري بالذنب.

إن هذه الأولوية في الدفاع تنطوي، بالنسبة إلى الفرد، على ضرورة إيجاد ضحايا واضطهادهم. فبحسب قوة الشعور بالذنب، يقوم حينئذ وتقريباً بدور المضطهد أو الظالم. وتتيح الأولوية نفسها للذات إسقاط القلق، الذي قد يثيره فيه الذنب، على الضحايا. وللايفلات من الهلع الداخلي الناجم عن هذا الشعور بالذنب، يرغب هؤلاء الأشخاص محيطهم وبيئتهم، وبهذا الشكل فقط يتوصلون إلى أن يواجهوا، من دون اضطرابات خطيرة، درجة غير عادية من الذنب، وينقذوا قدرتهم على الفعل التي ستكون، إن اعتمدوا طريقة أخرى، سائرة نحو الفشل. وعندما تثير الثورات في الجماهير الشعور بالذنب الذي يسببه نضال الذات الجماعية ضد التقاليد، أي ضد الذات الخارقة الجماعية. وحدهم الأشخاص المسلّحون بشكل خاص لمواجهة هذا الإثم ولإنقاذ قدرتهم على الفعل، يستطيعون القيام بدور الرؤساء. وكذلك بهؤلاء تستنجد الجماعة في تلك الأحوال. فهي تختار كرئيس أو كمنقذين رجالاً قادرين على

إضعاف الإثم الجماعي بوساطة آلامهم الشخصية، أو بالأحرى الذهانية مثل روبسبير^(١)، رجالاً مشهورين صلبين وحيويين، قادرين على إبطال الإثم الجماعي بالتضحية بضحايا، ففي هذه العهود، نرى إذاً أشخاصاً ينبثقون من قلب الجماعة ويعرضون أنفسهم، من جهة، لغضب الإثم لتهدئته بفشلهم الشخصي. ومن جهة أخرى يتيحون للجماعة تقديم ضحايا لإنقاذ نفسها. وبفضلهم، يُبعد الإثم من وسط الجماعة كسم قاتل ولا يعود باستطاعته معارضة ومقاومة عمل التجديد والتعديل اللذين تمثلهما كل ثورة ناجحة.

هذا مثال نموذجي يسمح لنا بأن نفهم كيف يستطيع الفشل الفردي أن يفيد في ولادة جماعية جديدة، أن يكتسب من جراء هذا الفعل، في نظر الأجيال المقبلة، معنى فعل سام. ويسمح لنا هذا المثال أيضاً أن نفهم مقدار الفائدة التي تحصل عليها الذات الفردية من أعضاء الجماعة الذين يصبحون بذاتهم الجماعية، المستفيدين من التضحيات التي يرضى الزعماء بالقيام بها لتكوين الذات الجماعية. وعديدون هم العلماء والفلاسفة والمرشدون الروحانيون للجماعة، الذين كانوا مخلصين فادين حملوا القهر من أجلنا.

(١) مكسيميليان دو روبسبير (١٧٥٨ - ١٧٩٤) محام وإصلاحي فرنسي. أحد كبار رجال الثورة الفرنسية وقادة الحكومة الثورية. لُقّب بالنزيه العفيف، أبعد بعض أجنحة الثورة التي استطاعت الانقلاب عليه في ما بعد وإعدامه على المقصلة.

الجماعات الثورية وأعراض الفشل

مهما كان رأينا في الثورات من وجهة نظر فلسفية أو أخلاقية أو دينية فإن من الثابت أن الثورات من وجهة نظرنا تبدو كضرورات محتومة كلما قامت العادات الإدارية والفكرية لجماعة ما بمخالفة الميول العاطفية والمعطيات الاقتصادية التي تحدد تطورها. فمثل بعض ثياب الأطفال التي تضيق عليهم ذات يوم، قد تكفّ العادات الفكرية والإدارية، يوماً، عن ملء وظائفها. وهذه الوظائف لسوء الحظ أكثر صعوبة في التغيير من الثياب. فمع الممارسة تصبح هذه العادات في نهاية المطاف جزءاً من الأشخاص مثل جلدهم تماماً. ففي جماعة ما، يمثلها عادة أشخاص متقلدون سلطات ومتمتعون بحقوق، ويمنحهم المجتمع امتيازات لكي يجعلهم مؤهلين لتوجيه الإدارة وطريقة التفكير في البلد. وبعبارة أخرى، إن هؤلاء الأفراد يمثلون مبدئياً نخبة نظام ثابت بقوة. وينضم إلى هؤلاء في فترة التوازن رؤساء طبقات المجتمع، إما بأن يكونوا حاملين شحنات وراثية، وإما أن مهنهم تؤمن لهم تقدماً بالتفضيل أو بالأقدمية. فعدد من الأشخاص الراغبين في النجاح، يسعون إذاً إلى أن يكونوا في عداد هذه النخبة الإدارية والاجتماعية ليستفيدوا من هذه الامتيازات. ويصلون إلى ذلك بتحصيل طريقة خاصة في الرؤية، في التفكير، في التصرف والفعل تسمى امتثالية أو توافقية. وما يميزها هو أنها لا تبتعد في شيء عما هو معلّم أو مقبول أو محتمل رسمياً. فموظفو ملكية ما، مثلاً، سيكونون متضامنين مع نظام يجعل من المُلْك مؤسسة نظامية أرادها الله، وكل واحد منهم سيتصرف كممثل للملك، سيطالب بأمجاد مشابهة تقريباً. وتجري الأمور بالطريقة نفسها مع

أولئك الذين سيتوجب عليهم القيام بمسؤولية تنظيم طريقة تفكير الأفراد .
فيكون رجال الدين المدافعين عن المعتقدات الدينية «المفروضة» من قبل الله
وسيعتبرون كممثلين مؤهلين لصون هذه المعتقدات إلى حد ما .

وما يميز هؤلاء الممثلين لنظام اجتماعي هو كفاءتهم في الخضوع للنظام
القائم والدفاع عنه كأنه ثابت ، إما محبة له وإما لأن مصلحتهم المفهومة جيداً
تأمرهم بذلك . وتوجد هذه الطريقة في الرؤية وفي التفكير ، بشكل خاص ،
لدى الأفراد المؤمنين والمتعلقين بالدين بإخلاص . وهذه الخاصية الغالبة
للميول العاطفية هي التي تحدد تعلقهم بالتقاليد وميلهم إلى التسلط .

إن هذا الأمر يوضح لنا ، في مرحلة من التوازن الاجتماعي ، كيف تسمح
طريقة خاصة في الرؤية والتفكير لفئة كاملة من الأشخاص بالنجاح . أما في
مقاومة هذه التقاليد ، فإن هذه العقلية قد تصبح مصدراً للفشل بالنسبة اليهم بقدر
ما تأخذ ردة الفعل طابع الثورة ، مع حلول نظام اجتماعي جديد . وعلى العكس
من ذلك ، نجد أن بعض الأشخاص الذين جعلتهم عقليتهم يفشلون في مرحلة
التوازن والاستقرار ، يستطيعون في مرحلة الثورة التوصل إلى النجاح ، هم
بدورهم ، بتأمين انتصار الميول الجديدة التي يمثلونها والتي قادتها الجماعة إلى
الفشل قبل تدخلهم .

إننا نرغب الآن في دراسة هذه السيرة فضلاً عن نتائجها على المستوى
الفردى كما على المستوى الاجتماعي . فالأسباب التي تحدد إقلاع الجماهير
عن التعلق بالتقاليد السائدة متعددة . إن المدافعين عن التقاليد يستطيعون
التهاون في سهرهم وتيقظهم ، وبمقتضى سيروية التقدم في السن يصبحون غير
مؤهلين لفرض أنفسهم قسراً . وقد تتعب الجماعة وتملّ من بعض التقاليد التي
لم تعد تتلاءم مع ميول الطبقات الجماهيرية . فبعض الكوارث ، كالحروب
مثلاً ، يمكنها أن تظهر عدم كفاية النظام وتوجه ضده قوى الأمة الحيوية كلها .
ولكن مهما كانت هذه الأسباب ، فإنها تؤدي عادة إلى عدوانية ، إلى كره ، كامن
أولاً ، ثم ظاهر أكثر من قبل أفراد الجماعة ضد التقاليد السائدة . ويطلق وجود
هذه العدوانية ، بدءاً من بعض حدود التساهل ، السيرة الثورية .

إن السيرة الثورية تنطوي على طرح تدريجي تقوم به جماهير الشعب وموجهوه للتقاليد التي يمثلها النظام ويدافع عنها، وبموازرة هذا الطرح تولد تصورات جديدة وتتوصل، بعد مرحلة من النضالات والأبحاث المترددة المتلمسة، إلى فرض نفسها على جماعة بمقدار ما تتجاوب مع حاجة حقيقية. فهذه السيرة إذاً عاطفية بشكل عميق، وتفسح في أغلب الأحيان في المجال لنمو نظام جديد بأفكار جديدة رئيسة تحل بعد تحويلها إلى قوانين، محل التقاليد القديمة، وتصبح هي بدورها، مع الزمن، تقاليد شرعية. إن الانتقال من نظام إلى نظام آخر يميز الثورة التي تمثل السيرة الانتقالية بين النظامين، القديم والجديد. وخلال مرحلة الانتقال هذه، التي قد تكون طويلة إلى هذا الحد أو ذاك، تكون حياة جماعية مضطربة. وتبلغ هذه الاضطرابات ذروتها عندما يصبح ممثلو النظام القائم، وإلى حد كبير، فاقد الثقة ومجردين من سلطتهم، في حين أن ممثلي النظام الجديد لم يظهروا بعد كقادرين على الحلول مكانهم وممارسة وظائفهم. وتتميز هذه الاضطرابات بالصراعات والنضالات والبلبلات على الصعيد الأخلاقي للأفكار، وفي أغلب الأحيان، تتسم بالحرب الأهلية بين الممثلين المختلفين للنظام القديم والأنظمة الجديدة التي تتنازع على الساحة.

ولا يفرض نظام جديد نفسه عادة إلا إذا مثله رئيس قادر على نشر أفكاره طوعاً أو قسراً. فليس ثورياً من يريد فقط، والإرادة وحدها لا تكفي. ومثل هذا الرئيس أو الزعيم يبدو خائناً بالنسبة إلى كل أولئك الذين يمثلون أفكار النظام التقليدي، وبالتالي لن ينضم إلى العقول الاقتتالية لهذا النظام، بل سيجد نفسه أكبر في أوساط المعارضة، وسيتوجب عليه أن يكون مسلحاً بشكل خاص معنوياً ليتغلب على الصعوبات التي يجب أن يواجهها.

وهذه الصعوبات من درجات وأنساق متعددة:

١ - إن امتثالية النخبة والجماهير المعتادة على نظام ما تنشئ قوة كبيرة سلبية ينبغي التغلب عليها.

٢ - إن ضرورة الدخول في مواجهة مع التقاليد المعتبرة مقدسة، تكون شعوراً كبيراً بالإثم والشك عند الزعيم الثوري وعند الجماهير على حد سواء.

٣ - إن موهبة التجديد والابتكار دون دعم نخبة ما أو نظام ضرورية ولا توجد إلا عند القليل من الأشخاص، المعتادين على الحياة خارج الأطر المتعارف عليها وحتى في مواجهة معها.

٤ - إن ضرورة التضحية بتقاليد تتضمن غالباً ضرورة التضحية بالرجال الذين يمثلونها، مهما كانت قيمتهم الفردية. ووحدهم الرجال القادرون على القيام بنضالات استثنائية نادرة، وعلى امتلاك عدوانية خاصة مؤهلون لهذه المهمة. إن شخصية الزعيم الثوري، كما قلنا سابقاً، بعيدة بالضرورة عما يمكن اعتباره جزءاً من القاعدة أو القانون. وينبغي أن يتحلى بقابلية خاصة وكفاءة في تحسس تحركات الجماهير وفي التجاوب مع حاجاتها، لكن القدرة على إظهار فصاحة عادية تقريباً لا توجد ولا تقوم دون قدرة محترمة على اقتراح الجديد والإشارة إليه. وهكذا نفهم إلى أي حد يكون الأشخاص القادرون على حمل مثال ثوري إلى النصر استثنائيين ونادرين، وكم يكون من الصعب عليهم النجاح دون مؤازرة من المصادفات الملائمة.

إن معرفة التحليل النفسي تسهل مهمتهم إلى حد كبير، بمساعدتهم على إيجاد طريقهم بثقة أكبر وبإنقااص المعاناة التي تسببها ضرورة مواجهة الشعور بالذنب الفردي والجماعي، المؤثر بشكل خاص. وتسمح هذه المعرفة أيضاً بتحديد الحاجات المتناقضة ظاهرياً للطبقة الثورية والتجاوب معها بقدر ما تكون هذه الحاجات ضرورية، لتقدم السيورة النفسانية والأخلاقية المؤدية إلى خلق نظام جديد.

ومن هذه الحاجات ما يمكنه أن يفاجيء أي شخص غير معتاد على هذه المظاهر للواقع البشري. ولكي نفهم هذا جيداً ينبغي أن ندرك حقيقة الصعوبة التي تقوم ما بين جماهير في حالة توازن واستقرار اجتماعيين وجماهير في حالة غليان وهيجان. فالتبقة الثورية مؤلفة عادة من مجموعة من الأفراد الذين خرج نموهم الاجتماعي أو ظروفهم على أطرهم العادية التي أصبحت ضيقة جداً ولم تعد تتجاوب وتتلاءم مع ضروريات العصر. والأفراد المحرومون من دعم بيئاتهم يكونون غالباً من جراء ذلك مهددين في وظائفهم وفي وجودهم، دون

تعلّق كافٍ بفكرة دينية، وبتقاليد أو بتنظيم اجتماعي، ويجدون أنفسهم في حالة من اللاتوازن العاطفي العميق والمميز بـ:

١ - القلق .

٢ - شعور بالذنب ناجم عن تحررهم من الأطر القائمة .

٣ - عدوانية خاصة تسببها الحاجة إلى إسقاط إثمهم وقلقهم على الآخرين على طريقة الأواليّة النفسانية المميزة للذهانيين والادعائيين .

وينجم عن ذلك أن هذه الطبقة، على العكس من الطبقة المتوازنة المستقرة، تحركها قساوة كبيرة توجه الأفراد بعضهم ضد بعض، وتدفعهم إلى نشر الرعب لكي يسقطوا على الضحايا ثقل رعبهم الشخصي . والزعيم وحده قادر على فهم هذه الحاجات، وبقيامه بالاهتمام بها وحسب حسابها يستطيع فرض نفسه على طبقة مماثلة وقيادتها، فالتفكير العقلي وحده عاجز عن مواجهة اضطرابات عاطفية من هذا النوع .

إن العُصاب هو الذي سلّح الزعيم غالباً ليتيح له السيطرة على جمهور هائج . وهناك أنواع من العُصاب يتوجب على منطقها الانتصار، إذا لم يكن هذا المنطق راغباً في الغرق في هاوية اللاشعور . فالرجل الذي توصّل دون مساعدة أخرى غير قواه الشخصية، إلى السيطرة على ظلمات روحه يكتسب كفاءة خاصة لمواجهة ظلمات الروح الجماعية . وإن الأواليات النفسانية التي يلجأ إليها للتأثير في جماعة هي الأواليات التي سمحت له بتهدئة إحساسه الخاص المضطرب والمجروح .

إذاً إن النضال ضد العُصاب، بفشله وخيباته هو الذي سيكون قادراً على تحديد هذه الكفاءات الخاصة التي نتعرف إليها عند العبقرى الذي يحتفظ غالباً جداً بآثار الجروح التي أصيب بها في هذا النضال ضد لاشعوره الشخصي . وهكذا تكون عبقرية الزعيم الثوري ثمرة بعض أنواع الفشل العاطفي التي سيسعى الرجل المهدد في كماله الروحي وفي منطقته، إلى انتصارها وإعلاء شأنها بكل الوسائل . فالكثير من الأشخاص، مثل روبسبير مثلاً، المحقّقين من

أجل لاتوازنهم ومن أجل الرعب الذي نشره في الجماعة الثورية، كانوا، بطريقة ما، المنقذين. فالحاجات العاطفية لهذا الجمهور التي ليس لديها أي قاسم مشترك مع حاجات الجمهور العادي، تستلزم علاجاً استثنائياً.

إن الأوليات النفسانية التي تحتاج إليها الطبقة الثورية هي الأوليات التي يستخدمها الفرد للسيطرة على لاشعوره الشخصي. وقد آن الأوان للتكلم على هذه الأوليات بكل موضوعية لنتيح للزعماء الانتفاع بها عند الاقتضاء، لكن الموضوع سيتجاوز كثيراً نطاق هذا الكتاب. فلنكتف ببساطة بالتأكيد أنه من المستحيل تقدير القيمة الحقيقية لبعض الشخصيات الثورية، ومعنى حياتهم وأفعالهم وتضحياتهم التي تظهر غالباً بشكل فشل فردي وأحياناً اجتماعي، إذا لم نأخذ بعين الاعتبار بعض مظاهر هذه المسألة التي حاولنا أن نجعلها سهلة الإدراك من قبل قارئنا العزيز. إذ إن تاريخ الرجال والمؤسسات الاجتماعية كتاريخ ما لن يصبح علماً حقيقياً إلا انطلاقاً من اللحظة التي تفهم فيها السيرورات النفسانية التي هي التاج الذي لا مفر منه.

جان جاك روسو^(١) والفشل

نُشرت منذ عدة أعوام دراسة عن جان - جاك روسو تستحق أن تحتل مكاناً في هذا العمل الذي يبحث في الفشل من زاوية علم النفس المَرَضِي . فمنذ ذلك الحين كبر ميدان علمنا، وشهد مفهوم الذات الخارقة تطوراً كبيراً . إذاً نحن الآن مسلّحون بشكل أفضل للهجوم على هذه الحالة النفسية .

ومع أن هذه المسألة بقيت تقريباً كما طرحت في الدراسات الأولى ، فإن من المناسب أن نضيف إليها بعض التفاصيل . ومن جهة أخرى لن نقوم إلا بمتابعة العمل الذي بدأه جان - جاك روسو نفسه الذي اصطدم غالباً خلال حياته اليومية . بالمسائل نفسها التي اصطدمنا بها والتي حاول فهمها دون التوصل إلى ذلك .

وسنبداً بترك الكلام له : « لقد تأملتُها في كتاب ثالث أدين بفكرته إلى

(١) جان - جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) كان شاباً سقيماً ضعيف البنية . دفعه اعتلال صحته وعدم شعور والديه وأساتذته بالعطف عليه إلى الانطواء على نفسه والابتعاد عن الحياة العملية إلى حياة الفكر والتأمل . لقد هرب من عالم الحقيقة إلى عالم الأحلام ، حيث يعرض عليه الخيال ما حرّمته الحياة من حب وعطف وصحة . إن اعترافاته تكشف عن مركّب متناقض من العواطف والمشاعر تنطوي على الأمانة والكرامة والشرف . وخلاصة ما جاء به روسو هو أنه بالرغم من أن العقل يتجه اتجاهاً معادياً للمشاعر والأحاسيس المختلفة فإن الشعور يؤيدها تأييداً كبيراً ، فلماذا لا ننق إذاً بشعورنا الفطري .

ملاحظات قمت بها على ذاتي، وقد شعرت كذلك بشجاعة أكبر للشروع فيه إلى درجة أنني آمل أن أكتب كتاباً مفيداً حقاً للبشر، بل أحد أهم الكتب التي يمكن تقديمها اليهم وأكثرها فائدة، إذا كان إنجازهم يتلاءم كما ينبغي مع الخطة التي رسمتها لنفسني. فقد لوحظ أن معظم الناس مختلفون عن ذواتهم، غالباً، خلال حياتهم، كما يبدو أنهم يتحولون إلى أناس مختلفين تماماً. ولم يكن هدفي من هذا الكتاب إقامة شيء معروف، بل كان لدي هدف أكثر جدة وحتى أكثر أهمية: إنه البحث عن أسباب هذه التغيرات، والتعلق بالتغيرات المتعلقة بنا، لكي نوضح كم أنها تستطيع أن تكون موجهة من قبلنا نحن أنفسنا لكي نجعلنا في حال أفضل وأكثر ثقة بأنفسنا، لأن مقاومة الرغبات التي تشكلت سابقاً والتي ينبغي التغلب عليها أكثر صعوبة بكل تأكيد على الإنسان الشريف من تدارك أو تغيير أو تعديل هذه الرغبات نفسها في منبعها، إذا كان في حالة تجاوزها: إذ يقاوم الرجل المجرب مرة لأنه قوي، ويستسلم مرة أخرى لأنه ضعيف، ولو كان كما في السابق لما استسلم.

فبتفحص ذاتي، وفي البحث في الآخرين عما تتوقف عليه طرق الوجود المتنوعة هذه، وجدت أنها تتعلق، إلى حد كبير، بالانطباع السابق للأشياء الخارجية، ولأنها تتغير باستمرار بوساطة حواسنا وأعضائنا، نحمل دون أن ندرك ذلك، في أفكارنا وفي مشاعرنا وفي أفعالنا نفسها نتيجة هذه التغيرات. والملاحظات العديدة والمذهلة التي جمعتها كانت فوق أي جدال، وهي تبدو لي من خلال مبادئها الفيزيائية جديرة بإقامة نظام خارجي يستطيع بتنوعه وفق الظروف والأحوال وضع الروح أو المحافظة عليها في الحالة الأكثر ملاءمة للفضيلة. فكم من الانحرافات تُصحح بالمنطق، كم من العيوب ستمنع من الظهور إذا عرفنا كيف نرغم التدبير الحيواني على تفضيل النسق الأخلاقي الذي يعكسه غالباً؛ فالمناخات والفصول والأصوات والألوان والظلمة، الضوء والعناصر والأغذية والضجة والصمت والحركة والراحة كلها تؤثر في آلتنا وفي روحنا، وبالنسبة، كلها تقدم لنا ألف مغنم أكيد تقريباً لكي نُحكم في أصلها المشاعر التي سمعنا بسيطرتها. هذه كانت الفكرة الأساسية.

لقد عملت مع ذلك قليلاً جداً على هذا الكتاب الذي كان عنوانه: «علم الأخلاق الحسية أو مادية الحكيم».

إن تعديل الرغبات أو النزاعات في مصدرها إذا كان الرجل قادراً على التغلب عليها، هو أمنية روسو الذي أذهله تنافر حياته التي جرت، لأسباب غير مفهومة ظاهرياً، في اتجاه مختلف تماماً عن الاتجاه الطبيعي الذي رغب في الالتزام به.

فما هي هذه القوة التي أحس بأنه ألعوبة بين يديها والتي كانت تجعل منه كما جعلت من فرلين كذلك «ورقة ميتة... تحملها... الريح السيئة».

فما هي حياته ونزاعاته؟ لقد تكلم عليها بحرّية كبيرة في كتابه اعترافات، محققاً، تجاه صعوباته النفسية الشخصية، درجة من الموضوعية النادرة في عصره. لكن روسو يريد تفسير ذاته؛ ولا ينبغي دائماً الأخذ من الرسالة كل ما تقول. فعلى العموم، عندما يصف نزاعاته والمظاهر الخارجية لأزماته النفسية، يمكن الوثوق به، لأن جدولته العيادي يتوافق مع ما أتاح التحليل النفسي لنا اكتشافه بخصوص علم الأعراض المرضية لهذه الحالات. فماذا يقول عن حياته الجنسية؟

«كما أن الأنسة لامبرسيه تحفظ لنا حنان أم وعاطفتها، فإنها تمتلك أيضاً السلطة، وتصل بها أحياناً إلى حد أنها تفرض علينا عقاب الأطفال عندما نستحق ذلك. وقد اكتفت لمدة طويلة نسبياً بالتهديد، وهذا التهديد بالعقاب الجديد كلياً بالنسبة إليّ كان يبدو لي مرعباً جداً. ولكن بعد تنفيذه وجدته أقل إرعاباً من انتظاره؛ والأكثر غرابة فيه هو أن هذا العقاب أعجبني أكثر من تلك التي فرضته علي. واحتجت إلى كل حقيقة هذا الحنان وكل لطفي الطبيعي لكي أمنع نفسي من السعي إلى العودة إلى العلاج نفسه عبر استحقاقه، لأنني وجدت في الألم، في العار نفسه، خليطاً من الملذات الحسية تركت لديّ الرغبة فيه أكثر من الخوف من معاناته مجدداً بواسطة اليد نفسها. ومن الصحيح أن العقاب نفسه الذي نلت من أخيه، بما أن هذا الأمر يختلط بلا شك مع غريزة ما جنسية مبكرة، لم يبدو لي أبداً ممتعاً. لكن، من جراء طبعه الذي كان

عليه، فإن هذا الاستبدال لم يكن يخشاه إلا نادراً؛ وإذا كفت عن استحقاق التأديب، فذلك فقط خوفاً من اغضاب الأنسة لامبرسيه: لأن هذا كان في نفسي سيطرة للعطف، وحتى السيطرة التي ولّدتها الحواس التي أعطتها دائماً السيادة على قلبي...

فمن كان يعتقد أن هذا العقاب الطفولي الذي نلته في عمر الثماني سنوات على يد فتاة في الثلاثين، قد أثر في ميولي ورغباتي وأهوائي وفي ذاتي طوال حياتي، وهذا الأمر جرى بالتحديد في الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي كان ينبغي عليّ سلوكه بشكل طبيعي؟ وفي الوقت نفسه الذي التهب فيه حواسي، والتمست رغباتي التغيير بشكل كبير، وهي إذ انحصرت بما كنت أعانيه، لم تتجراً أبداً على البحث عن شيء آخر. فبدم ملتهب بالملذات الحسية منذ ولادتي تقريباً، حافظت على نفسي نقياً من كل قذارة حتى العمر الذي تتطور فيه. وأنا إذ تعذبت طويلاً دون أن أعرف ممّا أتألم، كنت أحدّق بنظرة حادة بالأشخاص الجميلين، وكانت مخيلتي تذكّرني بهم باستمرار، ولكي أستخدمهم على طريقتي وهواي، وأتصرف بهم مثل الأنسة لامبرسيه.

وحتى بعد سن الرشد، حافظ لي هذا الميل العجيب، الثابت أبداً الذي يصل إلى حد الانحلال، إلى حد الجنون، على العادات الشريفة التي بدا لي أن من الواجب عليّ انتزاعها من ذاتي، وإذا ما كان هذا التهذيب متواضعاً وعفيفاً، فذلك قطعاً التهذيب الذي تعرضت له. إذ لم تكن عمّاتي الثلاث نساء ذوات حكمة نموذجية فقط، بل ذوات تحفّظ لم يعد النساء يعرفنه منذ زمن بعيد. وأبي، رجل لذة، ولكنه إذ أصبح ظريفاً على الطريقة القديمة، لم يتحدث أبداً أمام النساء اللواتي أحبهن أكثر من غيرهن بالفاظ يمكن أن تحمّر الفتاة العذراء خجلاً منها، ولم يفقد أبداً في عائلتي وأمامي الاحترام المتوجب للأطفال. ولم أجد انتباهاً وتمعّناً أقل عند الأنسة لامبرسيه حول هذه النقطة نفسها، وقد طردت خادمة جيدة وقوية لتلفظها بكلمة بذيئة أمامنا. وليس الأمر أنني لم أمتلك فقط حتى مراهقتي أية فكرة واضحة عن اجتماع الجنسين واتحادهما، بل إن هذه

الفكرة المبهمة لم تقدم اليّ أبداً إلا بصورة كريهة ومقرفة . فكنت أمتلك تجاه الفتيات اللعوبات كرهاً لم يُمحَ أبداً . ولم أكن أستطيع رؤية فاسق دون احتقار، وحتى دون هلع : لأن نفوري من الفسق كان يصل حتى ذلك الحد، منذ أن ذهبت يوماً إلى إحدى القرى عبر طريق متعرجة في الحقول، وشاهدت على الجانبين أمكنة في الأرض، قيل لي إن هؤلاء الأشخاص يجتمعون فيها . وما كنت أسمعه من كلام هؤلاء كان يعاودني كذلك دائماً في ذهني أثناء تفكيري في الآخرين، وكان القلب يثيرني عند هذه الذكرى وحدها .

إن هذه الآراء المسبقة التربوية، الجديرة بذاتها أن تؤخر وتعيق التفجرات الأولى للمزاج الملتهب، قد ساعدتها، كما قلت سابقاً، التحولات التي أجرتها في ذاتي اللذعات الأولى للنزعة الحسية للذة . ولا ينبغي التخيل أن هذا هو ما كنت أشعر به، رغم غليان الدم المتعب جداً، فلم أكن أحسن حمل رغباتي إلا نحو نوع اللذة التي كنت أعرفها، دون الذهاب أبداً إلى تلك اللذة التي جعلت كريهة بالنسبة إلي، والتي تتعلق عن قرب بالآخر دون أن يراودني أدنى شك في ذلك . ففي نزواتي الحمقاء، وفي اندفاعاتي الشهوانية، وفي الأفعال الغريبة التي كانت تحمّلني إليها أحياناً، كنت أتلقي بشكل خيالي النجدة من الجنس الآخر، دون التفكير أبداً أنها غير صالحة لأي استعمال آخر غير الاستعمال الذي أتحرق للخروج منه .

وهكذا، إذاً، لم أُمضِ بمزاج حاد جداً وشهواني جداً ومبكر جداً عمر المراهقة دون الرغبة ودون معرفة ملذات حسية أخرى مختلفة عن تلك التي أعطتني الأنسة لامبرسيه ببراءة كبيرة فكرة عنها، بل في نهاية المطاف، عندما جعل مني تقدم السنوات رجلاً، ما كان ينبغي أن يتركني ليحافظ علي . فميلي الطفولي القديم، بدلاً من التلاشي، اتحد إلى حد كبير مع الميل الآخر الذي لم أستطع أبداً إبعاده عن الرغبات التي أضرمتها حواسي، وقد جعلني دائماً هذا الجنون المنضّم إلى خجلي الطبيعي قليل القدرة على التغزل أمام النساء، وفاقداً الجرأة على قول كل شيء أو القدرة على القيام بكل شيء، فنوع

المتعة التي لم يكن الآخر، بالنسبة إلي، إلا حدها الأخير، لم يكن قادراً على أن يكون مغتصباً من قبل ذلك الذي يرغب فيها، ولا متوقفاً من تلك التي تستطيع منحها.

وهكذا أمضيت حياتي في الاشتهااء والخرس بالقرب من الأشخاص الذين أحببتهم أكبر حب. وأنا إذ لا أجزؤ أبداً على إعلان رأيي، كنت أعلّله على الأقل بالعلاقات التي حافظت لنفسي على فكرة عنها، بأن أكون راکعاً قرب عشيقة متصلة مطيعاً وأمرها، سائلاً إياها الصفح والمغفرة. كل هذه الأمور كانت بالنسبة إلي مُتعة لطيفة جداً، وكلما أجبت مخيلتي الحية دمي، ظهرت كحبيب مرتعد. ولا شك في أن هذه الطريقة في ممارسة الحب لا تؤدي إلى تقدم سريع جداً، وليست خطيرة جداً على فضيلة الفتيات اللواتي كنّ موضوعها ومادتها. إذا كنت مكبوحاً قليلاً، ولكنني لم أكف عن التمتع كثيراً على طريقي، أي بوساطة المخيلة.

وهكذا قامت حواسي المتوافقة مع مزاجي الخجولي وذهنِي الحالم بالاحتفاظ لي بمشاعر نقية وأخلاق شريفة، بوساطة الميول نفسها التي كانت ستغرقني وربما مع قليل من السفه في ملذات عنيفة.

ها نحن إذاً واثقون من أن روسو لم يكن يصل إلى الإنعاض إلا بشرط الشعور بالضرب على يد شخص مثل الأنسة لامبرسيه. ولكن لا ينبغي الاعتقاد أن هذه الحياة الجنسية الخاصة والاستثنائية قد اكتفت بإشباع خيالية، كما يؤكد، فقد عرف كيف يحصل لنفسه على الإشباع الحقيقي فعلاً بالشعور بأنه مهان بألف طريقة وطريقة، وقد استخدم حججاً لا تعد ولا تحصى للوصول إلى هذه المتعة. وهذا ما يرويه لنا، في كتابه اعترافات، عن موضوع نزعتة الاستعرائية:

«لقد تضخم احتياجي إلى حد أنني إذا لم أعد قادراً على إرضاء رغباتي، أجبتها بوساطة الطرق الأكثر غرابة وشذوذاً. فكنت أفتش عن ممرات معتمة، وخلوات منفردة خفية أستطيع أن أعرض نفسي فيها من بعيد لأفراد الجنس

الآخر، في الحالة التي أرغب في أن أكون فيها بالقرب منهن . وما كن يرينه لم يكن الشيء الفاحش، إذ لم أكن أفكر في ذلك، بل كان الشيء المضحك . فاللذة الحمقاء التي كانت لدي من جراء كشفه أمام أعينهن لا يمكن وصفها، ولم يكن هناك أكثر من خطوة للشعور بالمعاملة المرغوبة، ولا أشك في أن بعض العزم لم يكن ليعطيني، أثناء مروري إلا التسلية واللهو، لو كان لدي الجراءة على الوقوف بالانتظار .

إذاً، كان روسو يحب أن يعرض على الفتيات ليس «الشيء الفاحش» بل «الشيء المضحك» أي ردفه، للحصول على «المعاملة المرغوبة» واللذة الحمقاء التي كانت لدي من جراء كشفه أمام أعينهن لا يمكن وصفها . أي إن اللذة الحمقاء من جراء إذلال النفس يجعلها مثيرة للسخرية والضحك . ونحن ندين على الأرجح لهذه اللذة الحمقاء في حصولنا على كتابه اعترافات، الذي يعرض بؤسه وجروحه المعنوية للعالم أجمع، وبالحاح غير طبيعي إلى حد ما في ذلك العصر، على هذا النوع من المواضيع . وبفضل هذه «اللذة الحمقاء» أيضاً توجب على فيلسوفنا أن يعرض نفسه للنقد اللاذع من قبل هؤلاء المواطنين الشجعان أنفسهم عندما انفرد جرياً على عادته، بتقديم نفسه إليهم متنكراً بشكل سافر، لكي يتنزه في أزقة القرى السويسرية، وبذلك الشكل لم ينجح فقط في مفاجأة جمهوره وإذماله، بل نجح أيضاً في أن يعرض نفسه للضرب بشدة من قبل ذلك الجمهور . ونذكر في هذا السياق مرض روسو وأفكاره الاضطهادية كما تطورت مع الزمن عندما كان يعتقد أنه هدف لسخرية «عصبة هولباخ»^(١) وغريم^(٢) . وبعض المجاملات والتي استطاع في شبابه استخدامها لتقوية لذته بأن يكون محقراً، وليس بأقل صحة من ذلك أنه مع التقدم في السن بدأ يقاوم هذا الأمر السيئ الذي كان يظهر له كذيلة، وحرّم نفسه كذلك من

(١) بول هنري هولباخ (١٧٢٣ - ١٧٨٩) فيلسوف فرنسي ذو نزعة مادية .

(٢) فريدريك غريم (١٧٢٣ - ١٨٠٧) صحافي ألماني كان صديقاً للموسوعيين الفرنسيين .

إشباع توجب على لاشعوره أن يفتش عنه في مكان آخر، بدءاً من اللحظة التي أراد فيها ممارسة الفضيلة والتصرف في الحب كرجل طبيعي . وبقدر ما استطاع جان - جاك روسو السيطرة على نقاط «ضعفه»، اتخذ مرضه السمات المميزة لجنون الاضطهاد: فكان يشعر أنه مهدد من قبل الدسائس الانتهازية لأعدائه . ولنتذكر أحد المقاطع الأكثر إقناعاً من كتابه المتنزه المتوحد .

«ها أنا، إذاً ، وحيد على الأرض، ليس لي أخ، أو قريب، أو صديق أو مجتمع إلا ذاتي، فالأكثر إلفة والأكثر محبة من البشر حُرِم من ذلك باتفاق إجماعي . لقد بحثوا في حقدهم المفرط عن العذاب الأكثر وحشية لروحي الرقيقة، وحطموا بعنف كل الروابط التي تشدني إليهم . كنت أحب البشر رغماً عنهم، لكنهم لم يستطيعوا، بامتناعهم عن ذلك، التهرب من محبتي . وها هم غرباء، مجهولون، ولا قيمة لهم في النهاية بالنسبة إليّ، لأنهم أرادوا ذلك . ولكنني، إذ أنفصل عنهم وعن كل شيء، ماذا أكون أنا نفسي؟ هذا ما بقي عليّ التفتيش عنه . وهذا البحث لسوء الحظ ينبغي أن يُسبق بنظرة إلى وضعي، هذه هي الفكرة التي ينبغي بالضرورة أن أمر بها للوصول منهم إلى ذاتي .

منذ خمس عشرة سنة ونيف وأنا في هذا الوضع الغريب، وهو يبدو لي أيضاً كحلم . إنني أتخيل دائماً أن عسر هضم يعذبني، وأنني أنام نوماً سيئاً، وأنني سأستيقظ، مرتاحاً جداً من عنائي، بإيجاد نفسي مع أصدقائي . نعم، لا شك أنه ينبغي أن أقوم، دون أن أتبين ذلك، بقفزة من الأرق إلى النوم، أو على الأصح من الحياة إلى الموت . منسحباً، ولا أدري كيف، من نظام الأشياء، وأرى نفسي مستقراً في خواء مبهم، حيث لا أتبين شيئاً أبداً، وكلما فكرت بوضعي الحالي، لم أستطع فهم أين أنا .

وكيف أستطيع التنبؤ بالمصير الذي ينتظرني؟ كيف أستطيع أن أتصور اليوم أنني مستسلم إليه؟ هل أستطيع الافتراض، بعقلي السليم، أنني ذات يوم، أنا، الرجل نفسه الذي كتته، الرجل نفسه الذي أكونه أيضاً، سأنتقل، سأعتبر دون أدنى شك، كوحش، مفسد، قاتل، وأنني سأصبح رعب السلالة البشرية، لعبة السوق الأوباش، وأن الموقف الذي سيقفه مني العابرون سيكون البصق

في وجهي ، وأن جيلاً بكامله سيتسلى باتفاق إجماعي بدفني حياً؟ وعندما ستحدث هذه الثورة الغربية ، وأؤخذ على حين غرة ، سأضطرب من ذلك أولاً ويتبلبل فكري ، وستغرقني اهتجاجاتي ونقمتي في هذيان لن تكفيه عشر سنوات ليهدأ ويسكن ، وفي هذه الأثناء ، إذ أقع من خطإ إلى خطإ ومن هفوة إلى هفوة . ومن حماقة إلى حماقة ، أقدم ، بطيشي وتهوري ، لموجهي قدرتي في الوسائل ما استخدموه بمهارة ليثبتوه نهائياً» .

لقد تمردت ذات روسو كثيراً ضد شهواته الليبيدية ، وأعلن كثيراً الحرب على القوة التي كان أسيراً لها ، ولكنها لم تكف عن السيطرة عليه وعن اضطهاده بشراسة ، ولا سيما أنه كان يحاول الإفلات منها . وإن هذه الحقائق الثلاث : نزعة استعرائية^(١) ، واعترافات وهذيان الاضطهاد تصور المظاهر المختلفة لمرضه ، فما الذي دفعه في هذا الاتجاه الذي كان مخرجه الوحيد هو الجنون؟ ماذا نستطيع أن نعرف عن ذاته الخارقة التي سدّت له بكل شراسة الطريق نحو السعادة البشرية؟ ماذا يقول عن طفولته؟

«ولدت في جنيف في العام ١٧١٢ ، من رجلٍ هو إسحاق روسو . ربة هي سوزان برنارد . وقد تقاسم خمسة عشر ولداً ثروة زهيدة ، فلم يحصل والدي منها إلا على نصيب تافه ، ولم يكن يملك للاستمرار إلا مهنته كساعاتي وكان في الحقيقة بارعاً جداً فيها . أما أمي ، ابنة الوزير برنارد ، فقد كانت أكثر غنى : كانت تملك بعض الحكمة والجمال . ولم يتزوجها أبي بسهولة . وقد بدأ حبهما تقريباً مع بداية حياتهما . فمن عمر الثماني أو التسع سنوات لم يكن بمقدورهما الافتراق . فالتعاطف وتوافق الأرواح ، رسّخا فيهما الشعور الذي خلّقه العادة . وهما الاثنان ، إذ ولدا حنونين ورقيقين ، لم يكونا ينتظران إلا لحظة العثور عند الآخر على الحالة نفسها ، أو على الأصح ، كانت هذه اللحظة تنتظرهما معاً ، وكل واحد منهما فتح قلبه للآخر . وحتى القدر الذي بدا أنه يعارض أهواءهما

(١) النزعة الاستعرائية نزعة مرضية إلى تعرية العورة .

لم يقم إلا بتأجيلها. فالشباب العاشق تلف من الألم لأنه لم يستطع الحصول على حبيبته، وقد نصحته هذه الأخيرة بالسفر كي ينساها. فسافر ولكن عبثاً، فقد عاد أكثر عشقاً من ذي قبل. ووجد الفتاة التي يحبها حنونة ووفية. وبعد هذا الاختبار، لم يجداً إلا أن يتحابا إلى الأبد، وأقسما على ذلك، وباركت السماء قسمهما.

وقام والدي، بعد ولادة أخي البكر، بالسفر إلى القسطنطينية حيث استدعي ليكون ساعاتي السراي. وخلال غيابه، جذب جمال أمي وفكرها ومواهبها الأنظار إليها، وخاصة أنظار السيد دولا كلوزور، سفير فرنسا، الذي بادر إلى ملاطفتها. وينبغي أن يكون غرامه عنيفاً لأنه عندما حدثني عنها بعد ثلاثين سنة حدثني برقة ومحبة. لكن أمي لم تكن تمتلك الفضيلة فقط لدفعه عنها، بل كانت أيضاً تحب زوجها بحنان. وقد كتبت إليه تستعجله العودة فترك كل شيء وعاد. وكنت أنا الثمرة البائسة لهذه العودة: إذ ولدت بعد عشرة أشهر مريضاً وذا عاهة، وكلفت أمي حياتها، فكانت ولادتي أولى تعاساتي.

إنني لا أدري كيف تحمّل والدي هذه الخسارة، لكنني أعلم أنه لم يتعزّز أبداً. وكان يعتقد أنه يرى أمي من خلالي، ولكن دون أن ينسى أنني قد انتزعتها منه، فلم يعانقني قط إلا وشعرت بتنهداته، ومعانقاته المتشنجة، وأن حسرة مرة تختلط بمداعباته التي لم يكن هناك اللطف منها. وعندما كان يقول لي: جان - جاك، لتحدث عن أمك أقول له: حسناً يا أبي، سنبكي إذن. وهذه الكلمة وحدها كانت كافية لانبثاق دموعه. فيصرخ متأوهاً: آه، أعدها إلي، واسني بها، املاً الفراغ الذي تركته في روحي. هل كنت أحبك بهذا الشكل لو لم تكن ابني؟ بعد أربعين سنة من فقدانها، مات بين ذراعي امرأة أخرى، ولكن اسم تلك المرأة الأولى في فمه، وصورتها في أعماق قلبه.

هذان هما والداي، اللذان من بين كل الهبات التي منحتها إياها السماء فإن الشيء الوحيد الذي تركاه لي هو قلب رقيق، لكنه صنع كل سعادتهما وصنع كل تعاساتي.

لقد ولدت وأنا شبه ميت، ولم يكن هناك إلا أمل ضئيل بأن أبقى على قيد الحياة. وكنت أحمل برعم انزعاج قوته السنوات، والآن لا يعطيني أحياناً بعض الراحة إلا ليتركني أتألم بوحشية أكبر بطريقة أخرى. فأحدي عماتي، وهي فتاة محبوبة وعاقلة، اعتنت بي كثيراً وأنقذتني. واليوم وأنا أكتب هذه الكلمات، لا تزال هي حية، تعتني وهي في الثمانين بزواج أصغر منها سناً، ولكنه مستهلك من الشرب. ويا عمتي العزيزة، إنني أسامحك لأنك جعلتني أحياء، وآسف لأنني لا أستطيع أن أرد لك في نهاية أيامك العناية الحنونة التي غمرتني بها في بداية حياتي: ولديّ كذلك صديقتي جاكلين التي ما تزال حية، سالمة وصلبة. فالأيدي التي فتحت عيني عند ولادتي تستطيع إغلاقهما لي عند مماتي.

إنني أشعر وأحس قبل أن أفكر: وهذا هو القدر المشترك للبشر. وقد عانيت من أكثر من قدر آخر. وأنا أجهل ما فعلته حتى عمر خمس أو ست سنوات. ولا أدري كيف تعلمت القراءة، ولا أتذكر إلا بعض قراءاتي الأولى وأثرها فيّ: وهذا هو التاريخ الذي أعني نفسي فيه وبلا انقطاع. لقد تركت لي أمي بعض الروايات. كنّا، أبي وأنا، نقرأها بعد العشاء. ولم تكن المسألة في البداية إلا تدريبي على القراءة بوساطة كتب مسلية؛ ولكن أصبحت الفائدة بسرعة قوية وحيوية بحيث كنّا نقرأ كل بدوره دون توقّف، وكنّا نمضي الليل على هذه الصورة. ولم نكن نستطيع التوقف أبداً إلا عند نهاية الكتاب. وكان أبي أحياناً، إذ يسمع زقزقة السنونوات عند الصباح، يقول خجلاً: لنذهب إلى النوم، إنني أكثر طفولة منك.

ها هو جان - جاك روسو إذاً، يُعبر للمرة الأولى عن هذا اللوم الذي كان يشعر عبره بالاضطهاد. كأن والده، بناء على ذاته الخارقة الأبوية، يقول له: «أنت قتلت أمك، أرجعها إلي، حلّ محلها بتخليك عن رجولتك»، وعلى الأثر، بدلاً من إظهار «الشيء الفاحش» أي العضو الجنسي، الذي كان ينعته بالفاحش، كان يظهر إسته، الذي يستبدله اللوطيون بالعضو الأنثوي. بالإضافة إلى ذلك، يبدو أنه أمضى ليالي كاملة مع والده، مطوراً عاطفة يبدو بكل وضوح أن ليس لها أية علاقة بعاطفة صبي صاحب وعدائي بشكل طبيعي. ولنر الآن

كيف كان جان - جاك روسو يتخيل الحب بعد هذا التأثير الأبوي :

«كنت أتصور الحب والصدقة، معبودي قلبي، بالصورة الأكثر روعة. وكنت أزينهما بكل مفاتن الجنس الذي أحببته بشدة دائماً. كنت أتخيل صديقتين، أكثر مما أتخيل صديقين، وذلك لأن المثل يقول «إن كان أكثر ندرة فهو كذلك محبوب أكثر». وكنت أمنحهما صفتين متماثلتين، ولكن مختلفتين، صورتين غير كاملتين، ولكنهما من صنع ذوقي، وهما تبعثان الرفق ورقة الإحساس. وجعلت إحداهما سمراء والأخرى شقراء، الأولى حيوية والأخرى لطيفة، واحدة حكيمة عاقلة والثانية ضعيفة، ولكنها ذات ضعف مؤثر وعليه مسحة الفضيلة. وجعلت لإحداهما حبيباً، وجعلت الثانية صديقه الحنونة، وحتى أكثر من ذلك، ولكنني لم أقبل المنافسة ولا المشاجرات، ولا الغيرة، لأن كل شعور متعب يكلفني أن أتخيل ولم أكن أريد تكدير هذه اللوحة الضاحكة بشيء يفسد الطبيعة. وأنا إذ أولع بنموذجي الرائعين الفاتنين، أتواحد مع الحبيب والصديق بقدر ما يمكنني ذلك، ولكنني أجعله شاباً ومحروباً، وأمنحه فضلاً عن ذلك الفضائل والعيوب التي كنت أحس بها.

ولكي أضع شخصياتي في المكان الذي يلائمهم، كنت أستعرض أجمل الأمكنة التي رأيتها خلال رحلاتي.

ولزمني مع ذلك بحيرة، واخترت في النهاية تلك البحيرة التي لم يكف قلبي أبداً عن التفكير بها. واستقرت على ضفاف هذه البحيرة حيث أقامت آمياتي منذ زمن طويل مسكني في السعادة الخيالية التي حددها لي القدر. فقد كان مسقط رأس أمي ما زال يشكل أيضاً بالنسبة إلي سحراً مفضلاً. وتباين المواضيع، وغنى المواقع وتنوعها، والروعة، وجلال الوحدة التي تخب الحواس وتثير القلب وتعظم الروح - كل هذه الأمور أتمت تحديدي، وكوّنت في مدينة ففي (Vevai) عيني الشابتين. هذا كل ما أتخيله للوهلة الأولى، ولن ينضاف إليه ما تبقى إلا فيما بعد».

صديقتان أكثر من صديقتين «لأن المثل إن كان أكثر ندرة فهو كذلك محبوب أكثر». لكن أيقول روسو لنا فعلاً الحقيقة؟ ألم يكذب في هذه النقطة ويموه الحقيقة كي لا يعتبر لوطياً؟ ونحن نرى أن الأمر يتعلق فعلاً بصديقين كانا يعيشان في مسقط رأس «أمي المسكينة» مثله هو وأبيه في طفولته الأولى. ففي هذا التجمع، يبدو دور المرأة أكثر ثانوية، كما في كتاب جولي (Julie) مثلاً، حيث نواجه صديقين وامرأة، وهي شخص مميز بشكل خاص، إذ تموت وتركهما وحيدين وهما (أب وابنه). فنعثر مجدداً على الموضوع المتعلق بروسو، بصديقه كلود آنيه (Claude Aneh) والسيدة دو وارنس (M^{me} de Warens)، وموضوع روسو ودو غريم (de Grimm) والسيدة دييناي (M^{me} d'Épinay)؛ وأخيراً موضوع روسو وتريز لوفاسور (Thérèse Le Vasseur) وأحباء هذه الأخيرة، لأنه من المستبعد أن يكون أولاد تريز منه. ويتعلق الأمر دائماً بحب ثلاثي كان يميز فعلاً حياة روسو وأحلام يقظته الشهوانية. ولكن كيف كان روسو يتصرف عندما كان يجد نفسه وحيداً مع امرأة؟ لنقرأ عن هذا الأمر فقرات من كتابه اعترافات ذات علاقة بالغانية جوليت دو فنيز (Juliette de Venise).

إن «بادوانا» (Padoana) التي كنا نذهب إلى منزلها، ذات صورة جميلة إلى حد ما، بل حتى جميلة، ولكن ليس الجمال الذي يعجبني. وقد تركتني دومينيك عندها، فأحضرت «شراياً» وحملتها على الغناء، وبعد نصف ساعة أردت الذهاب، تاركاً على الطاولة دوكاناً^(١) واحداً، ولكن كان لديها هم خاص بأن لا تريد خسارتي، وكان لدي الحماقة الخاصة بإزالة همها. وعدت إلى القصر مقتنعاً جداً بأنني كنت مخموراً وأن الشيء الأول الذي سأقوم به هو الإرسال في طلب الطبيب لأطلب منه بعض الأشربة الطبية. ولا شيء يمكن أن يعادل الانزعاج الفكري الذي عانيت طوال ثلاثة أسابيع، دون أن يبرره أي ضيق حقيقي أو أية إشارة ظاهرة. إذ لم أكن أستطيع التصور أن من الممكن الخروج

(١) دوكان: نقد ذهبي كان يتداول في البندقية قديماً.

بلا عقاب من بين ذراعيّ البادوانا. وقد وجد الطبيب نفسه ما يمكن تخيله من الصعوبة لطمأنتي. ولم يستطع النجاح إلا بإقناعي أنني كنت منسجماً بشكل خاص مع الرغبة في عدم التعرض لعدوى ما بسهولة. ومع أنني كنت ربما أقل الرجال تعرضاً لمثل هذه المحنة، إذ إنني لم أصب قط بشيء، فإن هذا الأمر كان بمثابة برهان على أن الطبيب محقّ. ومع ذلك لم يجعلني هذا الاعتقاد جسوراً أبداً أو مغامراً، وإذا كنت قد اكتسبت هذه الميزة في الواقع من الطبيعة، فإنني أستطيع القول أنني لم أفرط بها.

إن مغامرتي الثانية، مع أنها فتاة كذلك، فقد كانت من نوع مختلف جداً، من جهة أصولها ونتائجها. لقد قلت إن القبطان أوليفيه أتاح لي تناول العشاء على متن سفينته، وإنني قد اصطحبت سفير إسبانيا. وكن أتوقع استقبالنا بتحية المدافع. لكن طاقم السفينة استقبلنا بصفوف منتظمة ولم يكن هناك إطلاق ذخيرة الأمر الذي أذلني كثيراً بسبب كاريو (Carrio) الذي رأيته قد استاء قليلاً. ففي الحقيقة كانت السفن التجارية تستقبل بتحية المدفعية أشخاصاً أقل منّا قيمة بكل تأكيد، ومن جهة أخرى، كنت أعتقد أنني أستحق بعض التمييز من القبطان. ولم أستطع إخفاء ذلك لأنني لم أكن أستطيع أبداً ستر عواطفني، وعلى الرغم من أن العشاء كان جيداً، وأن أوليفيه أكرمنا حسب الأصول، فقد بدا أنه بمزاج سيء، فأكلت قليلاً وتكلمت بشكل أقل أيضاً.

عند البنخب الأول، على الأقل، انتظرت رشقة؛ ولكن لم يحدث أي شيء من ذلك، وقد ضحك كاريو الذي قرأ أفكاره من رؤيتي متذمراً مثل طفل. وبعد مرور ثلث العشاء، رأيت زورقاً يقترب. فقال لي القبطان: انتبه لنفسك. فها هو العدو! فسألته ماذا يقصد بقوله، فأجاب وهو يمزح، ورسا القارب، ورأيت فتاة شابة تخرج منه، فتاة فاتنة، متأنقة ورشيقة جداً، دخلت القاعة بثلاث قفزات ورأيته تستقر إلى جانبي قبل أن أتبين أنه قد وضع لها ملعقة وشوكة وسكين. لقد كانت فاتنة بقدر ما هي حيوية، فتاة سمراء في العشرين من العمر على الأكثر. ولم تكن تتكلم إلا الإيطالية، وكانت لهجتها فقط كافية

لإدارة رأسي . وفيما كانت تأكل ، وتحدث نظرت إلي ، وحدقت بي لحظة ثم صرخت «يا للعذراء الطيبة! آه! يا عزيزي بريمون (Brémond) لم أرك منذ زمن بعيد» ثم ارتمت بين ذراعي ، وضمتني ، وشدت عليّ فكادت تخنقني . وأطلقت عيناها الكبيرتان السوداوان كالشرقيات في قلبي سهاماً من نار ، ومع أن المفاجأة شتتني أولاً ، لكن اللذة اجتاحتني بسرعة رغم وجود المشاهدين إلى حد أنه توجب سريعاً عليّ هذه الجميلة أن تكبحني هي نفسها ، لأنني كنت نشوان أو على الأصح غاضباً . وعندما رأيتني في الحالة التي تريدها ، أضافت شيئاً من الاعتدال في مداعباتها ، ولكن ليس في حيويتها ، وعندما طاب لها أن تفسر لنا السبب الحقيقي أو المزيف لكل هذا النرق ، أخبرتنا أنني أشبه إلى حد الالتباس السيد دو بريمون مدير الجمارك في توسكانا ، وأنها كانت مولعة بهذا الرجل وأنها لاتزال مغرمة به ، وأنها تركته لأنها كانت حمقاء غبية ، وأنها ستجعلني مكانه ، وأنها ترغب في حبي لأن ذلك يلائمها ، وأنه ينبغي عليّ ، للسبب نفسه ، أن أحبها طالما يلائمها ذلك ، وأنه عندما ستركني فجأة ، سأصبر على ذلك كما فعل عزيزها بريمون ، وما يقال سيفعل . وقد امتلكتني كأني رجل لها ، وكلفتني الانتباه لقفازيها ، ولمروحتها ، ولتسريحتها ، وكانت تأمرني بالذهاب إلى هذا المكان أو ذاك ، وأن أقوم بهذا العمل أو ذاك ، وكنت أطيعها .

عند المغادرة ، أخذت موعداً للغد ، ووافيتها فيه فوجدتها في ثوب بيتي لطيف جداً ، لا يُعرف إلا في البلدان الجنوبية ولن أتلهي في وصفه ، مع أنني أذكره جيداً . وسأقول فقط أن حواشيه واستدارة الرقبة مطرزة بخيط حريري مزين بشرابات ذات لون وردي . وقد علمت على الأثر أن تلك هي الموضة في مدينة البندقية ، أما أثره فقد كان خلافاً فاتناً إلى حد أنني دهشت لأن هذه الموضة لم تنتشر أبداً في فرنسا . ولم أكن أمتلك أبداً فكرة عن السعادة التي تنتظرنني . لقد تحدثت عن السيدة لارناج (M^{me} de Larnage) ، في الهذيان التي عاودتني فيها ذكراها أحياناً ، ولكن كم كانت عجوزاً وبشعة وباردة بالقرب من فتاتي Zuletta ! ولا تحاولوا أن تتخيلوا مفاتن هذه الفتاة الساحرة ولطافتها ،

إذ ستبقون بعيدين جداً عن الحقيقة؛ فعذارى الأديرة الشابات أقل نضارة، وجماليات البلاط أقل حيوية، وحوريات البحر أقل إثارة. ولم تقدم أبداً متعة لذينة مثلها إلى قلب وحواس رجل فإن محظوظ. آه! على الأقل لو عرفت كيف أتذوقها كاملة ومرتعة لحظة واحدة! لقد تذوقتها، ولكن دون سحر وفتنة؛ وأنهكت كل بهجتها، قتلتها كما قتلت اللذة. لا، لم تُعدني الطبيعة قط للتمتع. فقد وضعت في رأسي السيء سم هذه السعادة التي لا توصف، وضعت الشهوة لها في قلبي.

إذا كان في حياتي حالة تصوّر جيّد لطبيعتي، فهي هذه الحالة التي سأرويها. فالقوة التي أتذكر بها في هذه اللحظة موضوع كتابي ستجعلني أحترق هنا اللياقة الزائفة التي ستمنعني من ملئه، ولتكن من تكون أنت الذي تريد معرفة رجل، تجرأ على قراءة الصفحتين أو الثلاث الصفحات التالية: وستتعرف في الصميم على جان - جاك روسو.

لقد دخلت إلى غرفة فاتنة، كما لو أنني في محراب الحب والجمال. وخلت فيه أنني أرى الملكة شخصياً، وما كنت لأعتقد أبداً أنه يمكن، دون احترام ولا تقدير، الشعور بشيء مماثل لما جعلتني أشعر به وأكابده. فما كدت أعرف، منذ المداعبات الأولى، ثمن هذه المفاتن وهذه الملاطفات، حتى أردت خوفاً من فقدان ثمرة ذلك، الإسراع إلى قطفها. وفجأة، بدلاً من الأحاسيس الملتهبة التي كانت تجتاحني، شعرت ببرد مميت يسري في عروقي، واصطكت ساقائي وأنا على وشك الشعور بالسوء، فجلست وبكيت كطفل.

من يستطيع أن يحزر سبب دموعي، وما كان يدور في رأسي في تلك اللحظة؟ لقد قلت لنفسي: هذا الشخص الذي أمتلكه هو تحفة الطبيعة والحب. الروح، الجسم، كل شيء كامل، وهي كذلك طيبة وكريمة بقدر ما هي محبوبة وحلوة، والكبار، الأمراء ينبغي أن يكونوا عبيدها، والصولجانان ينبغي أن تكون عند قدميها، ومع ذلك، ها هي عابثة بائسة مسكينة، معروضة

للجميع. قبطان سفينة تجارية يتصرف بها، لقد أتت لترتمي عليّ، عليّ أنا النكرة الذي لا يساوي شيئاً، عليّ أنا الذي قيمته، التي لا تستطيع معرفتها، ينبغي أن تكون تافهة في عينيها. هناك شيء غير معقول ولا يمكن تصوره. فإما أن قلبي يخدعني، ويفتن حواسي ويجعلني مخدوعاً بفاتنة عظيمة، وإما أن بعض العيوب السرية التي أجهلها تدمر تأثير مفاتها وتجعلها كريهة في أعين أولئك الذين ينبغي عليهم أن يتنافسوا عليها، وشرعت أبحث عن هذه العيوب بتركيز فكري فريد ولم يخطر ببالي أنها تسهم فيها.

إن نضارة جلدها، وتألّق رونقها، وبياض أسنانها، وعذوبة نَفْسِها، ومظهر الطهارة المنتشرة على مظهرها كله كل هذه الأمور أبعدت عني تماماً هذه الفكرة التي ما تزال تراودني عن حالتي منذ البادوانا. وترددت وخفت أن لا أكون سليماً بشكل كافٍ بالنسبة إليها، وكنت مقتنعاً جداً بأن ثقتي بهذا الشأن لا تخدعني أبداً.

إن هذه الأفكار، الموظفة جيداً، أثارتني إلى حد البكاء. أما زوليتا، التي كان موقعي بكل تأكيد مشهداً جديداً كلياً عليها، فقد وقفت مذهولة، ولكنها إذ دارت في غرفتها، ومرت أمام مرآتها، فهمت، وأكدت لها عيناها، أن النفور لا علاقة له بهذا الإخفاق. ولن يكون صعباً عليها شفائي منه، ومحو هذا الشعور الصغير بالخجل، ولكن في اللحظة التي كنت فيها مستعداً للتهالك على عنق بدا لأول مرة قادراً على تحمّل فم رجل ويده، تبينت أن لديها نهداً ضامراً. فاندعشت، وتمنعت، فاعتقدت أن هذا النهد ليس ملائماً مثل الآخر. وأخذت أفكر كيف يمكن أن يكون هناك نهّد ضامر، وإذا اقتنعت أن هذا الأمر يعود إلى عيب طبيعي جسمي، ومن فرط ما قلبت هذه الفكرة وأعدت تقلبيها، ورأيت بوضوح كالشمس أنني من هذه المرأة الأكثر سحراً التي استطعت تصور صورتها لا آخذ بين ذراعي إلا نوعاً من المسوخ، فضالة الطبيعة والرجال والحب. وانسقت في الحماقة إلى حد سؤالها عن هذا النهّد الضامر، فنظرت إلى هذا الأمر أولاً بمزاج وهزل، وبطبيعتها اللعوب قالت وقامت بأشياء جعلتني أموت من الحب، ولكنني إذ أحتفظ بشيء من القلق الذي لم أستطع إخفاءه، رأيته

في نهاية المطاف تحمّر، فتصلح ثيابها، وتتنصب قائمة، ودون أن تقول كلمة واحدة، تجلس إلى نافذتها. فأردت الجلوس إلى جانبها، فانسحبت، وجلست على أريكة، ثم نهضت بعد لحظة، وأخذت تتمشى في الغرفة وهي تروّج بمروحتها، ثم قالت لي بلهجة باردة ومحتقرة: زانتو سيعود وهو يدرس الرياضيات.

وقبل أن أودعها، طلبت منها موعداً آخر في الغد، لكنها أجلته إلى ما بعد الغد، مضيفة بتهدة ساخرة أنني أحتاج إلى بعض الراحة. فأمضيت هذا الوقت منزعجاً، القلب ممتلئ بمحاسنها ونعمها، شاعراً بهوسي وغرابتي، لائماً نفسي على ذلك. متأسفاً على اللحظات التي أسأت استخدامها، وأنه لم يكن غيري مسؤولاً عن رفض ما هو أكثر لطافة وعدوبة في حياتي، منتظراً بنفاذ صبر هائل الوقت الذي أعوض فيه الخسارة، ومع أنني كنت ما أزال قلقاً، ورغم ما أحس به من جراء التوفيق بين كمال هذه الفتاة الرائعة وشناعة حالتها، ركضت، طرت إليها في الموعد المحدد. ولا أدري ما إذا كان طبعها الحاد أكثر غبطة بهذه الزيارة، وكرامتها غير مجروحة على الأقل، ووجدت مسبقاً متعة لذيذة في أن أظهر لها بكل طريقة كم أنني قادر على إصلاح أخطائي. لكنها احتفظت لي بهذه المحنة. فصاحب الزورق الذي أرسلته إليها عند رسو الزورق، أخبرني أنها رحلت الليلة الماضية إلى فلورنسا. وإذا كنت لم أشعر بكل حبي بامتلاكها، فقد شعرت بذلك بقسوة كبيرة عند خسارتها. ولم يتركني قط أسفي الجنوني. فهي، هذه المحبوبة، هذه الفاتنة في نظري، كيف أستطيع أن أعزي نفسي بخسارتها، ولكن عمّا لا أستطيع تعزية نفسي، أعترف به، إنه كونها لم تحمل عني إلا ذكرى محتقرة.

إن تحققنا من أن روسو كان عاجزاً مع امرأة، ليس ناتجاً من لغته التي يستعملها «الشيء الأنثوي»، أي العضو الجنسي، الذي يجذبه ويسحره، بل من «النهد الضامر» أي النهد الذي يشبه عضو الرجل. وهكذا كان يخسر دائماً، لصالح منافس ما، كل النساء اللواتي يهتم بهن. إنه يتصرف كرجل مخصي معنوياً. أكان يريد أن يعيد إلى أبيه ما اكتسبه بلا تعمّد؟ أكانت ذاته الخارقة

توقفه في نموه الرجولي وهل توصلت إلى تحطيمه نهائياً؟ ينبغي التساؤل عن ذلك .

إن هذا الخصاء، المفروض على روسو كعقاب، يفسر حاجته في عرض ردفه للناس. فهذه النزعة الاستعرائية تمثل، لديه، تسوية بين الرغبة الجنسية الطبيعية والحاجة إلى العقاب التي ولدتها الذات الخارقة التي تتهم الرغبة الطبيعية بأنها فاحشة دنسة. ويظهر خصاؤه على المستوى النفسي كما على المستوى الأخلاقي. نجد في ما يلي كيف يصف الخصاء المعنوي في اعترافاته :

«إن شيئين متنافرين تقريباً قد اتّحدا في ذاتي دون أن أستطيع تصور طريقه ذلك: مزاج حاد جداً، أهواء متواثبة متهورة، وأفكار بطيئة الولادة مترددة، لا تظهر أبداً إلا بعد فوات الأوان. ويمكن القول إن قلبي وذهني لا ينتميان إلى الشخص نفسه. فالشعور، الأسرع من البرق، ينبثق مائلاً روحي، ولكن بدلاً من إضاءتها، يحرقني ويبهمني، فأشعر بكل شيء ولا أرى شيئاً. إنني نزق ولكنني أحقق، وينبغي أن أكون متمالكاً نفسي لأفكر، والمدهش أنني في حين أمتلك الحساسية الأكيدة للجماع، وحتى للنعومة واللفظ، بشرط أن أنتظر، فأقوم بارتجال قصائد ممتازة على مهل، ولكنني لا أقوم بشيء أبداً على الفور ولا أقول شيئاً ذا قيمة. وأنا قادر على القيام بمكالمة رائعة بوساطة البريد، كما يقال إن الاسبانيين يلعبون الشطرنج. وعندما قرأت مقطعاً عن الدوق دوسافوى الذي التفت إلى الورا بسرعة ليصرخ «سأقطع عنقك يا تاجر باريس!» قلت: «ها أنذا».

إن هذا البطء في التفكير مضافاً إلى هذه الحيوية في الشعور، لا أمتلكهما فقط عند التحادث إلى الآخرين، بل أعانيهما حتى عندما أكون وحيداً وعندما أعمل. وتنتظم أفكاري في رأسي بصعوبة لا يمكن تصورها، فهي تسري فيه خفية، وتضطرب فيه إلى حد إثارتي وإهاجتي، وتعرضني لخفقات واختلاجات، وفي وسط كل هذا الانفعال، لا أرى شيئاً بوضوح، ولا أحسن

كتابة كلمة واحدة: فينبغي أن أنتظر. وتهداً رويداً رويداً هذه الحركة الكبيرة، ويتوضح التشوش، ويأتي كل شيء ليحل محله، ولكن ببطء، وبعد اضطراب طويل ومبهم.

وتأتي من هنا الصعوبة القصوى التي أجدها في الكتابة، فمخطوطاتي مشطبة، ملطخة مشوشة، صعبة القراءة والفهم، تشهد على المشقة التي كلفتني إياها. وليس هناك واحدة منها لا يتوجب عليّ نسخها أربع أو خمس مرات قبل دفعها إلى المطبعة. ولم أستطع أبداً المباشرة بالكتابة قبالة الطاولة وأوراقي. ففي النزهة، ووسط الصخور والغابات، في الليل وأنا في سريري، وأثناء أرقى أكتب في عقلي: ويمكن التخيل بأي بطة، وخاصة بالنسبة إلى رجل مفتقر تماماً إلى ذاكرة شفوية، إلى رجل لم يستطع في حياته حفظ ستة أبيات غيباً. وفي بعض الأوقات، كنت أدير الفكرة في رأسي وأديرها خمس أو ست ليالٍ قبل أن تصبح في حالة صالحة لوضعها على الورق. ومن هنا أيضاً يتفق أنني أنجح في الأعمال التي تتطلب إعمالاً للفكر وتعباً بشكل أفضل من تلك التي تتطلب بعض الخفة كالرسائل مثلاً، وهو الفن الذي لم أستطع أبداً اتقانه، وكان القيام به يعذبني. ولم أكتب قط رسائل عن أصغر المواضيع التي تكلفني ساعات من التعب، وإذا ما أردت كتابة ما أشعر به بالتتالي، لا أعرف كيف أبداً ولا كيف أنتهي؛ وتكون مليئة بحشو طويل وغامض، لا تكاد تفهم عندما تقرأ.

ولا تتطلب مني الأفكار فقط أن أسلمها، بل تتطلب مني أيضاً أن أتسلمها. لقد درست الناس، وأعتقد أنني باحث جيد إلى حد ما، ومع ذلك لا أحسن رؤية شيء مما أراه، ولا أرى جيداً إلا ما أتذكره، ولا أكون نبيهاً إلا في ذكرياتي. ومن كل ما يقال، من كل ما يفعل، من كل ما يجري في حضوري، لا أشعر بشيء، لا أفهم شيئاً ولا أكتشف شيئاً. فالإشارة الخارجية هي كل ما يؤثر في. ولكن كل هذا يعاودني على الأثر، فأتذكر المكان، والزمان، والنغمة، والنظرة، والنهج، والمناسبة، فلا شيء يفوتني. إذاً في ما يفعل ويقال، أجد ما فُكر به ونادراً ما أخطيء.

ولست سيد فكري عندما أكون وحيداً مع نفسي ، إلا قليلاً ، ليرتأى ما يجب أن أكون في الحديث ، عندما ينبغي للتكلم في الوقت المناسب التفكير وفوراً بألف شيء وشيء في الآن نفسه . ولا شك في أن تصور العديد من المجاملات التي أثق من نسيان بعضها على الأقل وحده يكفي لإحساسي بالخجل . إذ لا أفهم حتى كيف يجرؤون على الكلام والتحدث في مجلس : لأن عند كل كلمة ينبغي استعراض جميع الأشخاص الحاضرين ، وينبغي معرفة طباعهم جميعاً ، ومعرفة تاريخهم لكي يكون المرء واثقاً من عدم قول شيء يمكن أن يسيء إلى أحدهم . وبناء عليه ، فإن أولئك الذين يعيشون بين الناس يتمتعون بحسنة كبيرة : فبمعرفتهم أن من الأفضل السكوت يكونون أكثر ثقة بما يقولونه : ومع ذلك تفلت منهم أحياناً بعض الحماقات . ولنحكم على ذاك الذي ينذهل هنا ، فإن من المستحيل عليه تقريباً التحدث دقيقة واحدة دون اقتراف سوء ما . وفي الحديث الثنائي سيئة أجدها الأسوأ ، إنها ضرورة التكلم دائماً : فعندما يُتحدث معك ينبغي أن تجيب ، وإذا لم يُبدَ الآخر أية كلمة ينبغي إحياء الحديث . وهذا الإكراه الذي لا يطاق ، وحده ، يقززني من المجتمع . ولا أجد ضيقاً قط أكثر إزعاجاً من واجب التكلم فوراً ودائماً ، ولا أعرف ما إذا كان هذا يعود إلى اشمئزازي البالغ من كل قهر وإخضاع ، ولكن يكفي أنه ينبغي حتماً أن أتكلم ، «لكي أنفوه بحماقة بكل تأكيد» . كبح الفكر ، كبح في العمل ، كبح الكلام . غياب كل عفوية وكل قدرة على المبادرة ، هكذا يظهر لدى روسو هذا الخضاء المعنوي .

أما الخضاء المادي ، فنعرض في ما يلي كيف أحس به روسو بعد موت كلود آنيه الذي تركه دون منافس بالقرب من السيدة دو وارس ، وها هي القصة .

إن «والدة» جان - جاك روسو قد منحت صداقتها وعطفها شاباً شعر روسو تجاهه دائماً باحترام كبير ، مع أنه على ما يظهر ، لم يقم للسيدة دو وارس إلا بأعمال الخادم الفَراش . وهذا الرجل الذي كان يتحلى ، بحسب روسو ، بنبل نادر ، أصبح بالنسبة إليها موضع ثقة وكاتم أسرار وصديق . وفي الواقع كان يهتم

بإدارة أعمالها، وثروتها ويقدم إليها أجلّ الخدمات، وقد قرر أن يكمل دراساته يشجعه على ذلك أستاذ عالم، فشرع في تعلّم علم النبات بشغف. وعلى إثر رحلة قصيرة، أصيب ببرد ومات بعد بضعة أيام، تاركاً السيدة دو وارس وحدها مع جان - جاك روسو. ولم يشعر جان - جاك بأنه مكبوح جداً في علاقاته مع السيدة دو وارس ما دام كلود آنيه حياً وكل شيء يتم بين الثلاثة وفق أحلامه. وقد أعطانا الوصف التالي لوضعهم.

«وهكذا نشأت بيننا نحن الثلاثة ألفة ربما لا مثيل لها على الأرض. فكل آمياتنا وكل عناياتنا واهتماماتنا، وقلوبنا كانت مشتركة. ولم يكن يحدث شيء منها خارج هذا المجلس. فعادة العيش معاً والعيش هكذا فقط أصبحت من الكبر بحيث إننا، إذا نقص أحداً في وجبة من وجباتنا أو زاد منها رابع، تضايقنا وفسد حالنا، وعلى الرغم من صلاتنا الخاصة، فإن الاجتماعات الثنائية كانت أقل عدوية من الاجتماع الكلي. وما كان يقينا من الإزعاج هو ثقة قصوى متبادلة، وما كان يقينا من الضجر هو كوننا كلنا مشغولين جداً».

ولكن بعد اختفاء كلود آنيه تغير كل شيء. فشرع روسو في القيام برحلات عدة، وبدد ثروة السيدة دو وارس الصغيرة، متذرعاً بحجة أن المال سيذهب بدون هذه الطريقة إلى نصّابين ومحتالين. وفي الوقت نفسه، نتبين ظهور علاقة مرضية غريبة لديه. فهو لم يبدد فقط مال «والدته» في رحلاته غير المجدية، بل سرق منه وخبأ ما سرقه منها، مظهراً هكذا بوضوح حاجته إلى أن يُعتبر لصاً، مجرمًا. ثم إذ استاء من نفسه، أنبها بشدة لأنها «فكرت في الاستفادة من أطمار صديقه» وبدأ بالتعرض لأغرب الأمراض التي وصفها على هذا الشكل:

«إن تلف صحيي يؤثر في مزاجي ويخفف من حدة نزواتي. وأنا إذ أشعر بالضعف أصبح أكثر اطمئناناً وأفقد شيئاً من ضراوة الرحلات. وإذ أكون أكثر استقراراً وإقامة لا يتغلب عليّ العدو، بل الكآبة؛ وتعقب الأبخرة الأهواء، ويصبح ذبولي حزناً، فأبكي وأتهد بلا سبب! وأشعر أن الحياة تفرمني دون أن أكون قد تذوقتها، فأئنّ وأتحسر على الحالة التي تركت فيها أمي المسكينة،

على حالتها إذ رأيتها على وشك السقوط؛ وأستطيع القول إن هجرها وتركها تشتكي كان أسفي الوحيد. وفي نهاية المطاف، سقطت مريضاً تماماً، فاعتنت بي كما لم تعتني أم بولدها أبداً، وهذا الأمر يحسن إليها هي نفسها، بقيامها بتحويل مشاريعها وبإبعاد أصحاب المشاريع. وكم سيكون ناعماً هذا الموت إذا جاء الآن! وإذا تذوقت قليلاً نِعم الحياة فقد شعرت قليلاً بتعاساتها. وتستطيع روعي الهادئة الذهاب دون الشعور القاسي بظلم البشر الذي يسمم الحياة والموت. وسيكون لديّ العزاء بأنني أحياء في النصف الأفضل من ذاتي، وسيكون هذا بالكاد موتاً. ودون مشاعر القلق التي تملكني على مصيري، سأكون ميتاً كما لو أنني استطعت النوم، وسيكون لمشاعر القلق نفسها هدف ودودٌ وحنونٌ يخفف من مرارتها. وكنت أقول لها: «ها أنت مؤمنة على وجودي كله، فتصرفي بشكل يجعله سعيداً». ومرتين أو ثلاث مرات، عندما كنت الأكثر سوءاً، حدث أنني نهضت في الليل وحبوت إلى غرفتها لأعطيها نصائح بخصوص سلوكها، وتجرات على قول الكثير من الحق والمعاني، لكن الاهتمام الذي أوليته لمصيرها تميز أكثر من أي شيء آخر. كأن الدموع غذائي ودوائي. وكنت أتقوى بتلك الدموع التي أسكبها بالقرب منها، معها وأنا جالس على سريرها وممسك يديها بيدي. وكانت الساعات تمضي في هذه المحادثات الليلية دون أن نشعر وأستعيد فيها أفضل حالاتي: وإذا أشعر بالسعادة والسكينة من جراء الوعود التي قطعتها لي، من جراء الآمال التي منحني إياها، كنت أنام من جراء ذلك والسلام في قلبي مستسلماً لهذه العناية الإلهية، وبعد العديد من أسباب كره الحياة، وبعد العديد من الاضطرابات التي أثرت في صحي وأحالتها إلى عبء علي، سيكون الموت الذي سينهي حياتي قليل القسوة كما يبدو لي الآن إن شاء الله.

إن هواء الريف لم يُعد إليّ صحيّ الأولى. فقد كنت واهناً، وصرت أكثر وهناً فلم أستسغ الحليب، وتوجب علي تركه. وكانت طريقة المعالجة بالماء شائعة، فشرعت في ذلك، بقليل من الرصانة كي تشفي ليس من آلامي وأمراضي، بل من الحياة، فكل صباح عندما أستيقظ أذهب إلى النبع حاملاً

قدحاً كبيراً، فأشرب من مائه بشكل متواصل مقدار زجاجتين أثناء نزهتي، وتخلّيت كلية عن الخمر في وجباتي. وكان الماء الذي أشربه ثقيلًا إلى حد ما وصعب الهضم، مثله مثل معظم مياه الجبال. باختصار، عملت بكد بحيث استطعت في أقل من شهرين اتلاف معدتي كلياً، مع أنها كانت جيدة وسليمة في ذلك الحين، وعندما لم تعد تهضم الطعام، علمت أنه ينبغي عدم الأمل في الشفاء. وفي هذا الوقت نفسه، تعرضت لحادث فريد في ذاته وفي نتائجه التي لن تنتهي إلا بانتهائي.

فقد كنت ذات صباح مريضاً كعادتي، وحاولت وضع طاولة صغيرة مقلوبة على قوائمها، فشعرت في كل أنحاء جسمي بهيجان مفاجيء ولا يمكن تصوره. وليس هناك أفضل من تشبيهه بنوع من العواطف التي تهبّ في دمي وتكتسح فوراً كل أطرافي. وبدأت شراييني بالخفقان بقوة كبيرة بحيث لم أشعر بخفقانها فقط بل سمعته، وخاصة خفقان الشرايين السباتية. وانضم إلى ذلك طنين هائل في أذني، وكان هذا الطنين أو الضجيج مثلاً بل رباعياً: طنين غامض ومخنوق وهدير أكثر وضوحاً كهدير الماء الجاري، صغير حاد جداً، والخفقان الذي ذكرته للتو والذي أستطيع بسهولة عدّ ضرباته دون جس نبضي ولا لمس جسمي بيدي. وكان هذا الضجيج الداخلي كبيراً إلى حد أنه انتزع مني رهافة السمع التي كنت أمتلكها سابقاً، وجعلني ليس أصمّ كلية بل ذو أذنين ثقيلتي السمع منذ ذلك الوقت.

ويمكن تصور دهشتي وذعري، فقد اعتقدت أنني متّ، فجلست في السرير، ونودي على الطبيب الذي رويت له حالتي وأنا أئن وأتأوه وأؤكد أن لا علاج لها. وأعتقد أنه فكر في الأمر نفسه أيضاً، ولكنه يقوم بواجبه. فقد روى لي استنتاجات مطولة وتحليلات لم أفهم منها شيئاً، ثم بدأ، انطلاقاً من نظريته العظيمة، العلاج الاختباري الذي رغب في تجربته. وكان هذا العلاج شاقاً جداً، ومقززاً وقليل المفعول إلى درجة أنني أقلعت عنه سريعاً، وبعد بضعة أسابيع إذ رأيت نفسي كما كنت، لا أفضل ولا أسوأ، غادرت السرير واستعدت

حياتي الطبيعية مع خفقان شراييني والطنين الذي لم يتركني منذ ذلك الوقت،
أي منذ ثلاثين سنة .

لقد كنت حتى ذلك الوقت محباً كبيراً للنوم . وقد قام الحرمان الكلي من
النوم الذي ينضم إلي كل هذه المظاهر المرضية والذي رافقها باستمرار،
بإقناعي بأنه تبقى قليلاً من الوقت للعيش . وقد طمأنني هذا الاقتناع لفترة على
عناية الشفاء . ولكنني إذ لا أستطيع إطالة حياتي، عزمت على الحصول من
القليل الذي تبقى لي على كل الفائدة الممكنة، وهذا ممكن بوساطة تفضيل
خاص للطبيعة التي أنقذتني في ظرف مشؤوم جداً من الآلام التي بدا أنها
ستجذبني . لقد كنت منزعجاً من هذا الضجيج ، ولكنني لا أتألم منه، إذ لم
يكن مترافقاً مع أي ضيق عادي غير الأرق طوال الليل، ودائماً يصحبه نفس
قصير لا يصل إلى حد الربو، ولا يتم الشعور به إلا عندما أريد الركض أو
التحرك بقوة .

إن هذا الحادث، الذي كان ينبغي أن يقتل جسدي، لم يفتك إلا بأهوائي،
وأحمد السماء على ذلك كل يوم، على الأثر السعيد الذي أحدثه في روحي .
وأستطيع أن أقول بكل ثقة إنني لم أبدأ بالعيش إلا عندما اعتبرت نفسي رجلاً
ميتاً . وأنا إذ منحت الأشياء التي سأتركها قيمتها الحقيقية، بدأت بالاهتمام بأمور
أكثر نبلاً، كتوقع تلك الأشياء التي ينبغي علي أداؤها قريباً، والتي أهملتها كثيراً
حتى ذلك الحين . وقد حرّفت الدين غالباً على طريقتي، لكنني لم أكن قط دون
شعور ديني بتاتاً . ويكلفني قليلاً الرجوع إلي هذا الموضوع، المحزن جداً
لل الكثير من الناس، لكنه لطيف جداً بالنسبة إلى أولئك الذي يصنعون منه مادة تعزية
وأمل . وقد كانت أمي، بهذه المناسبة، أكثر فائدة بكثير من كل علماء اللاهوت
بالنسبة إلي .

لقد رأينا كيف توصل روسو، بوساطة هذا الخصاص، إلى قتل أهوائه لكي
يستفيد من إضمار منافسه كلود آنية، أو والده إذا صح القول . وقد جعل من
نفسه مزعجاً لا يطاق، وأرغم، بسلوكه هذا، السيدة دو وارس على طرده . ثم

نجح في تعريض نفسه للإصابة حتى في شرايينه وقلبه وفي انتزاع نفسه من الواقع بوساطة صمم وطنين متواصل في أذنيه، اختطف منه إلى حد كبير الفرح الذي كان يمنحه النوم والأحلام.

لقد انتقل إلى مونييليه^(١) (Montpellier) حيث عولج من مرض خيالي وهمي؛ وتفاقمت حالته واشتكى من ورم في القلب «ينبغي اجتثاثه». وهكذا عبّر رمزياً عن رغبته في أن يرى نفسه مخصياً ومتخلصاً من رجولته.

وكانت نتيجة هذه السيرورة النفسانية نمواً فريداً لقدراته الاستثنائية^(٢). وقد أتقن اجتذاب جمهوره بوساطة أدبه، وقليلون هم المؤلفون الذين كان لهم، في حياتهم، تأثير في معاصريهم. لكن هذه القدرة على الاجتذاب لم تتوقف هنا، فقد عانى إمساكاً متواصلًا واحتقان البول. وكان يحتاج إلى طبيب كي يفتح المجرى. ويمكن التساؤل عما إذا كان هذا الاحتقان لا ينجم عن انكماش مجرى البول، كما يُلاحظ غالباً على أثر تعقيبية^(٣) عولجت بشكل سيء. غير أن هذه الفرضية تبدو لنا مستبعدة، فقد أنكر روسو دائماً أن يكون قد أصيب بأمراض زهرية ولسبب وجيه، إذ نعرف إلى أي حد كان عاجزاً، وإلى أية درجة كانت نزعته الشاذة جنسياً، التي جهلها على الأرجح، في شبابه على الأقل، ترغمه على القيام بمعادلات لاحقاً. إذ أليست عملية ثقب مجراه محاولة كي يقوم حتى النهاية بالدور الأنثوي تجاه رجل ما؟

على كل حال، يبدو مؤكداً أن شذوذه الجنسي قد ظهر في نهاية المطاف بوساطة أفكار اضطهاد نموذجية جداً. فالرجال هم الذين يعذبونه وليس النساء، وهم الذين يلزمون الوحدة التي قادته إليها سلبيته ونقص قدرته على القتال

(١) مونييليه مدينة فرنسية مشهورة بجامعتها.

(٢) الاستثنائية نزعة عامة للاستثمار بالأشياء وبعطف من يحيط بنا.

(٣) مرض زهري يترافق مع سيلان أبيض.

والنضال. فمن الواضح أن جسمه قد ثار، تحت ضغط معاناة ما، في وجه تعذيب جائر في الحقيقة فُرض عليه وكأنه بالفعل سبب موت أمه، في حين أن والده في الحقيقة هو الذي سبب، بعلاقاته مع امرأته، السيورة التي أفضت إلى موتها وتعاسة ولده. ومع ذلك، ورغم ثورته، ورغم أفكاره الذهانية الاضطهادية، فإن حالة روسو ليست حالة مريض ذهاني بشكل نموذجي. فقد جعل منه الكثير من العناصر مخلصاً فادياً. إنه مخلص فادٍ كذلك عندما يأخذ على عاتقه الخطأ الذي يمكن لوم والده عليه، والده الذي كانت حياته في القسطنطينية طوال سنتين بعيداً عن زوجته ولا تنزال لغزاً بالنسبة إلينا. وهو مخلص فادٍ كذلك أيضاً عندما سعى إلى تحسين مصير البشرية، عبر كتابه (أميل) الذي أراد الإفادة فيه من تجاربه المؤلمة. وأخيراً هو مخلص فادٍ خاصة عندما يتحمل مسؤولية معاناته في اعترافاته ليتيح لعصره مواجهة البؤس البشري ورؤيته عن قرب، موضوعياً ودون أفكار أخلاقية مسبقة. ولكن لا يمكن القول إن روسو يقوم بدوره عن طيب خاطر، ولا أنه قد رضي بقدره. ويبدو أنه قد استفظعه كثيراً، وأن مثال الافتداء ليس مثال تطلعاته الفطرية. وهكذا وُلد بلا شك النزاع الذي قسمه وشقه والذي توجب عليه أن يرى فيه اضمحلال تفكيره.

بفهمنا أعراض الفشل هذه نتوصل إلى إدراك قيمة نتاج روسو ودلالته فضلاً عن دوره الاجتماعي. وربما من الصعب مع توالي الأيام أن نتصور كيف أن رجلاً معقداً بهذا الشكل ومريضاً إلى هذا الحد ومستضعفاً أمكنه أن يصبح المرشد الروحي لجيل كامل قبل الثورة الفرنسية. ولكن ألم يكن روسو مبتلياً بذات خارقة أبوية كانت تشله؟ وألم تجد فرنسا نفسها مبتلاة، بتراث إقطاعي متخلف وبملك لم تكن تستطيع بعد التخلص منه؟ أولم يصبح كذلك الناطق بلسان عهد ما قبل الثورة بكامله الذي لم يشك بمشاعره ولكن أفكاره لم تمتلك بعد قوة الظهور على شكل أفعال؟ أولم يغمر سحره النخبة الارستقراطية في زمنه؟ أولم يُعد، بوساطة شعوره بالإثم الذي أحدثته أفكاره «النبيلة»، طبقة النبلاء للافتداء الأكبر، للثورة الفرنسية التي ستكون هذه الطبقة ضحيتها الرئيسية؟

روبسبير^(١) والفشل

إن الثورة الفرنسية مثال مفيد جداً يظهر لنا كيف تم خلال قرن تقريباً استبدال تقاليد نظام قائم منذ مئات السنين بتقاليد نظام جديد، وبيّن بأية مراحل مر هذا التحول قبل أن يصبح نهائياً. فتقاليد النظام القديم، بالرغم من أنها معقدة جداً، هي تقاليد الإقطاعية. وقد تطورت في زمن كان البشر فيه، مثل الماشية والأراضي، يشكلون جزءاً من ممتلكات السيد الإقطاعي. وحتى الثورة الفرنسية، كانت القوانين تصدر عن الملك مرفقة بالصيغة التالية: «هذه هي إرادتنا المطلقة». وكانت هذه الطريقة في الرؤية طريقة عصر أبوي كان السيد الإقطاعي فيه، مثل رئيس العائلة يعتبر الأشخاص في إقطاعيته أطفالاً يمتلك حق ملكيتهم.

لقد كان لهذا العرف العديد من المساوئ بالنسبة إلى حرية معظم الأفراد الذين يعيشون في ظل السيد الإقطاعي الذي كان يتصرف بهم بحسب «إرادته المطلقة»، بطريقة تعسفية في أغلب الأحيان. ومن الصحيح أن هذه المساوئ

(١) مكسميليان دو روبسبير (١٧٥٨ - ١٧٩٤ م) محام فرنسي وعضو في الجمعية التأسيسية الوطنية، وهو أحد اليعاقبة وقد وجّه في الواقع وقاد الحكومة الفرنسية الثورية بدءاً من كانون الأول ١٧٩٣. وقام باستبعاد الهبريين ثم الدانتونيين. جرى انقلاب عليه في ٢٧ تموز ١٧٩٤، وأعدم بالمقصلة. كان يريد نشر الفضيلة، وعاداته التي لا يمكن إعابتها حملت إليه لقب «التزيه».

لم يُشكَّ منها خلال أجيال وقرون . فهذا الوضع يتوافق تماماً مع الحالة الطفولية لذات جماعية كانت تبحث، من أجل الشعور بتوازنها، عن دعم وحماية الأسياد القادرين أو الإكليروس (رجال الدين) المطلقى السلطة . فقد كان النبلاء ورجال الدين، وخاصة كبار رجال الدين، إذاً، ممثلي هذا العرف الأبوي وأصحاب الامتيازات فيه . وأنى مارسوا حقوقهم كانت تتجمع حولهم عائلات العبيد الأقنان والمخلصون الذين كانوا يفوضون أمرهم إليهم كما يفوض المؤمن أمره إلى الله . إلا أن الذات الجماعية نمت وكبرت ففقد الأسياد الإقطاعيون دلالتهم الاجتماعية القديمة ليصبحوا حاشية للملك . ومنذ ذلك الوقت بدأ نظام الإقطاع يلبي بشكل متناقص الحاجة العاطفية لجماعة انتهت إلى اعتباره مصيبة، بدءاً من اللحظة التي بدا فيها المتمتعون بالامتيازات طفيليين غير نافعين . وقد شجّر قبل الثورة الفرنسية بوقت طويل بالحاجة إلى تقاليد جديدة في جميع الأوساط . وتناقص عدد المدافعين عن التقاليد القديمة، وأصبحوا بشكل خاص أقل إقناعاً بعدالة قضيتهم . ويوم استدعى الملك مجلس نواب الدولة، في نهاية كانون الثاني ١٧٨٩، كانت الجموع الشعبية الفرنسية ناضجة لثورتها الكبرى .

ولكن ما هي التقاليد الجديدة التي حلت محل التقاليد القديمة؟

لنترك الكلام لرجل أسهم إلى حد كبير في إنشائها وتحويلها إلى قوانين :
إننا نعني روبسبير . وهذا ما قاله في تقريره عن مبادئ علم الأخلاق السياسية التي ينبغي أن ترشد الجمعية التأسيسية وتوجهها .

«إننا نريد أن نُحل في بلدنا الأخلاق محل الأنانية، والنزاهة محل التسلط، والمبادئ محل العادات والأعراف، والواجبات محل اللياقات، وسيادة العقل محل طغيان العادات الجارية، واحتقار الرذيلة محل احتقار التعاسة، والفخر محل الوقاحة، وعظمة الذات محل الزهو، وحب المجد محل حب المال، والأشخاص الطيبين محل الأصحاب الطيبين، والجدارة محل الدسيسة، والعبقري محل الظريف، والحقيقة محل الروعة، وسحر السعادة محل هموم الشهوة، وعظمة الإنسان محل ضلالة الكبار، وشعباً شريفاً قادراً سعيداً محل

شعب لطيف طائش وبائس - أي كل الفضائل الجمهورية وجميع معجزاتها محل كل عيوب الملكية وجميع نقائصها».

لقد حوّل إعلان حقوق الإنسان التقاليد الجديدة إلى قوانين، وقد اقترح روبسبير في خطابه بتاريخ ٢٤ نيسان ١٧٩٣، أن تضاف إليه البنود التالية:

«البند الأول: إن الأفراد في جميع البلدان إخوة، ويتوجب على الشعوب المختلفة أن تتعاون بحسب قدراتها، مثل المواطنين في الدولة نفسها.

البند الثاني: من يضطهد أمة يعلن نفسه عدواً لجميع الأمم.

البند الثالث: إن أولئك الذين يشنون حرباً على شعب ما لا يقف انتشار الحرية وإهدار حقوق الإنسان ينبغي أن يلاحقهم الجميع، ليس كأعداء عاديين، بل كقتلة وأشرار عصابة.

البند الرابع: «إن الملوك، والأرستقراطيين، والطغاة مهما كانوا، هم عبيد ثائرون في وجه سيد الأرض وهو الجنس البشري وفي وجه مشرع العالم وهو الطبيعة».

ويوم الاحتفال بعيد الرب، حضر شخصياً ممثلو التقاليد الجديدة، أعضاء الجمعية التأسيسية. وكانوا يرتدون لأول مرة زيهم الرسمي بألوانه الجديدة: الثوب الأزرق والسروال القصير، والوشاح والقبعة ذات الرياش المثلثة الألوان. وكان روبسبير على رأسهم، وفي مدرج واسع صعد إلى المنصة وقال أشياء كثيرة منها «إن الرب لم يخلق قط الملوك ليلتهموا الجنس البشري، إنه لم يخلق قط القساوسة لكي يربطونا، كحيوانات حقيرة، إلى عربة الملوك ولكي يضربوا للناس مثل الدناءة والسفالة، والكبرياء، والخداع والفجور والكذب، بل خلق الكون لكي يظهر قدرته، وخلق الإنسان لكي يتعاون ويتحاب بالتبادل، وللوصول إلى السعادة من طريق الفضيلة...».

إننا نعرف جميعاً مصير هذه التصورات الجديدة، التي استعادها لاحقاً بابوف^(١) (Babeuf) والاشتراكيون الذين استندوا إلى أفكار روبسبير. وظهر نجاحها وحدتها حتى في الإيديولوجيات الشيوعية التي ادعت في جماعات وطنية أخرى أنها تتابع الثورة الفرنسية. ونعرف بأية سيرورات حلت التقاليد الجديدة محل التقاليد القديمة وكيف أن ممثلي هذه التقاليد القديمة، خلال عهد الرعب^(٢)، قد جُردوا من سلطتهم، وكيف أن الملك والملكة قد تعرّضا للسخرية وحكم عليهما بالموت وقُطع رأساها. ونعرف أيضاً الرجل الذي استدعته الجماعة لهذه العملية، الرجل الذي يعتبره بعضهم وحشاً، ويراها بعضهم مرشداً عفيفاً، الرجل الذي جسّد السلطة الثورية وقادها إلى النصر. فلندرسه عن قرب لتتعرّف إلى الشخصية التي اضطر الشعب الفرنسي أن يعهد إليها بمهمة إحراق ما كان يعبد.

لقد رسمه بليون^(٣) (Pétion) الذي ارتبط معه في مدينة فرساي، في عهد الجمعية الوطنية والذي كان يعرفه جيداً، وصوّره على الشكل التالي:

«إنه يرى في كل مكان مؤامرات وخيانات وورطات، ولا يعذر أبداً مساً بالكرامة والكبرياء، ويحتاج لأدنى شك، معتقداً دائماً أن الآخرين يسعون لاضطهاده...».

وتكلم لئونوتر (Lenôtre) في كتابه روبسبير ووالده الرب على «رئيته العنيفة التي تقارب هذان الاضطهاد».

(١) هو فرنسوا إميل بابوف الملقب غراشوس (Grachus) (١٧٦٠ - ١٧٩٧ م) ثوري فرنسي يعتبر رائد الشيوعية. تآمر على حكومة المديرين فحكمت عليه بالموت.

(٢) عهد الرعب عهد ثوري أسسه الأعضاء الأكثر نفوذاً في الجمعية التأسيسية بقيادة روبسبير وانتهى بمقتل روبسبير.

(٣) جيروم بليون دو فيلنوف (١٧٥٩ - ١٧٩٤ م) سياسي فرنسي. مختار باريس سنة ١٧٩١.

محام بسيط في آراس^(١) (Arras) أتهم بأن لديه بلاغة مهذرة ومماحكة . وقد وصفه لونوتر كمحام «مجدّد، مثقف، ذي حياة متقشفة ونزاهة دقيقة، لكن تصلّبه وتعاضمه أفقده الكثير من التعاطف والود. إنه لا يستطيع إخفاء ثقته بتفوقه، وبيتسم للذكريات المرضية التي يحتفظ بها عن نجاحاته المدرسية . ويعزو خيالاته الذاتية إلى سوء نية زملائه، وقد تخمّر نزقه الطفولي في الثانوية وتحول الآن إلى ريبة شرسة عند أقل شك بالسخرية» .

لقد شكّكت له هذه الطباع بطبيعة الحال العديد من المشاكل منذ بداياته في آراس . ويستشهد لونوتر بما يلي :

«أدخله صديقه بويسار إلى الأكاديمية الملكية للآداب في آراس، وقد استقبل فيها بإكرام ونال حظوة، ومنحه زملاؤه، حتى في العام ١٧٨٦، شرف الرئاسة، وما هو يقدم، في الجلسة العامة التي تلت انتخابه، مطالعة عمل من جانبه عن هذا الجزء من القوانين التي تحكم مصير «الأبناء غير الشرعيين» . لقد تكلم طوال ساعتين تقريباً ولا نكاد نسمع كلمة شكر من الأكاديمي الجديد الذي ينبغي أن يعلن في ذلك اليوم شكره لتسليمه المنصب الجديد . وقد اعتقدت الأكاديمية، إذ خشيت من أن يصبح هذا المثال الخطير للإطالة معدياً، أن من الحذر تزويد نظامها ببند يحدد مدة المطالعات بنصف ساعة . فرأى روبسبير في ذلك نقداً، فاختمت رئاسته بإظهار استياء، وسيعتذر بخشونة بسبب «أعماله وصحته» وطوال سنتين، لن يظهر إلا ثماني مرات في الجلسات الأسبوعية، فنستنتج من ذلك أن «الصف الأول وحده هو الذي يلائمه» . ثم ذكر لونوتر بعد عدة صفحات ما يأتي : «ولاحقاً، في العام ١٧٨٨، اجتمع المحامون في مؤتمر واستبعدوا روبسبير من هذا الاجتماع، فقام روبسبير الذي أعماه الغضب بإرسال رسالة غير موقعة تشكل «إعلاناً حقيقياً بالحرب» على زملائه في النقابة والوكلاء العاملين الذين اعتبرهم شركاءهم والمتواطئين معهم، ويحتوي هذا النص على الفكرة التالية :

(١) آراس مدينة فرنسية .

إن من الصعب جداً، مهما كانت الفلسفة التي نعتنقها، التألم طويلاً، دون أن تفلت منا بعض الشكاوى، والمريض يثور في وجه القدامى الذي ابتلعوا كل القضايا، وأغلقوا باب المحكمة في وجه المبتدئين الذين لا يبذلون جهداً لإرضائهم أو الذين لا يستطيعون النجاح في ذلك. وقد أظهر نفسه كضحية لهم عندما أضاف: مهما كانت الموهبة التي وهبهم إياها الطبيعة، ومهما كان ميلهم إلى العمل، فإن هؤلاء ينبغي أن يظلوا متأكدين من العيش بخمول دائماً... خيار تعيس بلا شك بالنسبة إلى الشبان الملهذين جداً، فإما أن يكونوا معرضين لعدم القيام بأي شيء... وإما أن لا يدينوا بعنائهم وكذهم إلا إلى مساع مخزية. أليس قاسياً جداً، في الواقع، الذهاب لاستجداء قضية من مكتب وكيل عام تبدو هيئته ولهجته المتكلفة اللطف تقولان: «أنا أراك؟...».

لقد كانت سمة الكبرياء الثائرة هذه تستحق توقيعاً؛ وفضلاً عن ذلك لا يتحيرن أحد في معرفة مصدر هذا النقد اللاذع. فالسيد ليورل (M. Liborel) الأكثر كفاءة للإجابة عن هذه الرسالة. فهو الذي قدم روبسيير، منذ عهد قريب، إلى مجلس مدينة أرتواز (Artois) - عرف كاتبها فوراً وقال قبل أن يجف مدادها: «إننا لا نستقبل قط بيننا النمامين والخبثاء الأشرار الذين لا يبثون إلا الحقد... فتعساً ثم تعساً لكم، أنتم الذين لا تشعرون بنبذ المهنة التي تدعون القيام بها! إن المصلحة الدنيئة والجشع الوضعي يخيمان في أعماق قلبك والغيرة الدابة تحملك على محاولة أن تشد إلى مستواك رجالاً مجربين مستنيرين ومتشرعين نزيهين لا يدينون بالثقة الشعبية إلا إلى مواهبهم وعلومهم ومعارفهم... فليس لديك ما تشكو منه؛ وإذا كان ما تقوله صحيحاً، فلديك أكثر مما يجب للنجاح، إذا لم يكن يتوجب من أجل هذا إلا الدناءة...».

وإجمالاً إذا كان روبسيير لم يترك مدينة آراس بعد نجاحه في أن ينتخب نائباً في الجمعية الوطنية، فإن وضعه كمحام قد تعرض على الأثر للمشاكل العديدة التي أثارها ضده. فقد كان منذ بداية نشاطه صاحب خلق متصلب ومتزمت. ففي فرساي، في مجلس السلطات الثلاث، لم يكن يشرب إلا

الماء، على حد قول أصدقائه. ولم يعرف له أحد مغامرات نسائية، والروايتان اللتان تناولتا حياته ووصلتا إلينا، تبدوان عذريتين على نحو مثير للثناء.

في آراس، نجح في أن يجعل فتاة من عائلة ميسورة تحبه، وهي الأنسة ديزورتي (M^{lle} Désorties). ولكنه تذرّع بواجباته كنائب كي يوقف تطور هذا الأمر، وبعد بعض الوقت، سلته الأنسة ديزورتي وانتقلت بعواطفها إلى شخص آخر. كما أن علاقات روبسبير مع الفتاة البكر في اسرة دوبلاي (Duplay) معروفة. فقد كانت خطيبته لبعض الوقت، ولكن أحداً لم يسمعه، وحتى المقربون منه، يتحدث إليها بحب. لقد كان يتذرّع بالفضيلة وأمور الدولة؛ ويرى أن الزواج سيتم لاحقاً، عندما ينتهي كل شيء وتنقذ فرنسا. وفي الواقع، كان يبدو عاجزاً مع النساء. ولكي نفهمه، ينبغي دراسة سوابقه، شبابه الأول عن قرب.

إن مكسميليان دورويسبير كان أول أربعة أولاد: صبي ثم فتاتان ثم صبي آخر. وهناك ولد خامس لم يعش، كما أن ولادته كلفت أمه حياتها. إذا ماتت والدته روبسبير مثل والدته جان - جاك روسو. وقد ولد مكسميليان بعد أربعة أشهر من زواج والديه، السيد فرنسوا دورويسبير، المحامي في مدينة آراس، الذي لم يكن من النبلاء ومع ذلك صدر اسمه بالأداة (دو) (de) الخاصة بهم؛ والأنسة كارو (M^{lle} Carrault)، ابنة بائع جعة صغير في مدينة آراس. وقد تم الزواج في ٣ كانون الثاني ١٧٥٨، بعد إعلان عنه قبل العشية. ولم يحضر أي من والدي العريس إبرام العقد ولا الحفلة الدينية.

ويبدو أن والد روبسبير كان شخصاً غريب الأطوار. ويبدو أن زواجه قد فرضته الظروف، إذ تمّ لمنع فضيحة، فالأنسة كارو كانت حبلى. ومن المرجح أن يكون الولد غير مرغوب فيه وأنه سيُعتبر، منذ ولادته، مصدراً للتعاسة بالنسبة إلى العائلة. ونحن نجهل كل شيء عن أمه. وقد وصفتها شارلوت، أخت روبسبير، في مذكراتها بأنها ودودة جداً. لكن شارلوت كانت في السنة الرابعة من عمرها عندما ماتت أمها، وهي ذات ثمانية وعشرين عاماً. فماذا كانت

تستطيع أن تعرف عما كان يجري بين والديها؟ . لقد روت لنا بسذاجة أن هذا الموت سبب تعاسة كبيرة لوالدها، وأنه، لكي ينسى حزنه، قام برحلة ولم يعد أبداً. ما هي الحقيقة؟. إننا لا نعلم إلا النادر من الأمور عما جرى، ولكن هذا القليل يقول أشياء كثيرة. ولندع الحديث للكاتب لونتو:

«إن مأساة غامضة قد أحاطت بالموت المبكر للسيدة دو روبسيير: فقد امتنع زوجها عن توقيع شهادة الوفاة في سجل كنيسة مدينة سانت - أوبر (Saint - Aubert)؛ ولم يحضر المأتم ولا الدفن في الكنيسة. فلما أن يكون حداده قد أضع رشده، ولما أن يكون تأثير زوجته قد كبح حتى ذلك الحين غرابة طبيعية صارت من الآن فصاعداً مطلقة العنان، فقد كف عن الترافع، وعاش في بطالة طوال عدة شهور، وغادر آراس تاركاً أولاده الأربعة دون ما يقوم بأودهم ليستقر في قرية سوشي - كوشي، بالقرب من مدينة ماركيون (Marquion) حيث عمل في خدمة قاضي السيد الإقطاعي في ذلك المكان. وبعد ستة أشهر، عاد إلى آراس، وعاش فيها بعض الوقت، بلا عمل، وقد اقترض سبعة مئة ليرة من أخته أولالي (Eulalie) وهنرييت (Henriette) الوردتين جداً والتقتين اللتين لا تملكان إلا القليل جداً من المال، ثم اختفى مجدداً طوال سنتين دون أن يكون من الممكن اختراق لغز اعتزاله العمل. وسنراه مجدداً، في تشرين الأول من العام ١٧٦٨، يطلب بالبحاح مساعدة مالية من جدته، المنزوية منذ ترملها في دير سيدات السلام، وقد حصل عليها بكل تأكيد لأنه في هذا التاريخ نفسه تخلى شخصياً هو وأبناؤه عن حقوقهم بأي ميراث مرتقب. وبعد أن جازف بهذا الشكل بمستقبل أولاده هاجر فرانسوا دو روبسيير واستقر في مدينة مانهايم (Mannheim) في ألمانيا».

إذاً، لم يبال والد روبسيير كلياً، بأولاده بعد موت زوجته، وقد ربت هؤلاء الأولاد عائلة أمهم. وقد عاد إلى آراس، ورافع فيها في عدة دعاوى، لكنه لم يحاول أبداً رؤية أولاده.

فما هو هذا الاتحاد الذي تم بين مثل هذا الأب وأم روبسيير؟

لقد بدت قبل موتها تعيسة ولاسيما أن فرانسوا دو روبسبير على ما يبدو لم يتوصل إلى مواجهة واجباته المادية ولا واجباته الأخلاقية. ونشعر أنها كانت ضحية مثل أولادها، وأن الأب قد هجرها كلياً على الأثر. ونعلم أن الأختين أولالي وهنرييت هما اللتان تعهدتا البنيتين الصغيرتين، شارلوت ذات الأربعة أعوام، وفرانسواز ذات الثمانية عشر ربيعاً، أما الصبيان فقد أخذهما والد أمهما الذي اهتم بمكسميليان وعمره عشرة أعوام وأوغوستان - بون الملقب بون بون وعمره ثمانية عشر شهراً. وما إن تعلّم مكسميليان القراءة والكتابة حتى تابع دراسته في الصفوف الثانوية حيث تعلّم القساوسة بإشراف الأسقف، أطفال المدينة مجاناً. وقد تحدث لونوتر عن روبسبير في هذه المرحلة فقال: «كشف رفاقه طباعه البغيضة ولم يتحملوا رغبته المفرطة في السيطرة، ولكنه تحلّى، إلى جانب هذا الغرور المبكر، بحماسة كبيرة للعمل وبنوع من العناد لاحتلال المركز الأول. وفي الحقيقة، كان روبسبير يعاني الشفقة التي يثيرها بؤسه. وربما لأن جدته (والدة أمه) السليمة النية ولكن الكثيرة لتأنيب، كانت تحثه صراحة بحماستها للدراسة على الاعتراف بالتضحيات المفروضة عليها. وإذا كان الولد، بشدة تأثره بالمراقبة الراصدة، قد اكتشف بعض هذه التبرّات والمساومات المألوفة في الأسر الصغيرة التي تثقل ميزانيتها المتواضعة أية نفقة إضافية، فإن هذا الأمر يفسر مزاجه النكد المبكر وميله العنيف إلى العزلة. ولم يكن لديه أمٌ لتلاحظ ما يعانيه من مشقة ولتزيلها بملاطفة ومداعبة».

إذاً، كان روبسبير وحيداً، وقد دخل بفضل منحة إلى ثانوية لويس الكبير في باريس، وتابع فيها دراسته. وقد وصف لونوتر طباعه في الثانوية الباريسية على الشكل التالي: «مهما كانت صعبة قراءة قصة حياة تلميذ يقدّمه بعضهم كظاهرة لطف وطاعة، ويقدمه بعضهم كشاب فظ وشرس يحلم بالدم، يسن أسنانه لتمزيق أولياء نعمته، فإن من الأكيد أن مثابة روبسبير على العمل لم تفتري يوماً واحداً طوال السبع سنوات التي تابع فيها دراسته في الثانوية الكبرى الباريسية، وأن نجاحاته، فضلاً عن ذلك، تشهد على مثابرتة. وكان يعلم أن فظاظة طبعه لا تكسبه صداقة رفاقه ولا ثقة أساتذته، فكل شيء صحيح في

مذكرات أحد هؤلاء الأساتذة، الذي نشر، في المهجر، باسم مستعار، حياة روبسبير، بشكل متحيز مثل قرار الاتهام. لقد أظهر لنا الولد المجّد المثابر المتبجح بتفوقه الشخصي، ويظل على مبعدة من رفاقه، وغالباً، خلال فترات الاستراحة الخاصة في قاعات الدراسة، كان يُترك وحيداً وكانت لديه القدرة على البقاء في هذه الحالة ساعات كاملة، متظاهراً بالاكتماء بنفسه ومفضلاً على التسلية الصاخبة أحلام اليقظة القائمة والنزهات المنفردة.

وإذا دُعي في صفه إلى الموضع الأول، توجه ليجلس فيه دون عجلة متمهلاً كأنه المكان الوحيد الذي يناسب مواهبه. كان يتكلم قليلاً، ولا يقوم بذلك إلا عندما يصغى إليه، ويتكلم دائماً بلهجة حاسمة. وربما تخفي هذه الكبرياء الخزي الذي يعانيه من فقره؟ ومن يعرف ما إذا كان المسكين المخذول لم يتألم من كونه ليس كالآخرين، وما إذا كان لا يحمرّ خجلاً من ثيابه الممزقة وحذائه المهترىء؟ لم يفكر في ذلك غيره لأنه يخشى الإهانات.

أصبح روبسبير طالباً مجّداً، طالب مجد، وسيكون كذلك في كل مكان يتوجب عليه فيه إخفاء مشكلة أو حرج أو دونية. وسيكون المنطق، تعويضه الكبير ووسيلة عمله الكبيرة، السند الذي يدعمه في نضاله ضد بؤسه الداخلي. فكيف تظهر حالته من وجهة النظر التي تهمنا؟

إن مكسميليان ولد لم يكن والداه يرغبان فيه. وقد سبق أن رأينا بأي شعور عضال بالدونية يتصرف ولد لم تحبه أمه. إنه يشعر دائماً بأنه مكروه. وعلاوة على ذلك، انحازت ذاته الخارقة ضده لإرهاقه وإذلاله، معيدة إنتاج موقف الوالدين. فلا شيء يثير العجب في أن يصبح روبسبير، الطفل المهمل، كائناً منعزلاً يدفع الآخرين إلى تركه، وإلى اضطهاده. والحق أنه كان يقاوم هذا الخطر. إذ سيسعى دائماً إلى كسب من يحيط به وإلى تدارك عداوتهم. وأصبح حكيماً وفاضلاً ليكتسب الأشخاص، وليستر عن عيونهم التمرد العميق والكره،

والادعاءات التي بوساطتها سيرد بشكل عنيف على بؤس طفولته، وهجر والده. وسيجهد نفسه لكي يبدو مسالماً ونزيهاً، رغم كل الادعاءات المتراكمة. ولن يطالب أبداً بأي شيء، مهما كان، لنفسه، وسيترافع دائماً في قضايا الآخرين، التعساء، المحرومين، المهجورين الذين يجد فيهم ذاته، دون أن يعرف ذلك، ومحاولته الدفاع عنهم ضد الملوك والآباء الساقطين، هي تنويج بالنسبة إليه.

وهكذا أصبح الناطق بلسان الطبقات البائسة التي تخلى عنها نظام لم يعد يحمل وظائفه على محمل الجد، ولم يعد يقوم بدوره الأساسي. لقد أصبحت ثورته اللاشعورية ثورتهم، وقضيته قضيتهم. وبتعظيمه الفضيلة، وسلطة الشعب العليا منح نفسه بعض الشجاعة، ويجعله الأسياد الإقطاعيين يرتجفون اطمأن إلى مشهد قدرته، وباستخدامه سلاح الرعب كان يعاقب نفسه للتقليل من إثمه الذي سببه نجاحه ونجاح رفاقه. وذاته الخارقة العنيفة بكل تأكيد هي التي حكمت عليه بهذه الحياة المتقشفة ومنعته من تذوق السعادة البشرية. فصديقه ديمولان (Desmoulin) ومعاونه دانتون (Danton) اللذان تزوجا حديثاً تمردا على الديكتاتور الفاضل فسلمهما إلى الجلاد مثلهما مثل أصحاب الامتيازات الذين كان لا يرى فيهم إلا أشخاصاً فاسدين ينبغي إبادتهم. والحكومة التي كان يحلم بها هي حكومة متزمتة صارمة، عدوة لكل تنازل ولكل فرح، فنعثر هنا بكل تأكيد على هذه القوة التي يبدو أنها أفلست حياة روبيبير الجنسية. إذ لم يكن لدى هذا المتعصب للثورة إحساس غير الإحساس الذي يثيره فيه كره الحياة. وعندما كان يتوجب عليه الظهور بشكل رقيق، كان ينصح، أو أيضاً يتصنع، كاذباً على نفسه كما على بلده. ويفسر هذا الأمر لماذا لم يستطع أي شيء إبقاءه في عمله على استئصال أصحاب الامتيازات، أنى وجدوا فيها، ولماذا كان يحلم كذلك لكل فرد بمساواة في الحقوق والملكية لكي يبيد كل امتياز، وكل تفاوت، ومع ذلك هذا التفاوت واضح جداً في الحياة المميزة والحياة الجنسية.

إن تصوره للعالم وطبقات المجتمع يتحدّد إلى حد كبير في المستوى الشرجي من النمو العاطفي، مترافقاً مع مركّب فمّي قوي، منكراً على الناس التمتع بخيراتهم. وروبسيير نفسه، قبل أن يُعَدَم بالمقصلة بوقت طويل، كان قد دين من قبل ذاته الخارقة. ومن المؤثّر أن نرى كيف انتهى بشكل شرّس، وكم كان من المستحيل عليه الإفلات من الطوق الذي يمنعه من الانتصار والذي سيجد فيه الموت. مع أنه حاول مرات كثيرة الإفلات منه. وربما يفسر هذا الأمر المعنى الحقيقي لعلاقاته مع عائلة دوبلاي، فقد كان من الطبيعي من شخص مثله حُرِم من العائلة منذ طفولته الأولى أن يفتش عن عائلة تتبناه. وقد أصبح بالفعل، في باريس ابنهم بالتبني. وقد قدّم إلينا لونيوتِر وصفاً رائعاً لمنزل هذه العائلة:

«مع أن حالة البناء قد تغيرت قليلاً، فإن مظهره يختلف بشكل ملموس عن مظهره في السنة الثانية من الثورة الفرنسية، فالبيت، فضلاً عن البيوت المجاورة، لم يكن يتألف في ذلك الحين إلا من طابق واحد في حين ينوء الآن بطوابقه الخمسة؛ والفناء الضيق الذي نراه اليوم معتماً جداً كان مسرحاً للهواء وأشعة الشمس، بفضل الحدائق الواسعة التابعة للدير الذي كان يجاورهم، ولعائلة دوبلاي باب خروج عبرها مازالت آثاره قائمة. وفي هذا الفناء كانت فتيات العائلة يعتنين بحديقة صغيرة - حوض أزهار - يحيط بمشغل النجارة، وكان العمال، طوال النهار، ينشرون الخشب، ويصقلونه، ويدمجون بعضه في بعض بضربات المطرقة الصاخبة، تحت نافذة روبسيير، الذي كانت غرفته الصغيرة تغرق برائحة الخشب الجديد الريفية وبالنشارة الطازجة.

كانت غرفة روبسيير قاعة ضيقة، تسبقها حجرة صغيرة ضيقة، وفيها بعض الكراسي المصنوعة من القش، ومكتب متواضع جداً، وسرير من خشب الجوز تغطيه ستارة زرقاء كانت سابقاً ثوباً للأنسة دوبلاي؛ وخزانة مسندة إلى الحائط تُستعمل كمكتبة. وكان الدرج المؤدي إلى هذه الخلية يبدأ من غرفة الطعام الموجودة في الطابق الأرضي القائم في عمق الفناء، ويمكن الوصول

إلى هذه الخلية كذلك بوساطة الدرج الكبير الأساسي للبناء، ونجده إلى يسار الباب الخارجي ومازال موجوداً حتى الآن. وينبغي في هذه الحالة اجتياز غرفتين ضيقتين يشغل إحداهما الابن الأصغر في عائلة دوبلاي التلميذ الثانوي، ويشغل الأخرى ابن عمه سيمون الذي كان يعمل أحياناً كسكرتير لروبسيير. وسيمون دوبلاي هذا، تطوع في الجيش من تلقاء نفسه وجرح في فالمي^(١) جرحاً خطيراً أدى إلى بتر ساقه، وكان يدعى غالباً: دوبلاي ذا الساق الخشبية.

وكان روبسيير يخرج عادة باكراً، بعد تناول القهوة إلى مائدة العائلة، إذ تفتتح جلسة الجمعية التأسيسية عادة عند الساعة العاشرة صباحاً وتمتد حتى الثالثة أو الرابعة بعد الظهر. وتخصص الأمسية لليعاقبة^(٢) الذين لا يعطلون إلا نادراً. إذاً يتم تناول العشاء نحو الساعة الخامسة بعد الظهر. وقد ازداد عدد الأشخاص الذين يتناولون الطعام منذ أن آوت العائلة الرجل الكبير، فكل يوم تقريباً تجد السيدة دوبلاي مدعوين إضافيين. والأشخاص الذين يترددون على المنزل غالباً هم بيير فوجوا (Pierre Vaugeois)، وشقيقه النجار دوشوازي (de Choisy)، وفيليب لوبا (Philippe Le Bas)، نائب آرتوا^(٣) (Artois) الشاب، الجميل الصورة، وذو النفس الأبية والمفعمة بالحماسة، وقد كان كاتب محام قبل الثورة الفرنسية في مكتب النائب العام بوردون (Bourdon) الذي أصبح نائباً عن مقاطعة اللواز (l'Oise)، وبيوناروتي (Buonarotti) أحد أحفاد ميكيل

(١) فالمي (Valmy) مدينة فرنسية جرت فيها معركة استطاع الفرنسيون فيها إيقاف تقدم البروسيين.

(٢) اليعاقبة: منتدى ثوري كان يعقد جلسات في دير اليعاقبة في شارع سانت أونوريه في باريس، وكان روبسيير أحد خطبائه الرئيسيين.

(٣) مقاطعة في شمالي فرنسا.

آنج^(١)، وهو إيطالي حصل على الجنسية الفرنسية بوساطة اقتراح رسمي للجمعية التأسيسية، وهو مولع بالمساواة وسيساعده طوال حياته وسيبقى حتى شيخوخته أميناً لشعائر روبسبير، وديدييه (Didier) صانع أقفال في مدينة شواسي وصديق فوجوا، وغرفيه (Gravier) وهو مواطن من مدينة ليون، يعمل في التقطير وكلا الاثنين يسكنان في شارع سانت أونوريه في المنزل المجاور مباشرة لمنزل دوبلاي، ورسام إيطالي، شيتي (Cietty)، المولع بصناعة الأوراق الملونة في مونتروي (Montreuil)، ودافيد الذي يعتقد أنه سياسي كبير لأنه رسام كبير، ولكي يعاشر روبسبير، تفضل بالتنازل عن عليائه وتردد على النجار. وملتقي هناك أحياناً لوهيه (Lohier) وهو بقال شارع سانت أندريه للفنون الذي يمّون منزل دوبلاي . . . ».

إذاً، هذا هو إطار حياته الباريسية، وفي هذا الوسط احتُرم روبسبير، وكان يهيمن، كلّ القدرة. لقد وجد أصدقاء حقيقيين في هؤلاء الأشخاص البسطاء، الخالين من العُخبث، بين أشخاص شرفاء، وآباء عائلات شجعان وسيدة باسلة، وفتيات باسلات. وفي هذا الوسط تفتح وازدهر، وحتى توصل ، بعض لحظات الاسترخاء النادرة إلى المطالعة. فقرأ روسو، وكورناي^(٢)، وراسين^(٣) على أصدقائه، فيما يمسك بيوناروتي بالقيثارة ليرافق لوبا الذي يعزف على الكمان.

وفي الحقيقة كانت لحظات العفوية هذه قليلة، إذ يكون عادة مرهقاً

(١) ميكل آنج الرسام الإيطالي المشهور والنحات الخالد ولد سنة ١٤٧٥ وتوفي سنة ١٥١٤ زين كابيلا سكستين وترك منحوتات رائعة مثل داوود وموسى .

(٢) بيير كورناي (١٦٠٦ - ١٦٨٤) شاعر درامي فرنسي، كتب مآسي عدة منها: السيد، وهوراس، وسينا، أول من أبدع أبطالاً أولوا المؤامرات اهتمامهم.

(٣) جان راسين (١٦٣٩ - ١٦٩٩) شاعر فرنسي، ألف عدة مآسٍ أشهرها أندروماك، تقييد بقواعد المسرح في زمنه.

بالعمل . فعمله وذاته الخارقة لا يسمحان له بالعيش . فإلى أي حد وصلت عاطفته نحو إليانور دوبلاي (Eléonore Duplay) التي كانت تعتبر خطيبتها؟ إننا لا نعلم شيئاً محدداً، ولا نستطيع القيام إلا بافتراضات . فمن المرجح للغاية أن هذه العلاقة، إذا استطعنا تسميتها علاقة، لم تكن إلا واجهة، مظهرًا خارجيًا، وحديقة للمسكينة إليانور ولنفسه أيضاً .

ويظهر لنا التحليل النفسي إلى أي حد يعجز الأشخاص الذين يملكون طبيعة مثل طبيعته عن إظهار أية دلائل عفوية على الإحساس الرجولي . فقد كان روبسبير يحب ما يمكن أن يفكر فيه الآخرون عن حقيقة علاقاته مع إليانور . إذ كان يتيح له ذلك إخفاء خواء قلبه دون اضطراب، عن النيات الطيبة، بكل تأكيد، التي لم يكن يثيرها أي صدى، وأي حمية . وربما أتاحت له مودة أولئك الذين يحيطون به استعادة قليل من الثقة بنفسه . إذ يبدو من المؤكد أنه لم ينجح في التعبير عن نفسه وفي إظهار نفسه كما هو في الحقيقة، وفي الاسترخاء . غير أنه لم يستطع إلا بهذا الثمن التوصل إلى العيش بمودة وحنان . ولكن توجب عليه قبل كل شيء الظهور بمظهر رجل كبير كلي القدرة، فاضل وذو طيبة فائقة . لقد كان متعلقاً هو نفسه، على الأرجح، بهذه الأسطورة، لكي لا يغرق في يأس العدم الذي خلفه موت أمه وتخلي والده عنه . لقد كان أناه الخارق يردد بشراسة على مسامع هذا اليتيم أنه وحش مخيف لا يستطيع أي إنسان أن يتعلق به، أنه شيطان صنع، منذ لحظات وجوده الأولى، تعاسة الآخرين . إن إدانة الأنا الخارق هذا، جهر بها آلاف الأشخاص في وجه الرجل الذي كان يقول عن عهد الرعب، في تقريره عن مبادئ الأخلاق السياسية التي ينبغي أن تقود الجمعية التأسيسية ما يأتي :

«إذا كان محرّك الحكومة الشعبية في السلم هو الفضيلة، فإن محرّك الحكومة الشعبية في الثورة هو في الآن نفسه «الفضيلة والرعب»، الفضيلة التي من دونها يكون الرعب مضرًا مشؤومًا، والرعب الذي من دونه تكون الفضيلة عاجزة، إذ ليس الرعب شيئاً مختلفاً عن العدالة العاجلة، والصارمة والقاسية،

فهو إذاً تعبير عن الفضيلة وانبعائها، وهو نتيجة للمبدأ العام للديمقراطية المطبقة على أكثر حاجات الوطن إلحاحاً، أقل مما هو مبدأ خاص ومستقل.

لقد قلنا إن الرعب كان محرك الحكومة الاستبدادية. فهل يشبه رعبكم الاستبداد في هذه الحالة؟ نعم، مثلما يشبه السيف الذي يلمع في أيدي أبطال الحرية، السيف الذي تسلح به أتباع الطغيان. فليحكم المستبد بوساطة الرعب رعاياه المخبولين، فهو محق كمستبد؛ أخضعوا بالرعب أعداء الحرية، وستتصرون كمؤسسين للجمهورية. فحكومة الثورة هي استبداد الحرية في وجه الطغيان. ألم تُصنع القوة إلا لحماية الجريمة؟ ألم تخصص الصاعقة لضرب الرؤوس المتعجرفة؟»

لقد وصف لنا الكاتب لونوتر تأثير الرعب الذي عمل روبسبير على نشره في فرنسا: «في تلك الآونة، جذبت ضجة فضيلة من الفرسان في الشارع النساء إلى النوافذ؛ فنظرن إلى الجنود يمشون وقالت إحداهن: لعلهم أولئك الجنود الذين سيحرسون في الملحمة الوطنية. وساد الصمت في الغرفة: فهذا التذكير بالمقصلة جمد التمجيد الروحاني للأشخاص الأكثر حماساً، وفكر الجميع في التعساء الذين، في تلك الساعة نفسها، كما في كل أيام ذاك الصيف المخيف في العام الثاني للثورة، كانوا يقاسون أهوال العذاب، ويعانون القلق الفظيع في هذا السير (البطيء، في العربة، من السجن إلى منصة الإعدام. وسمع ايرون (Héron) فتاة شابة تعبر عن أفكار الجميع بقولها وهي ترتعش: إذا ذهبت إلى منصة الإعدام يوماً، فسأود أن أكون أول من يُعدم. فكتب هذا القول في المحضر الرسمي كحادث لا قيمة له: غير أن التفسير كان هناك، والتبرير نفسه للمشهد الهزلي الذي كان الشاهد عليه، فعندما كان أكثر من ثمانية آلاف تعيس، محكوم عليهم بالإعدام، يملأون السجون، وعندما كانت الزيارات المنزلية تنهب ساكني المنزل كلهم، من أجل زهرة زنبق محفورة على عقرب ساعة حائط، من أجل تاج مطبوع على غلاف كتاب؛ عندما كان الناس يرتجفون من ضجة عربة خيل تسير على بلاط الشارع، من ضربة مقرعة الباب، من خطى مجهول يصعد الدرج، عندما لم يعد يجرؤ أحد

على النوم، على الخروج، على الكلام، على فتح صحيفة، خشية أن يقرأ فيها، في زاوية المحكمة الثورية اسم صديق أو قريب تركه الليلة الماضية، وأخذ، وحوكم، ودين، وذبح في أربع-وعشرين ساعة - وعندما يُرهقون كثيراً من الكابوس المزعج، يهرع الأشخاص المساكين الذين جعلهم عهد الرعب محرومين من تشجيع الصلاة وتعزيتها، إلى عرافة شارع كونتر سكارب: فهذه، على الأقل، تنبئهم أنهم لن يصابوا بسوء، وتكلمهم على السعادة والسلام، على الشباب الدائم، والخلود وعدم الموت!». .

ولكن، أليس من هذا الرعب، من هذه الملحمة، قد سعى روبسبير عبثاً إلى الإفلات بنفسه، بإسقاط ثقل رعبه الشخصي وجرمه على الآخرين، وفق طريقة الدُّهانين؟ فهو لم يستطع أبداً حضور إعدام واحد، مادام المنظر يجعله يرتجف من الخوف. وقد نعتته قارئة كف كان يتردد عليها بالجبان لأنه كان عند رؤية تسعة البستوني يصبح أخضر، ويحتاج قلبه قلقٌ فظيع. لا، لم تكن السعادة البرجوازية الصغيرة والشريفة عند عائلة دوبلاي لواحد مثله. فقد كان من اللطيف الحلم بها، التصور أن حياته كان من الممكن أن تكون مثل هذه الحياة، لو أنه في طفولته رعت إحساسه، أم حنون وأب عادل ومنصف، من اللطيف التفكير أن حياته، المكرسة للانتقام، كان من الممكن أن تقوم بخلق سعادة حقيقية، ومنزل سعيد، وأن يده، التي كانت تكتب، ليل نهار، بأسلوب مباحك، تقارير غير مفهومة لإرسال آلاف الضحايا إلى منصة الإعدام، كان بإمكانها أن تستقر على رأس طفل له لو أن أنا - خارقاً شرساً لم يقرر خلاف ذلك.

إن آل روبسبير ستيبيدهم هذه الحتمية القدرية. إذ لن يتزوج أي منهم. فبون بون سيتبع ماكسميليان إلى الموت، وشارلوت، الحادة والفاضلة ستبقى عازبة، وستموت فرانسواز شابة، وهي ذات اثنين وعشرين عاماً.

وراثه بسيطة؟ ربما. ولكن ألم يُقَضَّ على سلالة روبسبير في اليوم الذي تخلَّى الأب بنذالة عن أولاده بحرمانه من إرثهم المنتظر؟ وهنرييت دو روبسبير

نفسها، أخت هذا الأب الرديء، ومع أنها أسهمت في تربية الأولاد، ألم تفعل فعل أخيها؟ ألم تتزوج في سن متأخرة من طبيب اسمه روت (Rut) وقد قام هذا الطبيب بكل شيء لتجريد الأولاد من الإرث الذي قد تتركه عمتهم لهم؟ بالفعل، لم يكن لهؤلاء الأولاد حظ مع أسرهم، ونستطيع التساؤل عما إذا لم يسهم هذا الأمر في تطوير شراسة روبسبير تجاه كل من كان نبيلًا أو يدّعي أنه كذلك.

وهكذا، بدلاً من الوصول والنجاح، هل كان روبسبير مرغماً على قيادة نفسه إلى الإعدام في اللحظة نفسها التي كان يستطيع فيها الأمل بالانتصار على كل الخطوط، وبأن يصبح رئيس فرنسا بلا منازع، ويحل محل الملك. كيف جرى كل هذا الأمر؟ ومرة أخرى، سندع الكلام للكاتب لونيتر الذي تلمّس برهافته الفريدة مأساة روبسبير:

«بماذا كان يحلم، إذاً؟ إننا لا ندري ذلك. ولكن هل عرف هو نفسه بما كان يحلم؟ ها هو الآن في الذروة، يمسك بالجمعية التأسيسية، باليعاقبة، بكمونة باريس، بالجيش الباريسي، بالهيئة الانتخابية، بكل أندية فرنسا بالجمعية الوطنية الثورية التي «طهرها» خفية، بحياة وثروة كل المواطنين: يصغى إليه الآن باحترام - أو بتخاذل، لأن الأزمان البطولية قد انتهت. وجاء دوره أخيراً - أخيراً: - ليرى الآخرين يزحفون، وها هو، في هذا الصمت الكبير الذي فرضه الموت حوله، مأخوذ بنوع من الخوف. فإلى جانبه، شريكان أمينان: سان جوست (القديس العادل)، ديك المدينة، الجميل، الباسل صاحب الحكم، الرؤيوي - وكلوتون، ذو العقل المحدود والثاقب، الذي ألقاه شلل نصفي قديم، رجل لطيف ومرعب «شارب الدم» ذو وجه «ملائكي»، مقيد بحمية مقتصرة تقريباً على شراب اللوز وحليبه. هذان «المتعصبان» الاستثنائيان، الأول مصاب بنقرس القدم والآخر في الجيش غالباً، إذاً العزلة مطلقة حول ذاك الذي يمسك بصولجان الموت والذي مظهره وحده يقلق كلغز ملح.

كان يُنتظر ظهوره. كيف سيستخدم سلطته؟ ماذا ستكون النتيجة، خاتمة العديد من المجازر، الكثير من الدم الذي يستمر في السيول كل يوم؟ ودام الانتظار شهراً. وأخيراً، في السابع من أيار ١٧٩٤، في بداية الجلسة، صعد إلى المنصة، وفي الصمت الثقيل، الذي يحدثه الآن ظهوره، بدأ قراءة تقرير. ومنذ الكلمات الأولى، أوضح أن فرنسا في قمة السعادة فقال «في الازدهار يتوجب على الشعوب أن تستجمع قواها لتصغي إلى صوت الحكمة... صوت الحكمة، لقد كان هذا الصوت صوته، أما الازدهار... فقد تم في باريس، في الليلة الماضية قطع ٢٤ رأساً وسيقطع ٢٥ رأساً هذا النهار... وتابع روبسبير كلامه، بعصبية أشد من المعتاد: التشنج الذي يقلص وجهه المجذور، عزف أصابعه الرديء المحموم على خشب المنصة يفضح اضطرابه. فقط بعض البصاق على أعدائه المجندين، على كوندورسيه^(١)، الأكاديمي الذي تحتقره جميع الأحزاب، وعلى دانتون^(٢)، الأكثر تصنعاً بين المتأمرين، إن لم يكن الأكثر تخاذلاً بينهم... والخطاب، المعنى به جداً، ظل في طبقات الماورائيات العليا؛ لقد كان فعل إيمان بالرب وفعل اعتقاد بالحياة الأزلية، وقد بلغت بعض المقاطع الفصاحة الرائعة؛ لكن مسار الخطاب كان متعرجاً مراوفاً، وتطوره مبهم إلى درجة أن المستمعين لم يتيبنوا إلى ما سيفضي. فكانوا يصفقون كلما استطاعوا ذلك. واستخلص روبسبير، بتقديم مرسوم يعترف بوساطته الشعب الفرنسي بوجود الكائن الأسمى وبخلود الروح، ما لا يسمح بإحداث نوع من الدهشة والذهول».

فماذا يعني هذا الإظهار لإيمان غير متوقع من جانب رجل ثوري؟ ما هو هذا الكائن الأسمى الذي سيعلن روبسبير نفسه، على الأثر، كاهناً كبيراً له،

(١) أنطوان كاريتا، مركز كوندورسيه، (١٧٤٣ - ١٧٩٤) فيلسوف وعالم بالرياضيات وأحد أعضاء الجمعية التأسيسية، كان يهتم بشكل خاص بتطور التعليم الرسمي.

(٢) جاك دانتون، عضو الجمعية التأسيسية الفرنسية (١٧٥٩ - ١٧٩٤) مؤسس المحكمة الثورية وعضو هيئة السلامة العامة، اتهمه روبسبير بالخيانة والاعتدال وأعدمه بالمقصلة.

في حين كان الجميع يتوقعون منه أن يظهر كرئيس دولة؟ لماذا هذه الاهتمامات الماورائية لدى هذا المرشد لثورة دموية ولهذا القرار من الجمعية التأسيسية الذي وفقه ستعترف فرنسا بوجود الكائن الأسمى وخلود الروح؟ لماذا في اللحظة التي لم يتبقَّ له فيها إلا الجلوس على العرش وحكم شعب لا يطلب إلا الرجوع إلى سلطة حازمة وحقيقية، أكان يختلق وجود رب جديد كي يعلن نفسه علانية كاهنه الأكبر؟

في لحظة الوصول والتمتع بانتصاراته، في اللحظة التي نجح فيها بأن يعهد بالمراكز الأكثر أهمية إلى أصدقائه ومساعديه، في اللحظة التي تمت فيها تصفية ممثلي التقاليد القديمة واستبدالهم بخدام التقاليد الجديدة، في هذه اللحظة تراجع. ألم يستطع أن يرى نفسه حراً، وهو الذي طالما تكلم على الحرية؟ ألم يستطع التنكر للطاغية الذي جندله - لأنه اختلق وجود طاغية أسمى؟ ألم يستطع إحساسه متابعته في مشاريعه اللاشعورية؟ أصرخ به «ليس هذا ما أريده، لم تخلق أنت للانتصار، أنت عبد الكائن الأسمى، أنت مقدّر لك الفشل والزوال!». كيف أخفى خوفه من النصر، واضطرابه به ورعبه الذي يمنعه من ارتقاء العرش المقدم إليه؟ واليانور، خطيئته التي كان يشعر بإعجابها غير المحدود، إعجابها كأمة لا تطلب إلا خدمة سيدها، ألم يسع كثيراً إلى وقفة، إلى وضع لإخفاء خوفه، وارتجافه وعجزه أمامها؟ أوجد يوماً الشجاعة ليعترف لهذه الفتاة الباسلة بأن أية امرأة لم تستطع إثارته؟ هل اعترف يوماً أن الأهواء الوحيدة التي تلازمه هي تأكيد قدرته وسلطته والميل إلى الكره والمعاقبة والانتقام والتعذيب؟ هل باح يوماً لأحد بالأفكار التي ترهقه في لحظات الاسترخاء النادرة؟ إنه لم يهمس بكلمة عنها لأحد، ومع ذلك توجّب عليه، هو الدقيق جداً وذو الذكاء الثاقب جداً أن يضطرب بشكل عميق من جرائمها. ولم يتبقَّ له وسيلة لتبرير ضعفه إلا ملهاة كاهن مخصي ومجرد من الرغبة. وسيستعيد الحركات الكبرى والمآسي الكبرى والقرارات الكبيرة ليخفي عدم قدرته على اتخاذ أي منها، وسيرتدي قناع البطل الذي يذهب إلى حد التضحية، إلى حد التضحية الكلية بحياته من أجل عمله، لكي لا يعترف أبداً، لا لنفسه، ولا

للآخرين بأن الخوف يمنعه من تكريس نفسه فعلاً لذلك . وهو إذ يفر حتى النهاية ، أمام العرش الفارغ كما أمام المرأة والحب ، لا يتبقى له لتعزية نفسه في ضيقه إلا وهم كائن أسمى سيتيح له التكفير عن أخطائه بالتصفية بحياته .

لقد أعدّ روبسبير اعتقاله الخاص وإعدامه . ولكن من هو الذي سيحمله على إسقاطه؟ أعداؤه قليلو العدد ويرعبهم الخوف من أن ينجح في اكتشاف أمرهم . هناك طبعاً فادييه (Vadier) وفوشيه (Fouché)^(١) وكورنا (Cornat) ، لكن مثال دانتون ودومولان مازال قائماً هناك ويحملهم على التفكير . ولكن لعل هناك وسيلة لإثارتهم بجمعهم في احتفال مثير للسخرية .

سيحتفل روبسبير بعيد الكائن الأسمى . وستترك الكلام للكاتب لوناتر ليحدثنا عن ذلك : «والحال أنه فيما ينتشي المتسكعون ، يتذمر عدد من أعضاء الجمعية التأسيسية ضمناً ، فالمفكرون والجاحدون لمصلحة ذاتية أو عن اقتناع يغتاظون من الاختلاط بهذا «التعصب» ، بهذا التراجع الفاضح نحو خرافات الطغيان . لقد صفقوا كلهم لروبسبير ، بكل تأكيد ، لكي لا يبرزوا كأعداء لمثل هذا الرجل ، إلا أنهم قلقون من شعبيته الهائلة ، وأكثر من ذلك أيضاً مما ينذر بباباويته المقبلة .

ويُعدّ من ضمن هؤلاء المستائين فادييه ، الرجل المهم في هيئة الأمن العام ، إنه رجل ذو أنف طويل ، وسحنة شاحبة ، طويل القامة ، نحيف جداً ، مخّلج المشية مثل مهرج عجوز . وفي الجمعية التأسيسية المؤلفة إلى حد كبير من الشبان ، يعتبر فادييه مسناً ، لأن عمره ثمانية وخمسون عاماً . إن لهجته الغسكونية المرعبة وارتجالاته الغامضة ، وسخريته الفاسدة ، وسنواته الستون الحامضة التي يفتخر بها في كل مناسبة تمنحه هيئة نوع من المهرجين ، كان

(١) جوزيف فوشيه (١٧٥٩ - ١٨٢٠) سياسي فرنسي وأحد أعضاء الجمعية التأسيسية . وزير الشرطة في عهد الأباطورية .

مجلس النواب يسرّ به أحياناً، وقد شهد كنائس البدايات الشاقة لروبسيير الذي يناقضه بشكل خاص. إنه جنوبي ساخر لا يستطيع إمساك لسانه، ولم يكن يتعاطف مع هذا الرجل الشمالي المنكمش على ذاته، البارد، المجدّ الذي لم يره قط أحد يضحك أبداً؛ ومع ذلك قاما معاً بضرب حزب الجيرونديين (Gironde). ومن الجدير بالذكر أن فادييه، الذي يمتلكه الوهم فيما يخص أهميته، التي ظهرت بوضوح في النضال ضد دانتون، ومع أنه لم يأخذ على محمل الجد الرجل النحيل الذي رآه، في عهد الجمعية التأسيسية، والذي لا يملك قرشاً، ويحاول التقدم، رغم التهكم والإهانات.

والآن، فيما ينصب هذا التلميذ البائس لروسو نفسه «كاهناً أكبر» ويعيد خلق الكائن الأسمى الذي تمّ إلغاؤه، لا يكفّ هذا الغاسكوني العجوز المعجب بقولتير عن التهكم، وهو إذ يحتدم من عبثه الشخصي يقرر أنه ينبغي قطع الطريق على هذا المتدين المتزمت والتخلص من هذه الزمرة من الأغبياء الذين يريدون الشروع بترتيل القداس».

لقد كان فادييه، من غير أن يدري، يستطيع الاعتماد على مساعدة شخصية مميزة. فروبسيير الذي يغدو من الآن فصاعداً قليل الثقة به، أخرق ومثيراً للسخط سيسهل المهمة عليه. لقد اعتمد طريقة سيئة إليه جداً، إذ شعر قبل أن تتم مهاجمته بالحاجة إلى أن يترك علانية وصيته في الجمعية التأسيسية. ففي الثامن من تشرين الثاني ١٧٩٤ ألقى خطاباً شهيراً، وسيكون هذا الخطاب خطابه الأخير. لقد حرص منذ عدة أسابيع على عدم الظهور في هيئة السلامة العامة، الأمر الذي سمح لخصومه بتنظيم صفوفهم في أمن وطمأنينة. ووضع فادييه يده على قصة والدته الرب واستخدمها لمهاجمة صحته. والحال أن بلاغة خطاب روبسيير جازفت بكل شيء، ألم يبدُ أنه يتطلع إلى الموت كنصر أسمى؟ لقد قال حرفياً ما يأتي:

«أيها المواطنون، أزيلوا من القبور هذه الحكمة التي حفرتها أيد مدنسة، والتي رمت لباس الحداد الكثيب على الطبيعة، وأوهنت عزم البراءة

المضطهدة، والتي هي إهانة للموت. ومن الأصح أن تحفروا فيها هذه الحكمة: الموت بدء الخلود».

لقد اختار إذاً الخلود بدلاً من الحياة. وصار جميع ضحاياه خالدين أيضاً، وقد سكن من جراء ذلك شعوره بالإثم بكل تأكيد. لكن الموت كان أيضاً، بالنسبة إلى هذه الروح المعذبة، بلا منفذ نحو الحياة، وسيلة فعل سامية. فالموت من أجل نتاجه هو رفض للموت، رفض للبؤس، رفض للعجز الأكثر شمولية لفرد ما وتحويل له إلى قدرة كلية. لعل هذه طريقته في حمل ذنب فرنسا الثورية كله على كتفيه، فرنسا المذنبة لأنها قطعت رأس ملكها. تلك تضحية بالنفس للتكفير عن الجريمة العامة، ذاك إنقاذ لشعبه على طريقة المخلصين الفادين.

إننا نعرف التتمة وكيف تصرف نواب الجمعية التأسيسية تجاه خطابه الذي لم يفهموه والذي نجح فضلاً عن ذلك في إثارة أعدائه ضده. وها هو الكاتب لونوتر يصف أثر ذلك الخطاب في النواب فيقول:

«عند قراءة هذه الخطبة المملة المدهشة، نفهم أنها أحدثت في أولئك الذين استمعوا إليها، شيئاً من الدهول. فهذه الطريقة الغريبة في التآرجح، المخصصة لطمأنة البعض بتهديد البعض الآخر، دون الإشارة إلى أي شخص، تؤدي إلى نوع من الدهول والاندهاش. فهناك من كل شيء في هذا الخطاب ما عدا النقطة التي يركز عليها. لقد صبّ روبسبير فيه جام غضبه على الرجال الذين أهانوا في يوم الكائن الأسمى، وسط الحبور العام، رئيس الجمعية التأسيسية الوطنية الذي يخاطب الجمهور المتجمع. «آه! إنني لا أجرؤ على تسميتهم في هذه اللحظة ولا في هذا المكان». وهكذا لم يُسمَ أيضاً ذاك الذي قدّم إلى أصحاب النية السيئة «لكي يضاعف المستائين» نبأ مؤامرة مزعومة يقوم بها بعض الحمقى الورعين، ووجد فيه «مادة لا تنضب للتهكم الفاحش والصبيان». وبعد أن لمّح إلى قادييه، رمى إلى كارنو (Carnot) وبريور (Priour) ولكن دون أن يعلن اسميهما: إن المصلحة العسكرية تغلف بسلطة

مشبوهة؛ ولمّح حتى إلى أنه يتواطأ مع العدو: «إن بريطانية التي طالما أسأنا إليها في خطاباتنا قد صانتها أسلحتنا». وسيعترض بعضهم بأن فرنسا منتصرة وأن روبسبير يغتاب النصر: إنها لا تقوم إلا بتسليح الطموح، وتنويم الوطنية، وإيقاظ العجرفة، فتحفر بأيديها الماهرة قبر الجمهورية! وقطعت هذه الحكم المذهلة بمناجاة مثالية: «لا يا شنومت (chaumette)، لا يا فوشيه (Fouché)، ليس الموت نوماً أزلياً!» أو بدفقات تكشف مرارة قلب يعتقد أنه حنون وهو ليس إلا متقرباً: «لقد توصلوا إلى شحني بكل القلقين، بكل الصعوبات التي تتطلبها سلامة الوطن... وكل رجل سينهض ليدافع عن الأخلاق العامة سيكون مثقلاً بالإهانات وسيبعده المحتالون». والخلاصة هي: زعزعة نير الهيئات، وتطهيرها، أي استبعاد جميع المجرمين الأثمين المعادين لروبسبير منها، وإنشاء وحدة الحكومة تحت السلطة السامية للجمعية التأسيسية.

لقد ارتكب في هذه المناسبة خطأ أخرق يتعذر إصلاحه: لقد ظن أن من الذكاء التظاهر باللطف مع السماح برؤية مخالفه الكامنة، وأن يحمل آخرين، مجهولين، مسؤولية عهد الرعب، متناسياً قانونه الذي فرضه في الشهر التاسع من الثورة، ومظهراً أنه بريء منه كلية، لكن حذر المستمعين إليه الذين كانوا أكثر تنبهاً من أن يأخذوا ويستسلموا إلى هذا النهج، وعندما طوى أوراقه ونزل من على المنصة، كان الأثر الذي تركه خطابه القاتم الغامض مختلفاً كلية عما كان ينتظر. إذ كان مجلس النواب متردداً محتاراً: ماذا يفعل؟ هل سيتذلل أيضاً، أو يطلب «إيضاحات»؟ فبدلاً من تهدئة مشاعر القلق، قام روبسبير بتأجيحها، وتعرّف عدد كبير منهم إلى أنفسهم في الصور التي خطّها؛ أينبغي محاولة ملاطفته، أم يعتبرون أنفسهم فوراً عدواً محدداً؟ وقد جرب لوكوانتر (Le Cointre) وبارير (Barère) الوسيلة الأولى وتساءلا عن «مغزى الخطاب». لكن الاقتراح استقبل ببرود. وزايد كوتون (cotton) فلم يطالب بمغزى الخطاب بل أيضاً بإرساله إلى ٤٤ ألف كومونة^(١) في الجمهورية، نتيجة طبيعية

(١) الكومونة: العامية، والكومونة أيضاً أصغر وحدة في التقسيم الإداري يشرف عليها مجلس بلدي.

للاستحسان الإجماعي، فخضعت الجمعية التأسيسية وأطاعت، ظاهرياً وبدون حماسة. لكن قادييه لم يقر له قرار منذ أن سمع روبسبير يصف تقريره عن والده الرب بالصبياني والبذيء، فاندفع إلى المنصة، بقامته الطويلة، الهزيلة، الخطيرة والهزلية وأبلغ زملاءه بلهجة واثقة عن دهشته المؤلمة. وكيف أن هذا التقرير الشهير المتعلق بكاترين تيوس (Catherine Théos) لا يتعلق إلا بتهريج مثير للسخرية. وأن هذه المتآمرة لن تكون إلا امرأة للاحتقار فقطاعه روبسبير إنني لم أقل هذا؟ ولأول مرة منذ زمن طويل بدا روبسبير يتراجع أمام المعارضة، ومن الجدير بالملاحظة أن هذا التراجع الذي سيكلفه جزءاً من كبريائه، حدث في ما يتعلق بالبنية. وتابع قادييه المحتقر: إنه يدافع عن تقريره المركب بهذه اللهجة من السخرية المخصصة لتضليل التعصب، لكنه يعدو أكبر من ذلك أيضاً: «لقد جمعت منذ بعض الوقت وثائق كثيرة، وسأعمل على إدخال هذه المؤامرة في إطار أكثر وقاراً. سترون، سترون فيها ذكراً لجميع المتآمرين القدماء والحديثين».

وها هو كامبون (Cambon) الذي شجعه موقف قادييه ينهض بدوره ليقول: لقد حان وقت قول الحقيقة كاملة: رجل واحد يشل الجمعية التأسيسية، وهذا الرجل هو روبسبير، فعلا التصفيق بشدة. فأراد روبسبير أن يناقش الأمر مطالباً بحرية قول رأيه. فتعالت صرخة من جميع أنحاء القاعة: وهذا ما نطالب به كلنا! وألح بانيس وقد خارت قواه أن يخبروه عما إذا كان مهتداً، فتدخل بيو- فاران (Billaud - Varenne): فليعرض الخطاب الذي سمعناه للتو على اللجان قبل طباعته... فأن روبسبير قائلاً! آه ماذا! تريدون عرض خطابي على الأعضاء الذين أتهمهم ليدرسوه: ووسط الهمهمات التي دوت، ارتفعت صرخة: سمهم إذا!... وألحت عدة أصوات قائلة: نعم، نعم. لكن ماكسيميليان تمسك برأيه وتلعثم. فتمرد هذا المجلس الذي قاده حديثاً بالعصا. يغضبه ويبلبله. فاحتج بخضوع أو بغضب أو باحتقار بأنه لا يريد المشاركة فيما يقررونه لمنع إرسال خطابه. وفيما ترك المنصة وذهب ليجلس إلى جانب كوتون وأخذ يتحدث معه وعلى وجهه بعض مظاهر القلق، هاج بعض الممثلين. وبدا

أن الجمعية التأسيسية تستيقظ؛ وكل أولئك الذين تكلموا ضد روبسبير، ضد دواعي كبريائه الجريح، صفقوا وُردَّ الاقتراح، ولن يرسل الخطاب إلى المحافظات. فكان ذلك هو الفشل عينه. إن النزيه، الذي وقف منتصباً لحظة التصويت، ارتدى على مقعده، وسمعه مالياه (Mailhe) القريب جداً منه يتنهد قائلاً: «لقد ضعت».

ثم حدثت مأساة الليلة العاشرة من الشهر الحادي عشر من تقويم الثورة. إذ أوقف روبسبير مع أخيه، ولوبا وسان جوست وكوتون وهنريو (Hanriot)، حاكم باريس. ووقع حادث غير متوقع كان ينبغي أن يفشل كل شيء. فقد أطلق الجمهور روبسبير وقاده إلى دار البلدية. وروى الكاتب لونيتر هذا الحدث على الوجه التالي:

«أسرع مديرو الشرطة عند وصول العربّة وفتحوا بابها، فقفز روبسبير خارج العربّة، بدون أن يلمس مرقاتها كرجل ضائع: «كان يمسك بمنديل أبيض يغطي به فمه ويندفع في الباحة، لقد كان ممتنعاً وخائراً تماماً. أما مديرو الشرطة فقد استقبلوه بأعظم آيات الصداقة، وبعد أن عانقوه، قادوه وهم يدافعون عنه إلى مكتبهم. وسمع موظف كان يقف عند النافذة أحدهم يقول: «اطمئن الآن! أأنت مع أصدقائك!» وسُجن رجال الدرك الذين أوقفوه سريعاً، واتُّهموا بأنهم رفعوا يدهم في وجه صديق الشعب».

لم يعد روبسبير يريد الآن الخروج من هذا الملجأ الآمن؛ فقد أرسلت إليه الكومونة وفداً حاملاً دعوة مستعجلة: إننا بحاجة إلى نصائحك، احضر فوراً. ولكن عبثاً، إذ رفض روبسبير أن يتحرك من مكانه: فمن أجله ثارت باريس، وادعى أنه ينتظر، بعيداً عن الخطر، المخرج القانوني للأحداث. فألحت الكومونة: من الظاهر أن الرغبة الكبرى للجميع هي توزيع المسؤوليات والمخاطرة شخصياً بأقل ما يمكن. كما أرسلت مفرزة كبيرة من الفرسان لإخراج سان جوست من السجن، وجيء به إلى دار البلدية. والآن روبسبير هو الذي يريدون رؤيته: فامتطى هانريو المتبجح الذي لا يتعب صهوة جواده، وأسرع

إلى دار البلدية، وانتزع النزيه وقاده إلى الكومونة، حيث أحدث دخوله هتافات جنونية ومعانقات عديدة. ولم يعد ينقص إلا كوكون الذي كان مطمئناً كذلك في سجنه والذي لم يطلب إلا أن «يُتناسى أمره»، فأرسل روبسبير للبحث عنه والإتيان به قال: الدرك الذين توجب عليهم التفاوض ربع ساعة كاملة مع هذا العاجز ليقنعوه، وأخيراً نقلوه وهو كثير الانزعاج إلى دار البلدية نحو الواحدة والنصف صباحاً.

مستبدون تافهون، ما إن أصبحوا هناك حتى بدأت حيوية الجسم البلدي التي كانت قوية جداً في بداية الصراع، تضعف، وستكون تلك حالة «الهجوم المباغت» ولكن لم يُقم بأي عمل. وألقى روبسبير خطاباً، وهو جالس في مقعده إلى جانب العمدة لسكو-فلوريو (Lescot - Fleuriot). وتلقى قسماً مختلف وفود الفضائل والقطاعات، وتذرع بالعديد من الخطب المملة. وتم أيضاً تبادل بعض اللطمات العنيفة: وكان هناك تاجر الأمتعة القديمة جونو (Juneau)، الذي سمح لنفسه بأن يشير إلى أن الجمعية التأسيسية ليست مؤلفة فقط من مجرمين غادرين، فمزقت ثيابه، واقتيد إلى روبسبير الذي حكم عليه بإيجاز: اقتلوه! اقتلوه! وكتب إلى قطع الجيش التي كانت بعيدة وغير مهتمة جداً، لحسن الحظ، بما يجري في باريس. ثم شعر روبسبير بالتعب فطلب الانسحاب إلى الصالة المجاورة مع أصدقائه. فاجتمعوا فيها للتشاور دون أن يقرروا شيئاً. أينتظرون النهار ليسيروا إلى الجمعية التأسيسية؟ هل أملوا أنها لن تستطيع الامتناع عليهم وأنها ستتحلّ من تلقاء نفسها، أو أن الشعب سيقوم وحده بالمهمة؟ الشعب؟ إنه مثل خادمه المواطن لسكو (Lescot): إنه يرى جيداً أن هناك صخباً كثيراً، لكنه لا يميز قط أسبابها. وكيف سيختار من بين الحزبين اللذين يدعوه كل واحد منهما إلى مقاتلة المتأمرين، الطغاة، أعداء الحرية، كلمات استهلكها التعسف ولم تعد تؤثر في أحد. ثم لا شيء سيقدر، فهذا الدوس والمرواحة بلا هدف من ميدان الفروسية إلى ساحة غريف^(١) Grève.

(١) غريف، في الأصل الإضراب، وهو اسم الساحة التي كان يتم فيها تنفيذ أحكام الإعدام.

فهذه المحطة اللامتناهية أمام مجلس البلدية .

تبليبل الأشخاص الأكثر حزماً، فماذا كانوا ينتظرون؟ لقد حاولوا استبقاءهم بتوزيع الخمر عليهم، فشرب رجال المدفعية على نفقة هنريو، عند صاحب مطعم شارع موتون (Mouton)، ولكنهم كانوا مرهقين، وفضلاً عن ذلك لن يحدث شيء قبل انبلاج الصباح، وشيئاً فشيئاً، تفرقوا بشكل فردي في البداية، ثم جماعات جماعات، وبعد ذلك فصائل فصائل، وهكذا عاد معظم المواطنين المجندين إلى أحيائهم. وفي الواحدة ليلاً، خرج هنريو من مجلس البلدية ليشجع جنده، فوجد الساحة خالية تقريباً، فأطلق بعض الهتافات المتداولة وعاد إلى الداخل دون أن يقلق ويتدارك تفرق إخوة السلاح البواسل أما روبسبير المحرر والمسيطر على الكومونة وعلى حامية باريس، فقد أمضى الليل كله دون أن يتحرك أو يقوم بأي عمل. لقد كان باستطاعته التغلب على جميع أعدائه. لكنه أبقي عليهم، ونعرف اليوم لماذا فعل ذلك. أما أعداؤه، فاستعادوا أمام هذا الخمول غير المفهوم، شجاعتهم. وأوقفوا روبسبير نهائياً في اللحظة التي كان يوقع فيها، بعد صراع مرعب مع ذاته، مرسوم حل الجمعية التأسيسية ليعلن الدكتاتورية، وبذلك ينقذ نفسه وأصدقائه.

لقد حاول الانتحار، لكنه فشل حتى في انتحاره. فبدلاً من أن يفرغ مسدسه في صدغه، لم يقم إلا بتحطيم فكه، وهذا أمر غير مميت لكنه سيحرمه بكل تأكيد من أفضل أسلحته: الكلام. لقد ظهر على الشعب للمرة الأخيرة لكي يتوجه إلى المقصلة، مغطى بالدم، وفمه فاغر مثل جرح كبير، وفكه متدل وعاجز. ثم كانت النهاية. وللمصادفة، كان يرتدي، في المناسبة، الثوب الأزرق الذي كان يرتديه يوم عيد الكائن الأسمى.

فيم نفكر تجاه هذا الفشل المؤكد الذي مُني به روبسبير؟ إننا نعلم، بعد ما جرى سابقاً أنه ربما كان محتوماً، إلا إذا كان من الممكن تحريره من قلق وبؤس داخلي ولن يكون هو نفسه من دونهما. وإذا كان صحيحاً أن ثورة ما لا تستطيع النجاح إلا بالقضاء على ممثلي التقاليد القديمة لاستبدالهم بآخرين، فإن

روبسبير قد أسدى لوطنه خدمة جليلة هي قيامه بهذا العمل بلا رحمة . لقد كان القائد الذهاني الذي تحتاج إليه فرنسا في تلك المرحلة .

إن القائد الذهاني لا يستطيع من جراء قسوة طباعه وعجزه عن القيام بشيء آخر غير خلق رعب ما ، فلا يمثل إلا مرحلة انتقالية . وعندما تتوجب العودة إلى التوازن الطبيعي ، يكون عاجزاً عن تحقيق ذلك ، ويخلي مكانه للحياة ، وتدينه الجماعة إلا إذا بقي المرحلة العابرة وتابع القيام بدور اللاتوازن لينقذ نفسه . إنه لا يستطيع أن يمثل إلا اتجاهاً يكون هو الناطق الرسمي له ، ويختفي معه عندما تتجاوز اتجاهات أخرى . ولذلك يختفي ، مهما كانت القوة التي يجسدها ، فيكون مشابهاً لأشخاص الحلم الذين يلزمون الإنسان طوال الليل . ففي صيرورة الجماعة ، هل الثورة شيء آخر غير كابوس مريع ينبغي الاستيقاظ منه ، للتفرغ للمشاكل اليومية ؟ إن أولئك الذين تعلموا من الحلم تصور الأجيال والتفكير فيها ، ويعرفون النزاعات الحتمية في التطور البشري وترقي الشخصية يفهمون مصير الأفراد المميزين الذين تضحي بهم الثورة ، إن بعض أنواع الفشل ضرورية للتوازن الذي تسعى إليه الجماعة في هذا الاتجاه أو ذاك .

نابوليون والفشل

إن نابوليون، بلا شك، هو الرجل الأكثر تمثيلاً للثورة الفرنسية. لقد كان القائد الذي نجح في إقامة نظام جديد على أنقاض الملكية، وفي قيادة الجماعة إلى الاستقرار الذي ظهر أنه نهائي اثر بعض ردات الفعل العابرة. ويبدو لنا اليوم أيضاً اصطلاح نابوليون كصرح قوي ومؤثر يرمز إلى النظام الجديد الذي كرّسه.

نابوليون! نحن جميعاً نعرف منحني حياته الكبير: صعوده، نجاحه العجيب ونهايته في جزيرة القديسة - هيلانة^(١)، بعد فشله في موسكو وفي واترلو^(٢)، وسيكون من المهم والمفيد في نطاق هذا العمل دراسة دور هذه الشخصية الفريدة ودلالة فشلها، من زاوية فردية وجماعية.

لقد رأينا في الفصول السابقة أن القادة الذين تستنجد بهم جماعة ما، في فترات الانتقال من نظام إلى نظام، هم بالضرورة بعيدون عن القاعدة، وليسوا قادرين على القيام بدورهم إلا بفضل بعض الظروف التي كوّنت طباعهم، وتحكمت بنجاحهم، فضلاً عن فشلهم. وقد فهمنا أن بعض أنواع الفشل

(١) جزيرة بريطانية في المحيط الأطلسي. من المشهور أن نابوليون نفى إليها.

(٢) بلدة في بلجيكا جرت فيها معركة شهيرة في ١٨ حزيران ١٨١٥ خسر فيها نابوليون أمام القائدين ويلنغتون الانكليزي وبلوخر الألماني.

الفردى تبدو حتمية، وخاصة عندما يأخذ القائد، على طريقة المخلص الفادى، على عاتقه ثقل الذنب كله الذى تتضمنه ثورة ناجحة.

ونحن نعرف أن الصراعات التى تقسم أمة ما فى مرحلة الثورة تتطور ليس فى الجماعة فقط، بل فى كل فرد أيضاً، فى حين أن هذا الفرد كان يعتقد أنه قادر على أن يكون فى هذا الجانب أو ذاك من المتراس. وهكذا اكتشفنا ساحات معارك يجهلها المؤرخون، وتتواجه فيها القوى نفسها التى تجابهت فى مارنغو^(١) وأسترلitz^(٢) وبورودينو^(٣) (Borodino). وقد تمثلت ساحات هذه المعارك بأرواح الرجال التى يتلاعب بها الحزب بصمت، قبل أن تدركها الجماهير العريضة بزمان طويل بواسطة إعلانات الحرب، وضجيج المدافع، وأنين الجرحى والأموات وعار المغلوب وانتصار الغالب، العابر غالباً.

لقد كان نابوليون أحد هؤلاء الرجال. ونود أن نعرف كيف كان مصيره محكوماً بالصراعات الجارية فى عهده تقوده وتوجهه، وكيف استطاع أن يصبح نقطة تثبيتها، الأداة التى بواسطتها يعدّ ليس مصيره الشخصى فقط، بل مصير إنسانية أيضاً يتعلق قدرها بانتصاراته وهزائمه، بنجاحاته وفشله.

الأسباب التحليلية النفسية لفشله؟ قليل من الناس طرحوا هذا السؤال على أنفسهم حتى الآن. صحيح أنه كان من الصعب إدراك كيف استطاع نابوليون نفسه السعى إلى الفشل من غير علمه، فى حين أن نجاحاته كانت تبدو خارقة جداً ومؤكدة تماماً. ويبدو أن تولستوي لأمس، على طريقه، المسألة التى نهتم بها فى روايته الشهيرة الحرب والسلام.

(١) مارنغو (Marengo) بلدة فى إيطاليا جرت فيها معركة كبيرة تغلب فيها نابوليون بوناپرت على النمساويين سنة ١٨٠٠ م.

(٢) أسترلitz (Austerlitz) بلدة فى مورافيا فى تشيكوسلوفاكيا، جرت فيها معركة تغلب فيها نابوليون بوناپرت على النمساويين والروس سنة ١٨٠٥.

(٣) بورودينو بلدة فى روسيا بدأت فيها معركة موسكو سنة ١٨١٢.

«لقد دخل نابوليون موسكو بعد معركة باهرة، ولم يكن النصر مشكوكاً فيه لأن ميدان المعركة بقي للفرنسيين فيما تراجع الروس وسلّموا المدينة. وكانت موسكو ملأى بالموءن والذخائر والأسلحة والثروات الهائلة، وكل ذلك كان في متناول نابوليون وبين يديه. ولم يقم الجيش الروسي الضعيف بمحاولة هجوم واحدة طوال شهر. وكان وضع نابوليون من أكثر الأوضاع لمعاناً. وبدأ أنه بعد كل ذلك لا يتطلب الأمر أن يكون المرء عبقرياً ليرتمي بقوى مضاعفة على بقايا الجيش الروسي ويدمرها، ليؤمن لنفسه سلاماً نافعاً، أو أيضاً للقيام بحركة تهديد لمدينة بطرسبرج، أو في حال عدم نجاح هذا التحرك، ليلتف نحو مدينة سمولنسك أو مدينة فيلنا، إلا إذا بقي في موسكو ليحافظ على هذا الوضع الباهر الذي حققه وتمتع به، في ذلك الوقت، الجيش الفرنسي. ومن أجل هذا ينبغي القيام بالأمر الأكثر بساطة وسهولة؛ وهو عدم السماح لفرق الجيش بالانصراف إلى السلب والنهب، وتحضير أماكن سكن كافية للجيش في موسكو خلال الشتاء، وجمع الموءن اللازمة لأكثر من ستة أشهر، وهو أمر كان ممكناً جداً، في نظر المؤرخين الفرنسيين. لكن نابوليون الأكثر عبقرية بين كل العباقر، نابوليون المسيطر على الجيش كله، لم يقم بشيء من هذا.

ولم يقتصر الأمر على أنه لم يقم بأي شيء، بل على العكس من ذلك، استخدم كل طاقته ليختار من بين جميع الإمكانيات المطروحة أمامه، الأمر الأكثر حماقة والأشد خطورة...

«لو كان هدف نابوليون هو أن يستخرج جيشه، لما كان بإمكانه ابتكار وسائل أخرى، قادرة بكل تأكيد وبعيداً عن العمليات الروسية، على إضاعة الجيش الفرنسي بفعالية».

ماذا جرى؟ لقد اكتشف المؤرخون، لدى نابوليون، تردداً مثيراً، وخاصة بعد معركة بورودينو. وقد عزاه بعضهم إلى زكام، وآخرون إلى البواسير التي يعاني منها الأمبراطور. ولم يخطر ببال أحد أن من الممكن أن يوجد نوع من تقاطع الطرق، وأن هذا التردد قد يكون من نمط تردد روبسبير، عندما انتهى إلى اختيار أمر مضاد له ومفيد لإدائته.

عندما ندرس حياة نابوليون عن قرب، ندرك أن النضالات الخارجية المذهلة جداً التي كان مجبراً على خوضها باستمرار، قد تضاعفت بمعركة أخرى، صامته هذه المرة، ليس فيها طرف آخر غيره هو نفسه. ونحن جميعاً نعرف بأية شجاعة وبأية عبقرية قام نابوليون بدوره كأمبراطور وكرجل دولة، وكيف أنه اندفع، بطبيعته المتقدمة المشبوبة، في دوّامات الثورة الفرنسية، وانساق مع الحركة التي حملته حتى عرش ملوك فرنسا. ونعرف كيف أصبح الضابط الصغير الآتي من فالانس^(١) صهر أمبراطور النمسا، والد للملوك الذين كانوا يحكمون أوروبا في تلك الحقبة، والذين كانوا يرتجفون أمامه. ولكن عدداً قليلاً جداً تساءل كيف تفاهم، خلال هذه المغامرة العجيبة، مع إحساسه الخاص، وأية مجادلات جرت بينه وبين هذا الإحساس. لقد درست كثيراً حياته العاطفية، ومغامراته المتنوعة، وكتبت آلاف الصفحات عن حياته الخاصة، ولكن نادراً ما تم النجاح مع الاقتراب من الرجل كما كان حقيقة تجاه نفسه ووعيه، وفي اختراق أحجية مظهر خارجي بُني بقوة وعبقرية من أجل أسطوره.

إن الفشل، بعلاماته المميّزة، محفور منذ شباب نابوليون في مصيره المحتوم. لقد كتب هذا الرجل في شبابه، في مذكراته بتاريخ أيار ١٧٨٩ قائلاً: أي اندفاع يحملني على أن أرغب بتدمير نفسي؟ وما العمل في هذا العالم؟ والموت الذي ينتظرنا لا محالة، ألا يعادل الانتحار؟

ليست هذه الملاحظة عَرَضِيَّة فهو يعود إليها غالباً. فعند إلقائه خطاباً في أكاديمية ليون^(٢)، تناول فيه قدر الطموحين أمثال الإسكندر، وكرومويل^(٣)

(١) مدينة في إسبانية، فيها مرفأ على البحر الأبيض المتوسط.

(٢) مدينة في جنوبي فرنسا. مركز صناعي كبير وتجاري معروف. فيها جامعة شهيرة.

(٣) أوليفر كرومويل (١٥٩٩ - ١٦٥٨) رجل دولة إنكليزي. زعيم الثورة التي أطاحت بالملك ريتشارد الأول (١٦٤٩) على منصة الإعدام. وحل محله كرومويل وأعلن نفسه حامي بريطانيا.

(Cromwell)، وریشليو^(١) (Richelieu) . . . الخ، قال:

آه! أنا أشفق على المنكود الحظ. إذ سيكون موضع إعجاب وحسد رفاقه والأكثر بؤساً وتعاسة بين الجميع. فالتوازن مفقود. وهو يعيش تعيساً. آه! نار العبقرية! ألا نقلق، ذاك نادر جداً! . . . كم من السنوات تمضي دون أن تستثمرها الطبيعة! «إن الرجال العباقرة نيازك مقدر لها أن تحترق لتضيء عصرها». وقد أضاف مادلان (Madelin)، مؤرخ نابوليون الكبير، إلى هذا الكلام قائلاً: «ألا يمكن أن يقال إن الشاب، يناقش نفسه، بنوع من الشعور المسبق، حول هذه العبقرية التي ستحكم عليه، ذات يوم، ووسط إعجاب رفاقه وحسدهم، بالتلف، وبالاحتراق لإضاءة عصره».

وأضاف نابوليون لاحقاً، في الخطاب نفسه، عند متابعته الكلام على الطُمُوح المحدث النعمة: قد يقوم بأمور جيدة! وهل هناك شيء أكثر تعزية للعقل من القدرة على القول: «لقد أُمّنت للتو سعادة مئة عائلة! لقد اضطربت، لكن الدولة بخير، وتسير بشكل أفضل، وسيعيش أبناء وطني مطمئنين بفضل قلقي، إنهم سعداء بفضل حيرتي، فرحون بفضل همي وحزني». أهو المخلص الفادي المقبل في جزيرة القديسة هيلانة الذي، قال منذ ذلك الحين هذه الأسطر التي خطها الشاب ذو العشرين ربيعاً؟

يبدو أن الطبيب الجنرال ر. برايس (R. Brice) قد أدرك جيداً هذا الجانب من المسألة. وطرح المشكلة المثيرة في كتابه سر نابوليون. لقد تأثر برايس بسلوك نابوليون المتناقض. إذ بعد نجاحه في فرض معاهدة صلح أميان (Amiens)^(٢) على النمسا وبريطانيا، وهي معاهدة رائعة سمحت له بإكمال إنهاض فرنسا في جميع الميادين، قام نابوليون بكل ما يستطيع للمجازفة

(١) الكاردينال ريشليو الشهير، رجل الدولة الفرنسي (١٥٨٥ - ١٦٤٢)، رئيس وزراء الملك لويس الثالث عشر. أسس الأكاديمية الفرنسية.

(٢) عاصمة مقاطعة بيكاردي (Picardie) في فرنسا، تمّت فيها، عام ١٨٠٢، عقد معاهدة صلح بين فرنسا، وبريطانيا، وإسبانيا، وهولندا.

بمآثره، بسعيه إلى الحرب التي تغلبت في نهاية المطاف عليه وعلى جهوده. ولفهم ما كانت تمثله هذه الحرب الحمقاء من فشل لكل العمل البنائي الذي قام به بونابرت، ينبغي أن نستعرض الفعالية الرائعة التي انتهت بها.

لقد تميّز عمل القنصلية بإنهاض خارق لفرنسا. فالمعاهدة البابوية^(١)، التي أُجريت رغم جميع العوائق، أوقفت انقسام النفوس في الميدان الديني، والإصلاح المالي وتنظيم مصرف فرنسا أعاداً إلى البلد ثقته في الميدان الاقتصادي. وقانون نابوليون، الذي تم إعداده خلال المناقشات العديدة بين نابوليون ومستشاريه، أثبت قيمته وبدا مسبقاً كعمل تجديدي ضخم في أبعاده ونافع في نتائجه وآثاره. ولم يعد ينقص سعادة فرنسا شيء إلا السلم والصلح. ومع معاهدة الصلح في أميان أعطى نابوليون كل دلائل عبقريته، وبرهن إلى أي حد يفهم روح الفرنسيين وحاجات بلده. وأخيراً فُتح أمامه هذا العهد من السلم الذي التمسه دائماً ليعمل في الهدوء والاستقرار، وليتيح نضج ثمار الإصلاحات العميقة التي عرفت عبقريته كيف تفرضها على بلد وصل إلى الفاقة الشديدة.

ولكن هذا السلم، بالتحديد، الضروري ليتيح لنابوليون النجاح، هو الذي توجّب على هذا الأخير المجازفة به، وقد وصف برايس، بعد أن تبين أن نابليون، قام لأسباب غامضة، بإفشال كل مبادرات بريطانية للسلم، حالة الأمبراطور وهو على وشك الاستسلام إلى أعدائه. وهذه هي ملاحظاته:

«لقد انتصرت بريطانيا، واستسلم إليها نابوليون دون شروط. فلماذا يظهر ثقة مثل هذه بعدوه الشرس؟ كان بإمكانه أن يطلب ملجأ من حميه فرانز جوزيف الأول ملك النمسا، أو من صديقه القديم إسكندر، القيصر الروسي. وكان من الممكن أن يحاول الذهاب إلى الولايات المتحدة، إن كان قبطان دانمركي يعرض نقله إليها. إن هذا الحل الذي يتلاءم مع رغبته في حياة هادئة، بعيدة من الآن فصاعداً عن الأحداث السياسية يحمله على التردد. لقد ادعى أنه استبعده لأن المغامرة تبدو له خطيرة. وكلمة «خطرة» لا تليق كثيراً عندما يتعلق

(١) تمت هذه المعاهدة بين نابوليون والبابا بيوس (Pie) السابع في ١٥ تموز ١٨٠١.

الأمر بذلك الذي جابه قبل أربعة أشهر، بعزم كل مخاطر العودة من جزيرة ألبا^(١) (Elbe).

لقد كان القرار بوضع نفسه بين أيدي البريطانيين القرار الوحيد الذي يستطيع نابوليون اتخاذه، ليس لأنه «يتلاءم مع المعنى الفني لمجده» كما قال جاك بانفيل بظرافة كبيرة، بل لأنه يتعلق، مثل أي رجل آخر، بقدره الداخلي.

فهل هذا القدر الداخلي هو الذي حكم على نابوليون، بشراسة، أن يكون في نهاية المطاف ضحية بدلاً من أن يكون منتظراً؟ ولنتذكر أنه كشف هو نفسه للحلفاء، في العام ١٨١٤، خطة الحرب، في اللحظة التي كان فيها على وشك رمي العدو خارج البلد إثر انتصارات مشهورة. لقد كتب، في هذه الفترة، إلى ماري لويز^(٢) (Marie - Louise) أنه سيمضي للالتفاف نحو نهر الراين^(٣) (Le Rhin)، بهدف جذب أعدائه إلى فخ نصبه لهم، وأنه يأمل كثيراً أن ينجح في ضربته. إن هذه الرسالة من الرجل الذي يعتنق مبدأ عدم البوح بأي شيء من خططه مهما كان، وخاصة إلى امرأة، قد سقطت بين أيدي النمساويين وسببت هجوم الحلفاء على باريس. لقد أحبطت خطة نابوليون نهائياً ووصل مع جيشه متأخراً أربع ساعات كاملة لإنقاذ العاصمة.

لقد صُدم العديد من الأشخاص بالسهولة التي استسلم فيها الأباطور إلى فشله النهائي. ففوجيء لاس كازس^(٤) (Las Cases) بالخفة التي علم بها نابوليون، في مرسى بلايموس^(٥)، عام ١٨١٥، بنياً إبعاده إلى جزيرة القديسة - هيلانة. وكتب

(١) ألبا جزيرة إيطالية صغيرة في البحر الأبيض المتوسط إلى الشرق من كورسيكا، نفي إليها نابوليون أولاً في العام ١٨١٤.

(٢) ماري لويز الفتاة الثانية للأباطور النمساوي، وهي الزوجة الثانية لنابوليون بوناپرت.

(٣) مقاطعة مكونة من جزء من منطقة الألزاس، وتنقسم إلى قسمين الراين العليا والراين السفلى.

(٤) لاس كازس (١٧٦٦ - ١٨٤٢) مؤرخ فرنسي رافق نابوليون إلى جزيرة القديسة هيلانة ونشر الميموريال.

(٥) مرفأ عسكري في جنوبي بريطانيا.

في صحيفة الميموريال^(١) (Mémorial) : «واستعاد منذ تلك اللحظة (بعد اعتراض مبدئي) مظهراً هادئاً وحتى فرحاً، وانتقل إلى مواضيع بعيدة تماماً عن وضعنا».

وروى الكابتن مورتلاند دو بللاروفون (Mortland du Bellérophon) في مذكراته: «لم يكن ضجراً كما اعتقدت أنه سيكون. وعند العشاء، تحدث كالعادة، وفي الحقيقة، بعد هذه المحن، وهذه الخيبات، فوجئنا برؤية المرونة التي استعاد بها مزاجه بشاشته المعهودة».

إن الفرصة ستسمح لنا للعودة إلى هذا الجانب من المسألة. أما الآن، فإننا نود أن نتفحص عن قرب أعراض الفشل في مشاريع نابوليون. يعلم الجميع أن نابوليون سعى مرات عديدة إلى الموت في المعارك، ويمكن القول إنها ليست غلطته إذا لم ينجح فعلاً في أن يودي بنفسه ونجد الأمر نفسه في بعض وجوه الفشل التي يبدو أنه سعى إليها، دون التوصل إليها، لأن الأشياء في معظم الأحيان، وبشكل أعجوبي، تنتظم رغماً عنه، كما هي الحال مثلاً في عودته من مصر. إذ لولا طالعه السعيد، لكان ضاع مرات عديدة. ولعل هذا الطالع السعيد كان ضرورياً له لتحقيق نجاحات يبدو أنه كان لا يجروء، لاشعورياً، على فرضها على نفسه. وإحدى حالات النجاح هذه أو الفشل وليسمها المرء ما يشاء، كانت معركة جسر مدينة أركولي^(٢) (Arcoli). فالجنرال بوناپرت، إذ أجبر على مقاتلة الماريشال النمساوي ألفانزي، بجيش قليل العدد بالنسبة إلى جيش عدوه، إتجه نحو جسر مدينة أركولي ليبطل تفوق خصمه، فهناك يمكن أن تدور المعركة فقط في الطرق والحوازر الممتدة عبر بلد مليء بالمستنقعات. ويعطينا وصف المعركة الذي قام به مرجكوفسكي التوضيحات اللازمة لتقدير القيمة الحقيقية لـ «نجاح» بوناپرت. إذ سنتبين منطقياً أنه كان ضائعاً خاسراً، فالفانزي كان متغلباً عليه، ومن المعجزات حقاً أنه لم يهلك في المستنقعات.

(١) صحيفة محاورات نابوليون بوناپرت الأول مع لاس كازس سنة ١٨٢٣ في جزيرة القديسة هيلانة.

(٢) مدينة ايطالية.

لكن حسن طالعها، فضلاً عن الانطباع الذي أحدثته جسارة الجنرال الشاب المتهورة على عدوّه، وحدهما يسمحان بتفسير سبب قيام ألفانزي، ودون ضرورة عسكرية، بالتخلي عن رقعة دافع عنها بنجاح كبير.

وليس مثل هذا الأمر فريداً في قصة نابوليون، فمعركة مارنغو^(١) مثال آخر على ذلك. جرت هذه المعركة ضد قوى الجنرال النمساوي ميلاس (Mélas)، وتم فصل نابوليون عن مؤخرة جيشه بعد أن اجتاز ممر سان برنار^(٢) المعروف أنه وعر ويستحيل على أي جيش عبوره. وهكذا وجد الفرنسيون أنفسهم مجبرين على التخلي عن مدفعيتهم، التي حجزت في شعاب الممر الذي دافع عنه حصن بار. وهكذا لم يكن بونابرت يمتلك، في صباح معركة مارنغو، إلا ٢٤ مدفعاً في مواجهة ٢٥٠ مدفعاً لدى النمساويين، و٢٥ ألف رجل تقريباً في مواجهة ٣٥ ألف رجل لدى عدوّه. صحيح أنه كان يستطيع انتظار العدو، كما كان مقرراً في خطته الأولية، في الشعاب خلف مارنغو، الأمر الذي يسمح للجيش الفرنسي بتعويض نقصه في العدة والعدد. ولكن بدلاً من التمسك بهذه الخطة توجه نابليون إلى ما بعد الشعاب، نحو مارنغو، فاصلاً عن جيشه الضعيف فيلقين يضمنان ثلاثة آلاف رجل، أحدهما بقيادة الجنرال دوسيز (Desaix)، وأرسلهما في اتجاهين متعاكسين واحداً نحو الشمال والآخر نحو الجنوب، لمهاجمة النمساويين في حال قيامهم، بدلاً من سلوك الطريق العادية، بمحاولة الذهاب إما إلى الشمال وإما إلى الجنوب من مارنغو. وهكذا كان نابليون مرغماً على أن يواجه، بالعشرين ألف رجل الذين بقوا معه، ٣٥ ألف نمساوي. وجرت المعركة في البداية كما يتوجب أن تجري عادة في مثل هذه الظروف. فضُرب وخسر سبعة آلاف رجل من أصل عشرين ألفاً. وكان ميلاس واثقاً من النصر إلى حد أنه اعتقد، وقبل نهاية المعركة، أنه يستطيع بكل اطمئنان ترك قيادة جيشه لأحد مساعديه، كي يستريح في ثكناته. وفي هذه

(١) مارنغو بلدة إيطالية انتصر فيها بونابرت على النمساويين سنة ١٨٠٠.

(٢) ممر سان برنار في جبال الألب بين سويسرا وإيطاليا.

اللحظة فقط تغير كل شيء. فجنرال نابوليون دوسيز هذا، بعد مسيرة عدة ساعات، سمع دوي المدافع، فتوقف عن متابعة الزحف، الأمر الذي سمح لرسول نابوليون بادراكه، وإبلاغه قرار العودة إلى مارنغو، وهكذا عاد دوسيز مع فرقه المرتاحة نسبياً، واستطاع استئناف المعركة مساءً ضد مساعد القائد النمساوي، وبدل ما يتعلق بهذا النصر في باريس، فهو نصر ضروري قطعاً لتقوية حكومة القنصل الأول ودعمها. وليس من الصعب أن يستخلص أن بوناپرت، في يوم مارنغو، كان أمام فشل سياسي وعسكري، ولم ينقذه إلا الجنرال دوسيز الذي دفع حياته ثمناً لعمله الشجاع.

وفي حالة أكثر أهمية بكل تأكيد من هذه أيضاً، لم يَدُن نابوليون بانتصاره إلا إلى تدخل أخيه لوسيان (Lucien). جرى ذلك في الثامن عشر من برومير^(١) (Brumaire). كانت استقالة سيبس^(٢) (Sieyès) ودوكو^(٣) (Ducos) وبارّا^(٤) (Barras) قد نظم الديركتوار^(٥)، وتوجب تأليف حكومة جديدة، وإنشاء نظام جديد لم يبدُ ثورياً، وأن يعلن «ممثلو الشعب المنتخبون» ونواب المجلسين اقتراحهم لصالحه. إذ لم يكن من الصعب الحصول على موافقة الممثلين المنتخبين مادام الرأي العام معداً للديكتاتورية. وكان يكفي توقيف أربعين نائباً من اليسار المتطرف المعروفين بتأثيرهم المشوش، وتحجيم الرجال المتعصبين للثورة

(١) برومير شهر الضباب أو الشهر الثاني في روزنامة الثورة الفرنسية.

(٢) أمانويل سيبس (١٧٤٨ - ١٨٣٦) سياسي فرنسي. عضو مهم في جمعيات الثورة الفرنسية وهيئاتها.

(٣) روجيه دوكو (١٧٤٧ - ١٨١٦) رجل دولة فرنسي، عضو في الجمعية الوطنية والديركتوار والقنصلية في الثورة الفرنسية.

(٤) بول بارّا (١٧٥٥ - ١٨٢٩) عضو في الجمعية التأسيسية وفي الديركتوار إبان الثورة الفرنسية.

(٥) حكومة المديرين في الثورة الفرنسية.

والفوضوية الذين يفضلون الخواء والبليلة على سلطة يمكن أن تصبح خطيرة عليهم. وقد نصح سيسيس بتوقيف هؤلاء النواب لكن بونابرت رفض. وذكر لنا الكاتب مادلان Madelin في كتاب عن صعود نابليون بونابرت ما يلي:

«ومع ذلك، كان سيسيس هو المحق، والمخطيء هو بونابرت، فقد كان النواب الذين حافظ عليهم من أولئك الذين حاولوا، في الغد، وضعه خارج القانون، آرينا (Arena) ودستريم (Destrem) وجرانميزون (Grand maison) وبريو (Brio) والآخرين. أما ساليستي (Saliceti) النائب المتطرف حيثنذ، الذي سيجده بونابرت في جميع منعطفات حياته، فقد قام بجهد كبير لتهدة هياج إخوانه وأصدقائه؛ فقد أوكل إليه نابوليون تلك المهمة، لكن ساليستي كان متأخراً جداً. فلم يهدئ أحداً، فهؤلاء الأشخاص المجتمعون للتأمر، قد نظموا مقاومة عظيمة لكن الوضع والحالة النفسية لم يكونا متعلقين بالنسبة إليهم بالمحافظة مع مجلس إدارة جديد على النظام الذي يقال إنه دستوري: بل كان الأمر يتعلق ببساطة بإيجاد سيف يعارض سيف بونابرت، وبإيصال عسكري آخر إلى السلطة». نحو سان كلو حيث يجتمع النواب. ولم يكن أحد يعرف تماماً كيف ستجري الأمور. وأهمل بونابرت اعتماد خطة معدة جيدة، وبدأ أنه ينتظر نجاحه بشكل سلبي من جانب الإرادة الطيبة للمنتخبين أو من حسن طالع. وقد وصف مادلان جو المناقشات التي اندلعت والتي يتعلق بها مصير فرنسا ونابوليون فقال:

«اجتمع القدماء^(١) أخيراً، ولكن بدوا هم أيضاً مضطربين، فغياب خطة لدى «البروميريين» ترك الاجتماعات عائمة. وتقرر إرسال رسالة إلى مجلس الإدارة لمعرفة إذا ما كان لا يزال موجوداً، فأجاب السكرتير العام للحكومة، لاغارد (Lagarde) وهو رجل تابع لسيسيس فوراً برسالة معلناً أن غالبية مجلس الإدارة التنفيذي قد استقالت، وينبغي التفكير في إنشاء حكومة جديدة. لكن القدماء

(١) مجلس القدماء إحدى الجمعيات التي شكلها الدستور في السنة الثالثة من الثورة الفرنسية.

لم يكن لهم حق المبادرة، فأوكلوا إلى مجلس الخمس مئة^(١) أن يقترح عليهم بعض الأسماء.

باختصار، لقد فتشوا وبحثوا، لكن الوجوه انكسفت أمام بونابرت. ورغب هذا الأخير في الانتهاء من هذا الأمر، فترك سيبس فجأة، ودون أن يقول أية كلمة، وتوجه إلى قاعة أبولون، فاستقبله القديماء هذه المرة بتعاطف وحسن الالتفات أكثر مما استقبلوه بحماسة. فصعد إلى المنصة، لقد كان من الواجب أن يحمل إليهم التأكيد أنه بصفته المسؤول عن القوى المسلحة قد اتخذ التدابير لخلق المؤامرة اليعقوبية الشهيرة، ولكنه إذ عاوده هذا الاضطراب الذي كان يرتنه في الحقيقة كلما أراد الكلام بإسهاب أمام مجلس، أصبح أكثر إسهاباً أيضاً وأكثر ارتباكاً مما كان في الليلة الماضية في قصر التويليري^(٢) (Tuileries)، فقاطعه نائب، معارض على ما يبدو صارخاً:

- والدستور؟

لكن الجواب كان هذه المرة سريعاً وصائباً إلا أنه في غير محله:

- الدستور، أنتم أنفسكم أهدرتموه، في ١٨ فروكتيدور^(٣)، انتهكتموه! وانتهكتموه في ٢٢ فلوريال^(٤)! وانتهكتموه في ٣٠ بريريال^(٥)!

(١) مجلس الخمسمئة إحدى الجمعيات التي شكلها الدستور في السنة الثالثة من الثورة الفرنسية.

(٢) قصر شهير سكنه ملوك فرنسا، تحيط به حديقة رائعة حُولت إلى حديقة عامة.

(٣) فروكتيدور (Fructidor) الشهر الثاني عشر من السنة الجمهورية (من ١٨ آب إلى ١٧ أيلول).

(٤) فلوريال (Floréal) الشهر الثامن من السنة الجمهورية (من ٢٠ نيسان إلى ١٩ أيار).

(٥) بريريال (Prairial) الشهر التاسع من السنة الجمهورية (من ٢٠ أيار إلى ١٨ حزيران).

وفي الواقع لم تعد الديركتوار (حكومة المديرين) ولا المجالس على اختلافها تتمتع بعد الانقلابات الثلاثة هذه بأية صفة شرعية، ولكنه وجد نفسه في مواجهة النواب الذين أسهموا، ومن ضمنهم معظم أصدقائه، في انتهاكات القانون هذه أو استفادوا منها، لقد كان أخرق بلجوثه إلى الحقيقة بخشونة. وبردت حدة المجلس أيضاً من جراء ذلك، وبعد أن دافع عن نفسه بأنه ليس كرومويل، نزل عن المنصة واستطاع ملاحظة أن هؤلاء الرجال الشجعان لن يقوموا بأي شيء، وإنما يتوجب الذهاب إلى مجلس الخمسمئة. وينبغي، كما في أركولي، الانقضاظ مباشرة على العدو، متعرضاً للخطر، ولكنه كان ملاحظاً في أركولي، وينبغي التحلي بقدر أكبر من الشجاعة للدخول إلى الأرانجري^(١) (Orangerie) فأخذ بعض الرماة من الجسم التشريعي ودخل بغتة إلى الأرانجري. ولم يكذب يخطو عشرين خطوة حتى تعين عليه التوقف مذهولاً أمام العاصفة التي أثارها ظهوره. لقد ارتفعت صرخات عنيفة من اليسار المتطرف: فليسقط الديكتاتور! فليسقط الطاغية! الخارج على القانون! وفي لحظة ثار عليه حزب المونتانيار^(٢) وهاجمه وأرهقه بصياحه. وكان نابوليون، كما هو معروف، قصيراً، نحيفاً، عصيباً أكثر منه كثير العضل، محاطاً بمسدسات الجيب، وبالتحديد بدستريم العنيف، فاعتقد للحظة أن هذا العملاق نصف السكران دائماً سيسحقه. وأحاطت به هذه الأثواب الحمراء الفضفاضة فأحس بالاختناق، لكن الرماة حرروه، وحملوه مغشياً عليه تقريباً، بينما تجمّع خلفه ثلاثون نائباً تقريباً، وهم مستمرّون بالصراخ بأعلى أصواتهم: خارج على القانون، خارج على القانون؟

(١) حديقة قصر التويلري. يقصد قاعة الاجتماعات في ذلك القصر.

(٢) مجموعة ثورية كانت تجلس في المقاعد العليا من الجمعية التأسيسية وتقتزع لصالح القرارات العنيفة.

وبدا لوسيان مرهقاً في مقعده، فقد كان هو أيضاً مهدداً من قبل هؤلاء الرعناء الممسوسين، فنزل إلى المنصة تاركاً الرئاسة لشازال (Chazal) الذي يثق به، وحاول الدفاع عن أخيه. لكنه كان، في المنصة أيضاً، مرهقاً، إذ انقضَّ عليه المعادون وحاولوا انتزاعه منها؛ فتشبَّث بها وحاول أيضاً أن يتكلم، لكن صوته كانت مخنوقاً وسط الصخب والصياح المحيط به، وتبين برعب أنه بدلاً من تهدئة الجو، كانت الصرخات «خارج على القانون» تتضخم وتقوى. والنذالة، الخاصة بالمجالس السياسية، فعلت فعلها، وبعض الخائفين، كما يحدث دائماً، انضموا إلى الصائحين صارخين بصوت أقوى من صوته: خارج على القانون؟ لقد كانت تلك الصرخة صرخة ترميدور^(١) (Thermidor)، الصرخة التي أودت بروبسبير.

لقد بدا أن كل شيء قد ضاع، إذ كان لوسيان بونابرت رئيس مجلس الخمسمئة، ففهم لأنه أكثر اتقاناً للسياسة من أخيه أن هذه الصرخة: خارج على القانون! قد تختتم باقتراع ضخم، يتم في مجلس قلبه الجو السائد كلياً وأدارته أقلية من ثلاثين إلى أربعين رجلاً أفلتوا من النواب البروميريين. لذلك ينبغي بأي ثمن تحاشي هذا الاقتراع الضخم بنتائجه على بونابرت، المحكوم بأنه متمرّد عاصٍ، فطلب مساعدة حرس المجلس، واعتلى جواداً، واندفع إلى جانب أخيه. ولكن لتترك الكلام لمادلان:

«لقد صرخ قائلاً: إن رئيس مجلس الخمسمئة، يعلن لكم أن الأغلبية الساحقة في هذا المجلس هي الآن معرضة لإرهاب بعض الممثلين المسلحين الذين يحاصرون المنصة، معرضين زملاءهم للموت، وقد أثاروا التداولات الأكثر شناعة. إنني أعلن لكم أن هؤلاء الأشرار الجريئين المدفوعين بلا شك من بريطانيا (هذا هو أسلوب ١٧٩٣) قد تمردوا على مجلس القدماء، وتجروأوا على القول بوضع الجنرال المكلف بتنفيذ قراره، خارج القانون. إنني أعلن

(١) ترميدور الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية الفرنسية.

لكم أن هذا العدد الضئيل من المشاغبين المتمردين قد وضعوا أنفسهم بأنفسهم خارج القانون بتعدياتهم على حرية المجلس . وأنا أعهد إلى المقاتلين بالسهر على تحرير الأغلبية من ممثليهم . أيها الجنرالات ، وأنتم أيها الجنود ، أنتم جميعاً أيها المواطنون ، لن تعرفوا بمشرّعين في فرنسا إلا أولئك الذين سيسبّرون بالقرب مني . أما أولئك الذين سيصبرون على البقاء في الأورانجري ، فليطردوا بالقوة ! إن هؤلاء الأشرار لم يعودوا ممثلي الشعب ، بل هم ممثلو الخنجر ! وكأنما لا تنزع آخر شك من رجال الشرطة الجمهوريين الذين استدعاهم ، سحب سيف الجنرال نفسه من غمده ، موجهاً رأسه إلى صدر نابوليون ، مقسماً بحركة مستعارة من المسرح بـ «أن يثقب هذا الصدر إذا شعر لحظة أن قلب طاغية يخفق فيه» !

وجاء الجواب فوراً إذ ارتفعت صرخة طويلة عالية من صفوف شرطة الجسم التشريعي الذين كانوا محتارين مترددين حتى هذه اللحظة ، لقد قرروا الآن تحرير الممثلين الجيدين من الأشرار الذين يضطهدونهم .

لقد أنقذ نابوليون ، وكان ذلك الإنقاذ رغماً عنه . ونحن استشهدنا بهذا النص الوصفي التفصيلي الذي كتبه مادلان لأنه يتيح لنا أن ندرك بكثير من الواقعية الطريقة التي توصل بها نابوليون إلى جعل الظروف مضادة له يوم إمساكه بالسلطة ، وكيف أن تدخل أخيه وحده هو الذي أتاح إعادة إصلاح كل شيء .

ماذا نستنتج ؟ أيمكن الافتراض لحظة واحدة أن رجل التاسع عشر من برومير قد تصرف بعدم خبرة أو بنقص في الذكاء ، وأن هذا الجنرال الذي برهن ، خلال غزو إيطاليا أو مصر ، مرات عديدة ، عن مهارته الخارقة فضلاً عن قدرة القرار والحسم ، لم يكن بمستوى الوضع ؟ أليس من الأصح أن إحساسه الخاص الذي رفض اتباعه في طريق صعوده . هو الذي لم يسمح له بالنجاح في ١٩ برومير إلا بشرط أن يتحمل المسؤولية شخص آخر غيره ؟ أليست هذه القوة الداخلية (أناه المتفوق) هي التي قطعت عليه الطريق واختلقت الأسلحة التي

يجب على الأثر أن تهاجمه وتفتك به؟ إننا نستطيع أن نطرح على أنفسنا هذه الأسئلة، ونفترض ذاك الافتراض، وخاصة عندما يبدو أن هذه القوة تستخدم أشخاصاً مثل جوزفين^(١) وتاليران^(٢) لخيانته، ولجعله هزأة ولتدميره.

لقد تساءل الكثيرون في معظم الأحيان، عن الهوى الذي كان يشد بونابرت الشاب إلى امرأة مثل جوزفين التي كانت باعترافها الشخصي ذات «برودة مؤيسة» معه، وكانت تخونه بمعرفة الجميع مع ضابط شاب وسيم هو إيبوليت شارل الذي استخدمته، فضلاً عن ذلك في أعمال مربحة. لماذا كل هذه المراعاة لامرأة قبلت من أجل فوشيه^(٣) أن تخونه لقاء ألف فرنك يومياً، والتي كانت شريكة للصوص الذين نهبوا الكنز الوطني؟ وكيف استطاع بونابرت، الخارق الذكاء، والشديد الوضوح والبالغ الدقة والصفاء في أحكامه على الأشخاص والأشياء، أن يتقبل إلى جانبه زوجة تخونه بقيامها غالباً بمساعدة أعدائه؟ ألم يقل في جزيرة القديسة هيلانة أن جوزفين كانت المرأة الوحيدة التي أحبها، هو الذي عرف الشابة الناعمة دزيريه كلاري (Desirée Clary)، خطيبته الأولى التي وجدت نفسها في مواجهة هذا الإخلاص الأنثوي المطلق الذي جسده ماري فالفسكا (Waleswka). فهل تعطينا الجواب، القصة القصيرة التي كتبها عن كليسون (Clisson) بونابرت الشاب؟

(١) جوزفين هي أرملة الفيكونت بوهارنية تزوجت من نابوليون بونابرت سنة ١٧٩٦ الذي أصبح إمبراطوراً ثم طلقها سنة ١٨٠٩ م ليتزوج ماري لويز.

(٢) تاليران (Talleyrand) (١٧٥٤ - ١٨٣٨ م) رجل دولة فرنسي، دعم الكنيسة الدستورية واعتنق المبادئ الجديدة، وكان وزير الشؤون الخارجية في عهد الديركتوار والإمبراطورية.

(٣) جوزيف فوشيه (Fouché) (١٧٥٩ - ١٨٢٠) سياسي فرنسي، عضو في الجمعية التأسيسية ثم وزير الشرطة في عهد الإمبراطورية.

كانت زوجة الكونت بوهارنيه الذي أُعدم خلال الثورة الفرنسية . وكانت ستُعدم هي أيضاً، ولم تفلت من هذا المصير إلا بفضل سقوط روبسبير . فكانت إذاً إحدى الناجيات من النظام القديم الذي قضى عليه النظام الجديد الذي جسّده ومثله نابوليون . ويبدو أنها أحبت زوجها الأول، الرجل الأنيق، ولكن المختل العقل والعاث الذي اعتبر المرأة الشابة التي فرضتها عائلته عليه، قروية صغيرة يثقلها المجتمع، وحاول بكل الوسائل التخلص منها . وقد أنجبت منه ولدين : أوجين (Eugène) واورتانس (Hortense) لكنها بعد الكثير من خيبات الأمل، انتهت، قبل نشوب الثورة، إلى الانفصال عن زوجها . وقد حرمتها الأحداث من المبلغ الذي يدفعه لها آل بوهارنيه ومن مكانتها . ولمجابهة ضروريات الحياة القاسية فتشت عن حماة قادرين، وعاشت مغامرات عدة إحداها مع هوش^(١) (Hoche) . وتنقلت بسهولة من رجل إلى آخر، وأصبحت في نهاية المطاف عشيقة لبارّا عضو حكومة المديرين نفسه الذي اكتشف بونابرت وأطلقه . وقد عرفها بارّا عليه، وأقنعها بأن تصبح زوجة هذا الجنرال الشاب الكورسيكي الذي اعترفت أنها لا تحبه، ولكن وضعه يعد بأن يصبح لامعاً .

والتممة معروفة، على الأقل في خطوطها الكبرى، ولكن هناك مجده من التفاصيل لها أهميتها، وينبغي أن نأخذها بعين الاعتبار عندما نرغب في دراسة طبيعة العلاقة بينهما عن قرب . لم يدعُ نابوليون أفراد عائلته إلى زفافه، ووصل هو نفسه إلى قاعة الاحتفال به متأخراً، ولم تحدد جوزفين عمرها الحقيقي في عقد الزواج، ولم يفعل هو أيضاً ذلك . ويسمح كل هذا، عند الاقتضاء، بتفسيره بزواج عقلي أو زواج مصلحة . ولكن ما سبب هذه الرسائل المولّهة التي خطها بونابرت إلى جوزفين؟ أهو الحب المستحيل الذي يتكلم، الحب الذي يستنفد في خسارة صافية والذي يحتاج لكي يوجد إلى عائق، إلى فشل، إلى خيانة؟ ألم يكن بونابرت يشعر أنه في أحسن حال إلا أمام شريكة هاربة من الحب؟ ما هي الطبيعة الحقيقية لعلاقتهم؟

(١) هو لازار هوش (١٧٦٨ - ١٧٩٧ م)، جنرال فرنسي . أخذ الفتنة في مقاطعة فاند .

لقد رأينا في الفصل الذي تكلمنا فيه على الحياة الجنسية، كم كانت الأشياء معقدة في هذا الميدان. ونعرف أنه لا يكفي أن يدّعي شريكاً أنهما متحابان لكي يكونا قادرين على النجاح بشكل طبيعي في الفعل الجنسي. ولا نستطيع، فيما يخص بونابرت وجوزفين في نسق الأفكار هذه إلا تقديم بعض الافتراضات. وما نعرفه عنهما يسمح بالتأكيد أن الرجل الذي يعنى بقهر إحساسه يجعل من نفسه عدواً شرساً لكل عفوية طبيعية. لقد روى لنا، في مذكراته، قصة لقائه الأول بفتاة شابة أمام الباليه - رويال^(١)، فقال: لقد تكلمت معها، أنا المقتنع أكثر من أي فرد آخر بقبح حالها، وأعتقد أنني دُنست من جراء نظرتها وحدها. لقد كانت فتاة مسكينة، روت له بكل بساطة تعاساتها، فتبعها، ولم يحتفظ من هذه المغامرة إلا بالقرف والاشمئزاز، أما قصصها، وحياتها البائسة فلم تترك في ذاته أية ذكرى أو شعور بالرحمة أو حتى شفقة إنسانية.

ونعرض في ما يلي بعض خواطر نابوليون بونابرت الشاب عن الحب، بشكل حوار:

- سيدي، كيف يكون الحب؟ آه، ماذا أأست مكوّناً مثل الرجال الآخرين؟
بونابرت: أنا لا أسألك تعريف الحب. فقد كنت في ما سبق عاشقاً، وبقي لي منه ما يكفي من الذكريات كي لا أحتاج إلى هذه التعريفات الماورائية التي لا تقوم أبداً إلا بتشويش الأشياء. وأعرض عليك أكثر من رفض وجوده. وأعتقد أنه مؤذٍ ضارّ بالمجتمع، بسعادة الناس الفردية، وأخيراً، أعتقد أن الحب يسبب أكثر من سوء... وستكون نعمة من الإله الحامي أن يحررنا منه وأن ينقذ العالم منه...

(١) قصر الباليه رويال (Palais - Royal) بني عام ١٦٢٩ للكاردينال ريشليو وأصبح مسكناً لدوقات أورليان.

مع هذا الموقف من الحب، نفهم أن بونابرت الشاب لم يكن إطلاقاً مستعداً للاقتراب من المرأة بشكل يختلف عن الاقتراب من الخطر. ولكن، إذن، ما هو موضوع هوى الرجل الشاب، بماذا كان يحلم، بأي نوع من اللذة يمكن أن ينغمس؟ لقد أجاب بونابرت دون تردد: النوم والمخ مملوء بأمور الدولة، والقلب متأثر بالأشخاص المحترمين الذين يشعر بأسف صادق لتركهم (باولي)، هذه لذة تعرفها القلوب الكبيرة. واعترف لنا نابوليون في صحيفة المموريال: «عندما جمعت من فرط التعفف ريالين وست ليرات، توجهت وأنا فرح كالأطفال نحو حانوت بائع الكتب القائم قرب المطرانية. وكنت غالباً أزور رفوفه ممتلئاً بخريطة الحسد! وكنت أشتهي الشراء لوقت طويل قبل أن يسمح لي كيس نقودي بذلك. هذه هي أفراح شبابي وفجوره».

ومع ذلك، هناك اعترافان لم يقم بهما نابوليون بالكلام بل بالأفعال، اعتراف خان روحاً شغوفة تمضي اندفاعاتها في اتجاه يختلف عن الاتجاه المؤدي الى المرأة. فما كاد يتزوج حتى انطلق إلى الجبهة في إيطاليا. واندفع في المعركة التي لا تركز فقط على قهر العدو بل على السيطرة على جسده الخاص الذي تأكله المرض. كان الهدف الانتصار على مصائبه لينصر الناس المساكين الذين تبناهم من كل قلبه، والذين يريد أن يقودهم إلى النصر. وإذا وضعنا في الميزان الساعات التي أمضاها نابوليون في صحبة جوزفين، والساعات التي أمضاها في المعسكر مع رجاله، ولاحقاً خلال عهد القنصلية مع مستشاريه في مجلس الدولة أو مع وزرائه، فلن يبقى شيء كبير للنساء.

امرأة واحدة فهمت أخيراً كل هذا. إنها ماري فالفسكا التي نجحت، بعد مئات الجهود غير المجدية، في الانضمام إلى الأباطور في جزيرة إلبا. لقد اصطحبت معها إلى الجزيرة ابنها ألكسندر، آملة أن والد الطفل، أي نابوليون، سيدرك كل ما هي مستعدة لتقديمه إليه، الآن إذ لم تعد قائمة سلطة الدولة وواجبها لكي تفصل الرجل عن امرأته. لكنه لم يرد أن يفهم شيئاً. وتابع التذرع بماري لويز وملك روما، ومع أنه سليم من حيث الشكل، فقد قابل ماري برفض فظ بقدر ما هو جائر ومذل ومهين. وهذا ما قالته عنه في صحيفتها، ونشر

الكونت أورنانو بعض المقتطفات منه : «ولكن إذا كنت قد شاهدت الأمبراطور مجدداً، فقد كنت في عذاب، لقد أذلني غاية الإذلال. فكل هذه التحفظات وانتقاله منذ أن علم أنني سأتي، وهذا الانتظار الذي فرضه علي في الباخرة حتى حلّ الظلام، وهذا النزول الخفي من المركب الذي أرغمني على القيام به - كل هذا لماذا؟ لكي لا تعلم الأمبراطورة بزيارتي . . . لقد سخرت من ذلك كثيراً، هذا ما حاولت قوله له. إنها زوجة سيئة وأم سيئة! ولو لم تكن هذه أو تلك، لكانت هنا. لقد فكرت بذلك كما كتبتة.

إن مشاعري نحوه ثابتة لا تتبدل. وأفهم العديد من الأشياء التي لا يفهمها أقرب أقربائي وأفضل أصدقائي. ولا أفهم مثلاً لماذا قبلني في جزيّره إذا كان يتوجب عليه التظاهر بعدم التحدث معي قط كما في السابق. ها هو إذاً يستعيد احتراسه من النساء».

ولنصف إلى ذلك ما قاله الطبيب الجنرال ر. برايس:

لقد كان لنابوليون عشيقات كنّ جميعهن مصنفات. عددهن قليل. ويمكن للتاريخ الفضائي أن يتلذذ بإعطاء أسماء القارئات^(١)، والوصيفات والممثلات اللواتي اجتمعن به في السرير. ويتوجب على التاريخ غير المسهب تجاهلهن. وينبغي عدم خلط الشعور الذي يملك الرجل بنزوات رغبته الجسدية. فمعظم عشيقات نابوليون كنّ لفترة مؤقتة. فالعلاقة مختصرة، وفي أغلب الأحيان لمدة وجيزة فريدة. ولم تتجاوز قط الوقت الذي خصصته لها التسلية الأمبراطورية، ولم يركز عليها ويطلق المكث عندها قلبه أو فكره. وكان تأثير هؤلاء العابرات في مصيره معدوماً. فضلاً عن ذلك كان يتخفى من أي تعدي أو تطاول، ولم تكن أية واحدة منهن تجرؤ على التفكير في ذلك. وكانت الفتيات الأكثر اطمئناناً يرتعشن ويرتجفن عند حصول مداعباته وملاطفاته.

(١) يقصد بالقارئات الفتيات اللواتي يقرأن للعظماء ما يريدون من قصص أو رسائل أو ما شابه.

أما الوحيدة التي يمكن ذكرها فهي البولونية المثيرة الأنسة فالفسكا. فقد كانت تهب نفسها دون أي حماسة للحبيب، لذاك الذي كانت ترى فيه محرر الوطن وبعد أن تهب نفسها تتولع به، لقد كانت صغيرة السن - ثمانية عشر عاماً - لطيفة ورقيقة وناعمة. وقد أحبها نابوليون بحنان، لكنه اكتفى بإنجاب طفل وتقديم المال الذي لم تقلق بشأنه زوجته البولونية، كما كان يدعوها. إن قصة الكونتيسة فالفسكا هي قصة تضحية كثيفة وغير مجدية. ولكي يضمن نابوليون لنفسه صداقة القيصر اسكندر الخدّاعة تنكّر للموعد التي قطعها في لحظات العفوية. ولم تكن الأميرة النبيلة ماري فالفسكا بأكثر حظاً من إليانور دونويل (Éléonore Denuelle)، المتآمرة التي كانت تقدم عقارب الساعة لتقصّر مدة المعانقات التي تسخر فيها، والتي ولد منها كونت ليون المزعج.

لم يخضع نابوليون أبداً للشهوة. فقد قال: «إن النفوس الكبيرة تدفعها بعيداً كما يتحاشى الملاحون صخور البحر». وكانت رغبته الملحة تخمد غالباً من تلقاء نفسها وقبل أن يحصل على وقت الفراغ الضروري لإشباعها وإرضائها. وكان يقنع بلذة قصيرة بسيطة وكان يرتضي بسهولة حرمانه منها.

ولم يتردد برايس، نتيجة لهذه الملاحظات، في التأكيد أن نابوليون «كان حذراً من المرأة». «فكان يخشى من عقليتها المتآمرة ومن مكرها الذي يشعر تجاهه أنه أعزل مجرد من السلاح. وكانت قوته تقلق من ضعف دقيق إلى هذا الحد. وكان يرى في المرأة العدو الأكثر خطراً لأنها تسعى، هي أيضاً إلى السيطرة التي يسعى إليها الرجال».

وأضاف برايس أيضاً في هذا الشأن: «إن المرأة الخدّاعة المغناج هدفها الوحيد هو إخضاع الجنس القوي، الرجل، لذلك كانت تبدو له عدواً ينبغي عليه حمله على الخضوع. فكان يأخذ على هذه ذراعيها الطويلتين، ويأخذ على تلك تسريحتها المنحرفة، وعلى ثلاثة ذوقها الرديء في اختيار ثيابها. ولكي ينتزع من الفاتنات كل وهم يخالجهن عن قوتهن، كان يلهو بلعب دور الوغد النذل. فكان يروي لهن خيانات أزواجهن أو أحبابهن. فهل كان يعطين

دروس التواضع الفظة هذه بسبب رعونته وخرقه؟ لقد كان يذكر المرأة بأن من الواجب عليها أن تكتفي بدور ثانوي يتناسب مع دونيتها. وأكدت هذا التفسير مونتولون (Montholon) فقالت: «إن الطبيعة الاستبدادية الخاصة بنابوليون كانت تنظر بشكل سيء إلى التأثير الذي تمارسه النساء في المجتمع».

إذاً كان نابوليون محققاً فعلاً عندما أعلن أن شهواته وفجوره كانت من نمط مختلف عن شهوات وفجور الرجال الآخرين. وحافظ على ذلك طوال حياته، مع أنه كان يستطيع القول، بعد بضع مغامرات، إنها ربما لم تكن إلا تجارب عاطفية مخصصة لخداع نفسه. إذ كيف كان يستطيع الشك في أن حذره من النساء، اللواتي كان يخلط، على الأرجح، بينهن وبين الفضيلة، يمكن أن يكون نتيجة قلق وشعور عميق بالذنب، يمنعانه من أي تراخٍ طبيعي. وكيف يعتقد أن ما يشكل بالتحديد قوته، وحاجته إلى الانتصار على كل أنواع الضعف، وهذه الضرورة للنضال دائماً، من دون هدنة ومن غير انقطاع، يمكنها أن تكون نتيجة لنوع من العجز لا يسمح له بالتعلق بالنساء إلا بشكل عابر، أو من بعيد، لكي يفلت بهذا الشكل من الحب بتحويله اللذة إلى فعل مختصر، بلا غد، كما يلاحظ ذلك في بعض حالات الإراقة المبكرة. أكانت امرأة تقاومه؟ لقد كان يحقق عليها، لأنه لا يستطيع التخلص منها ومن الحب الذي يخشى أن يقهره، مباشرة، وبتشفي سريع. وكانت اللقاءات الأولى بماري فالفسكا، التي نعرف بعض تفاصيلها بوساطة مذكرات هذه البولونية مثالية بهذا الخصوص. إذ وجد نابوليون نفسه أمام امرأة تعتبره حلمها، ولم تكن على الأرجح تطلب أكثر من أن تهبه نفسها، بشرط أن يتصرف معها حسب الأصول. والحال أنه عاملها بخشونة، لذلك نحس بوجود نوع من الاغتصاب، ولم يتغير قليلاً إلا لاحقاً، بعد أن تغلبت عليه فتنة حبيبته وروعته، مع عدم استطاعته أن لا يفر منها كما فر من خطيبته دزيريه كلاري لأسباب مماثلة على الأرجح.

وعلى النقيض من ذلك، لم يكن هناك ما يخشاه مع نساء مثل جوزفين. فمثله مثل الغبي الأبله الذي لكي لا يخاف من أن يبتل بماء المطر، يرمي بنفسه في الماء. إنه الهرب إلى الأمام، بكل تأكيد، وهو هرب نموذجي لدى بطل

معركة أركولي عندما يشعر بالخوف. وها هو ييوح بنفسه بما يلي: كانت جوزفين تميل إلى الترف بشكل كبير، تميل إلى الفوضى، إلى التراخي في الإنفاق، وهي أمور طبيعية لدى المولدين في المستعمرات. لقد كان من المستحيل عدم تحديد حساباتها، ومصرفها. فكانت مستدينة دائماً. وكانت المشادات والمجادلات الكبيرة، على الدوام، تندلع عندما تحين لحظة تسديد ديونها. وظلت على هذه الحال حتى ذهابي إلى جزيرة ألبا حيث جاءني مذكرات جوزفين من كل أنحاء إيطاليا لتنقض عليّ. وهناك بعد آخر مميز لجوزفين وهو إنكارها الدائم. ففي بعض اللحظات التي كانت تجمعنا، وعند بعض الأسئلة التي أ طرحها عليها، كانت حركتها الأولى هي النفي. وكلمتها الأولى هي لا.

وقال لغورغو (Gourgaud) في جزيرة القديسة هيلانة: كانت جوزفين تكذب دائماً تقريباً، ولكن بلباقة. إنني أستطيع القول إنها المرأة التي أحببتها أكثر. ووصفها برايس على الشكل التالي:

«ولقد كان بإمكانها الظهور كمخلصة، والبقاء كتومة، والتظاهر بالسذاجة، والبراءة والكذب، وحتى الإجهاش بالبكاء، إذا كان من المفيد سكب الدموع، وتصنع الاحتشام والخفر، والاحتجاجات، وعند الحاجة ممارسة الغرام لأنها تعلمت إغواء الرجال دون الانخداع باللعبة».

وبعبارة أخرى، كل شيء في مشاعر هذه المرأة، كان مزيفاً ومخصصاً للخداع ولهذا ربما كانت شريكة مثالية لنابليون، الشريك القادر على التظاهر بالحب دون أن تكون المسألة مسألة محبة. وعندما لا يكون هناك من الحب إلا المظهر الخارجي، فمن غير المجدي والمهم الهرب منه، لأنه ليس هناك أي خطر. ومع ذلك كان لجوزفين شغف ما، وربما، في هذه النقطة، لديها شيء مشترك مع بوناپرت. فهي مثله تحب التبخر والإغواء والانتصار، ليس بالأسلحة، بل بالحلى والمجوهرات، بالتبرج والتزين، رموز القدرة الكلية. «لقد اشترت، كما قال برايس، دون حساب، وخاصة دون حاجة، ما كان

يعجبها . وكان لديها حوالى ست مئة فستان في آن واحد . وهذا الإسراف دمّرها إذ لم تأخذ حذرهما من ذلك . وكان يبدو لها مستحيلاً العيش دون الاستدانة . ولم تنجح إنذارات نابوليون وتعنيفاته التي كان يرددها غالباً ، أبداً في إصلاحها . وكانت تتذرع برغبتها الصادقة في إطاعته ، لكنها لم تفعل من ذلك شيئاً .

وذكر روجيه ريجيس (Roger Régis) في روايته التاريخية عن الأمباطورة جوزفين أنها كانت تحب المجوهرات بشغف ، وخاصة الألماس ؛ وكانت تخرج أحياناً مع صديقتها الحميمة كل هذه الكنوز من عليها لتلمسها ، لتداعبها ، لتكدها وتلعب بها . وعندما يتوجه الحب في هذا الاتجاه لدى امرأة ، لا يبقى أي شيء للرجال ، الاعتبارين حينئذ في نظرها كأدوات لإرضاء هوى لا علاقة له بالحب .

ومع ذلك انتهت جوزفين إلى التعلق بنابوليون ؛ وقد برهنت له عن ذلك عندما كانت على وشك أن تفقده بعد أن تقرر الطلاق . ففي هذه اللحظة ، ربما كلاهما ، من جراء الحب شعر بالحسرة التي خلقها الانفصال . فبكى نابوليون كما بكت جوزفين ؛ وانزوى طوال ثلاثة أيام في تريانون^(١) (Trianon) عاجزاً عن القيام بأي عمل .

أكان ينبغي أن يحب جوزفين التي طالما سخرت من حبه؟ أم إنه كان يخاف للغاية أن يجابه الحياة بدونها ، مجرداً من الملهاة التي كانا يمثلانها معاً ، أم كان يخاف من مواجهة الحرية التي لا يعرف على الأرجح ما يفعل بها؟ زد على ذلك أنه بعد الطلاق واستعادة حريته ، نراه بدلاً من أن يختار امرأة مثل ماري فالفسكا ، الحامل ، في تلك الفترة بابنه ألكسندر ، يفضل القيام بملهاة غرامية أخرى مع ماري لويز شريكته الجديدة ، وسيمثل هذه الملهاة ، هذه المرة ، حتى موته ، رافضاً أن يرى الحقيقة ، لأنه لم يرغب قط في الاعتراف بأن ماري لويز قد تركته وتبرأت منه . لقد ماتت الأمباطورية المخلوعة في العام

(١) تريانون قصر مبني في حدائق فرساي .

١٨١٤ م، وماري فالفسكا، بعد الإهانة التي عانتها في جزيرة ألبا، قبلت الزواج من الكونت أورنانو (Ornano). ولحظة القرار الكبير، قبل الذهاب على متن بارجة بلليروفون (Bellérophon)، كان نابليون وحيداً، بدون حبيبات وبدون حب. أكان يفضل أعداءه لو استطاع القبول بأن حباً يمكنه أن ينقذه؟ ألم يكن سيختار سبيلاً آخر لو استجاب لنداء امرأة مثل ماري فالفسكا؟

إن سعادة سلام دائم كانت متعذرة أيضاً على نابليون، المرغم دائماً على التصلب للسعي إلى المجابهة مع أعدائه بدلاً من التراخي مع أصدقائه. وكان النقص في التراخي يميز كذلك مائدته، الأمر الذي يخلق جواً شاقاً متعباً. لقد كان نابليون يلتهم بسرعة وبطريقة شرهة بعض اللقم من أكلة ما، ثم ينهض من مكانه إلى المائدة قبل أن يبدأ مدعووه بتناول الطعام. فكانت تُقدَّم إليهم أطباق شهية ثم ترفع برشاقة وخفة، دون أن يجدوا الوقت للمسها. ونجد الحرمان نفسه في الاستسلام للنوم بشكل طبيعي. فقد كان نابليون معتاداً على العمل إلى وقت متأخر من الليل والليل كله أحياناً، وكان يفرض هذا النظام على مساعديه، المرهقين عادة من العمل معه، وهذا ليس قولاً بسيطاً عندما يتعلق الأمر برجال ذوي حيوية استثنائية مثل حيوية جنرالاته أو أعضاء الجمعية التأسيسية القدامى، الذين أصبحوا أعضاء في مجلس الدولة.

إننا نفهم الآن أن شغف نابليون كله كان موجهاً نحو ما يصنع قوته ومجده. وهكذا طوّر قدرة إغرائه، وفنه في إغواء الرجال، وفي التعلق بهم والسيطرة عليهم. ولنقرأ بهذا الخصوص بعض المقتطف من سير حياته لنقتنع بذلك. وهذا ما قاله عنه مانفال الذي عمل سكرتيراً له مدة طويلة:

«إن دراسة القلب البشري قد علمته فن اجتذاب الرجال والسيطرة عليهم. إذ كان حضوره وكلامه يثيران الحماسة. وكانت بلاغته متوثبة وسريعة، وكلماته حازمة نشيطة وعميقة وغالباً متسامية جليلة. ومظهره بسيطاً، لكن تكسبه رفعة سمة العظمة واعتياد القيادة، وسحر نظرتيه التي يتغلغل تعبيرها العطوف والصارم إلى أعماق القلوب، يوحي باحترام ممزوج بالخشية والمحبة. ولم يعرف

التاريخ قائداً أكثر شعبية منه» .

وروى نابوليون نفسه للدكتور أوميرا (O'Meara)، وهو طبيب في الجيش البريطاني كان يعالجه: «في حملاتنا، كنت معتاداً على المسير على حدود المعسكرات، وكنت أقف قرب جندي بسيط، أحادثه، أضحك وألهو معه. لقد كنت دائماً أعتز بكوني رجل الشعب» .

واستخرج تين^(١) (Taine) هذه السمات التي تميز طباع نابوليون في الصورة التي قدمها عن الأباطور فقال: خشونة، وفظاظة في العادات، وابتذال في المزاح العابر عند هذا العسكري، ثم عودة إلى الطيبة والسذاجة والإلفة والمداعبات اللغوية، فن كامل من السحر والإغواء» .

أما الدكتور كابانيس (cabanès) فقد قال في كتابه المهم عن نابوليون: في الحياة الخاصة للأباطور: «لقد كان معتاداً، في المعارك والاشتباكات أن يأخذ مكانه على ربوة، ليس لكي يرى بشكل أفضل، بل لكي يراه جيداً جميع الأفواج والفيالق المقاتلة عند خط النار، ومن بعيد، لم يكن بالمستطاع تمييز سمات وجهه ومعالمه، ولكن تُرى حركة يديه، منهمكاً، ذاهباً وآتياً من اليمين ومن الشمال، مشيراً إلى ضباط مجلس القيادة، مشدداً بحركة سامية على دقة الأوامر» .

لقد كان يبدو دائماً ممثلاً كبيراً، وهو بهذه الصفة لم يكن يحتقر أية وسيلة من الوسائل، حتى الوضيعة منها، التي يعرف أن من شأنها أن تكسبه التعاطف والجاذبية وثقة أولئك الذين يدعي أنه يفتنهم السحر، الأخذ بمجامع القلوب، والترويع عند الحاجة، في كل هذه الأمور، لم يكن أحد قادراً على مجاراته» .

وهذا ما كتبه الجنرال الروسي دراغومиров بخصوص قدرته على سحر الآخرين:

(١) إيسوليت تين (١٨٢٨ - ١٨٩٣) فيلسوف ومؤرخ فرنسي اشتهر له كتاب «أصول فرنسا المعاصرة» .

«لقد كان نابليون يطبق، بشكل ما، طرق الإيحاء التي دخلت اليوم في الميدان العلمي . وكان يقوم بذلك كل يوم تقريباً، أمام الجميع . ولدعم رأيه، يستشهد دراغوميروف بهذين الحادتين: في فريدلاندا^(١) (Friedland)، عندما أصدر الأمبراطور الأمر الى القائد ناي (Ney) لمهاجمة الجناح الأيسر لجيش العدو، أمسكه من ذراعه، وأسرَّ إليه بتوصياته ونصائحه، وإذا استعملنا تعبيراً مبتدلاً، لكنه شديد التعبير نقول «بين اثنين لا ثالث لهما»، ثم في اللحظة التي تركه ناي وانطلق، صرخ نابليون موجهاً حديثه إلى من يحيط به، وبصوت عالٍ لكي يسمعه ناي: «انظروا إلى ناي، إنه الآن أسد» ولنتذكر أيضاً ما قاله سيغور (Séguir) عن مسلك نابليون أمام ماسينا^(٢) (Masséna) قبل معركة أسبيرن (Aspern) وأثناءها . . .

وأضاف كابانيس: «كان الكثيرون ينذهلون أحياناً من الإنجازات الضخمة التي يقوم بها جنود الأمبراطورية الأولى، من قوة الجَلْد التي برهنوا عن تحليلهم بها، والتي تبدو للوهلة الأولى متناقضة مع ضعف الجسم البشري . واندھش الكثيرون من جراء تحمّلهم المشقات العديدة دون شكوى ودون ضعف أو خور، ولكونهم حطموا العوائق التي كانت تبدو منيعة لا تقهر . فجميع هذه المعجزات الغالية لم يكونوا قادرين على القيام بها إلا لأنهم كانوا تحت قيادة وإمرة وإيحاء قائد فذ مثير للطاقة والنشاط، عرف كيف يثير حماسهم وهياجهم، بفضل إرادة قادرة أخضعهم لها، جاعلاً كل عقل تابعاً وامتداداً له» .

ولكن لكي يستطيع المرء أن يثير وأن يوحي بطريقة نابليون يتوجب وجود بعض الشروط الخاصة . إذ لا يكفي أن يفعل المحرض فعله، بل ينبغي أن يتجاوب الشعب والعسكر . يتوجب وجود جو خاص كلياً لكي يتيح لنابليون

(١) مدينة في الاتحاد السوفياتي انتصر فيها نابليون عام ١٨٠٧ على الروس .

(٢) أندريه ماسينا (١٧٥٨ - ١٨١٧) ماريشال فرنسا، لقبه نابليون «الابن العزيز للنصر»، كان أفضل مخطّط بين ضباط الأمبراطور .

اختيار طريقه، والرسوخ فيه والنجاح، ينبغي أن يكون الرجل والشعب متفقين في لحظة محدودة من تطورها لكي يمكن أن يكرس كل منهما نفسه كلياً للآخر كما كانت الحال بالنسبة إلى نابليون والى فرنسا.

والحال أن فرنسا النابوليونية كانت تجد نفسها عند منعطف من منعطفات مصيرها. فمئذ التاسع من ترميدور^(١) الذي اتسم بسقوط روبسبير، لم تعد تملك سيداً. فانبثقت حكومة مديرين مؤلفة من خمسة أعضاء يتخاصمون باستمرار، ورغم شخصية بعض المديرين القوية، بدت هذه الحكومة عاجزة عن قيادة البلد في الإعصار الذي عصف به. وهوت الأمور من سيء إلى أسوأ. لقد كان البلد في خضم المعركة مع جيرانه، تهدده في الداخل ثورة الملكيتين، ومالية الدولة مفلسة، والأمن مفقود، وكان النهب عادة وقاعدة. لقد هجر المزارعون عملهم في الحقول، وفي المدن نرى العمال والحرفيين قد سقطوا في البطالة. باختصار لقد خلق روبسبير باقتراعه ضد نفسه، الفوضى والبلبله وترك البلد دون إدارة. إذاً لم يكن بلا عقاب تعرّض الثورة الفرنسية للتقاليد المقدسة والقديمة. وتتناظر هذه الفوضى في البلاد مع فوضى وتشوش في نفوس الأفراد المتقاذفة في هذا الاتجاه أو ذاك، والمنحازة وفق المصالح أو الظروف والأوضاع، أو الامتيازات أو الأحقاد التي حملتها على الوقوف إلى جانب الثورة أو ضدها. وهكذا انتصب الأولاد في وجه والديهم، والأصدقاء في وجه أصدقائهم، والشعب ضد الشعب، وفي هذه المعمعة التي ولّدتها هذه البلبله، انطلقت أسوأ الغرائز، متعطشة إلى إرضاء شهيات أو أحقاد طال كبجها. فباراً، الأكثر تأثيراً بين المديرين الخمسة، انتهى إلى بيع نفسه من آل بوربون^(٢) (Bourbons) لإصلاح الملكية. وبالإضافة إليه، انتهت أربعة أخماس الشعب إلى رفض الثورة والتنكر لها والرغبة في العودة إلى الماضي.

(١) ترميدور هو الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية الفرنسية.

(٢) عائلة عريقة خرج منها ملوك فرنسا بدءاً من هنري الرابع سنة ١٥٨٩.

ولم يكن يظهر في هذا الشعب المنقسم والمتنازع إلا نقطة واحدة ثابتة، إنها الجيش، وخاصة جيش إيطالية وقائده بونابرت الذي كلله المجد.

لقد سبق أن رأينا في الفصول السابقة كيف أنه في لحظة اكتئاب أخلاقي مشابه تتبين لدى الأفراد والجماعات الحاجة إلى قائد مسؤول، قادر على إعادة فرض النظام بشرط أن يتم استبدال التقاليد القديمة الملغاة بشيء ما جديد، وأن تختفي الفوضى البشعة وكذلك الشعور باللامن والخطر الذي يعاني منه أشخاص تخلّوا عن تقاليدهم. لأن المجتمع، دون دعم تقاليد ما أو أخلاقية ما، عاجز عن العيش، فيلتهم بعضه بعضاً.

من الوجهة النفسانية، يتم عادة الانتقال من نظام إلى آخر بوساطة ديكتاتورية رجل واحد قادر عند الحاجة على فرض نفسه بالقوة. وبفضل هذه الديكتاتورية يجد أعضاء الجماعة، الذين أخرجتهم سيرورة الثورة من أوساطهم وأعمالهم، مهنة، وهدفاً، ومثلاً، يستحيل عليهم العيش من دونها. ويتوجب على الديكتاتور أن يتحمل هذه المسؤولية، حاملاً بالنتيجة الوزر كله، مؤكداً قدرته الكلية، لتهدئة الرعب الذي ولّده لدى الأفراد اللامن الداخلي والخارجي. وسيتوجب عليه تقديم بعض الضحايا لإرضاء الشعور الجماعي بالذنب، مع احتمال تقديم نفسه في نهاية المطاف إلى المحرقة عندما تحين ساعته، ويكون بإمكان تضحيته السماح لشعبه باستعادة التوازن والسلام.

فلهذا الشعب الفرنسي المجزأ كرّس نابوليون كل حبه، كل شغفه وعواطفه؛ ومن أجله، من أجل هؤلاء الأشخاص الباسلين السعداء من جراء عذاباته وهمومه، الفرحين بفضل ارتبأكه وحيرته، ضحى بسعادته لأنه يحبهم كما يحب عائلته، أهله وإخوته وأخواته أكثر مما يحب نفسه. وستترك الكلام للأمبراطور، ونستمع إلى ما يقوله عن جنوده في لاس كاز (Las Cases):

«لقد كان جنودي مرتاحين جداً، أحراراً جداً معي؛ وقد رأيت غالباً أن أسكت على ذلك. وعرفت بأنني رجل رهيب بين الضباط وربما حتى بين

الجنرالات ولكن لم يكن ذلك أبداً بين الجنود، لقد كانوا يملكون حس الحقيقة واللف، وكانوا يعرفون أنني حامهم، وعند الضرورة المنتقم لهم».

وأسر إلى أوميرا: «لم ير أبداً هذا القدر من التضحيات من جانب الجنود إلا من جانب جنودي. ففي كل المصاعب والمصائب، لم يشتك أبداً الجندي مني، حتى الجندي المحتضر؛ ولم يسبق أبداً لأي رجل أن خدمته بإخلاص أكبر فرق جنده. وكانت القطرة الأخيرة من الدم تنزف من عروقه مع صرخة: «ليحيا الأمبراطور».

وما لم يقله نابليون هو أنه أحبهم بالتفاني الكلي نفسه، المخبأ بحياء خلف مظاهر أنانية وقحة ليست في نظرنا إلا واجهة مخصصة لتمويه شعوره الحقيقي. وقد خصص برايس في كتابه، فصلاً قصيراً للمخلص الفادي؛ إذ رأى مرجكوسكي (Merejkowsky) الفيلسوف الروسي الكبير نابليون مع إكليل شوك المسيح، ومنحه جميع صفات عظمة المخلص. وتتيح لنا معارفنا اليوم اكتشاف القلب الكبير المخبأ لهذا الرعب المرعب الذي لم يحلم إلا بسعادة الآخرين، فتوجب عليه، لتأمينها، رمي نفسه بنفسه في أسوأ التعاسات.

وهكذا جمع نابليون في نفسه كل ما كانت تحتاج إليه الجماهير الفرنسية في عصره لكي تتم قيادتها، وسنراه يصبح أولاً ابن هذه الجماهير، «عريفها الصغير»، ثم سيدها الأعلى، ونعرف في أية شروط وظروف بدأ قيادة جيش إيطاليا. فقد كان هذا الجيش صورة صادقة عن فرنسا كلها في عهد الديركتوار (حكومة المديرين). وهذا ما قاله ستندال عن ذلك في كتابه حياة نابليون: «لقد كان الجيش الفرنسي، منذ زمن طويل، خاضعاً لحرمانات فظيعة. وكان الأحياء يُنسَوْنَ غالباً، وهؤلاء الجنود، الموضوعون على قمم جبال الألب، الذين كانوا يجدون أنفسهم وسط الجليد ثمانية أشهر في السنة، تنقصهم الأحذية والملابس الشتوية. فمات نصف الجنود في المستشفيات وفي ميادين المعركة. وكان البيمنتيون^(١) يلقبونهم بـ «الأبطال ذوي الأسمال»... ورغم البؤس المفرط

(١) سكان منطقة جبلية في إيطاليا.

الذي تركوا فريسته، لم يتنشق هؤلاء الشبان الجمهوريون إلا حب الوطن والمعارك. فكانوا يضحكون من رؤية أنفسهم في ثياب ممزقة، ولم تكن محاولات الدفع التي تعطى للضباط تساوي عشرة فرنكات في الشهر، فكانوا يعيشون ويسعون كالجنود».

وبعبارة أخرى، كان جيش إيطاليا مؤلفاً من شبان جمهوريين قادهم حب الحرية والمساواة والأخوة، أي المثال الثوري الجديد، إلى مأزق. والعديد منهم، بعد أن ضحوا بفرح بالأرستقراطيين والقصور والكنائس في سبيل عاطفتهم الثورية، وبعد أن تبعوا إلى أقصى الحدود دعاة الحرية، تعيّن عليهم البدء بالتساؤل عما إذا كانت هذه الحرية خديعة مخصصة لتدبير لا مسؤولية القادة وإهمال الشباب: فلا شيء أكثر خطراً على شعب ما من حرية لا تقوم إلا بتغطية عناصر الفوضى، ومن المضاربين واللصوص الذين يستغلون سذاجة الجماهير السليمة النية. وتعيّن على بعض هؤلاء «الأبطال ذوي الأسمال» الآن التحسر على طفولتهم وعلى الأسياد الذين ضحّوا بهم. وتعيّن على الشك الانزلاق إلى الأرواح المحتضرة للرجال الذين أعطوا حياتهم وثقتهم لحكومة الشعب العاجزة عن تغذيتهم وحمايتهم، والتي كانت تبدو كأنها قد تخلت عنهم.

ولكن ها قد أرسل إليهم قائد، رجل وصفه كامباسيريس^(١) (Cambacérès) بعد المقابلة الأولى معه، بالشكل التالي: «دُقّ بابي في الساعة الثامنة صباحاً، فدعوت الطارق إلى الدخول، فرأيت رجلاً قصيراً ضامراً، غير مسرّح الشعر، وضيافته السبلة مدلاة على أذنيه (كانت تلك هي الموضة) وهو مرتد ثيابه بطريقة عجيبة، جزمته قصيرتان جداً، ثوبه أطول من اللازم، وربطة عنقه مقلوبة، وكذلك القبعة المبينة فرقته. ولكن عبر هذا الحزمة، يد ضامرة، بيضاء،

(١) كامباسيريس، جان - جاك (١٧٥٣ - ١٨٢٤) رجل قانون فرنسي، عضو في الجمعية التأسيسية فنصل ثم مستشار الأمبراطورية.

مرسومة بروعة، وفم فاتن، وخاصة عندما تملؤه ابتسامة رقيقة، ثم عينان...
آه! أي عينين، عينا أسد، نسر...».

كان هذا الرجل القصير مسبقاً بأسطورة، فقد كان مرتبطاً بروبسيير وهو شاب لذلك قاد فرقة في مدينة طولون، واستعاد المدينة من البريطانيين في معركة قام خلالها، مثل المدفعي البسيط، بتدخير مدافعه بنفسه، مدافعه التي تركها الجنود الذين حصدتهم القنابل. ولكن فوق كل هذا، تشعر لديه بمعرفة بالنفس الإنسانية، بضيق الأشخاص الأخلاقي والمعنوي الذين عهد بهم إليه، وأفضل من أي شخص آخر كان يحسن شفاء النفوس وقيادتها. وهذا الرجل، الذي كُتب عنه الكثير من الحكايات الطريفة، والعديد من الكتب والروايات، والذي تجابهت كل الآراء بشأنه لتناقش قيمته كجنرال، ومدير، وأميراطور، كان فناناً عظيماً، بقي، في نظرنا، مجهولاً من معجبيه أنفسهم.

لقد كان نابوليون يفهم أن الحرية الأكثر فائدة للأشخاص العاطلين عن العمل تقوم على اختيار تبعيات موفقة وخصبة، أولم يكن، هو نفسه، ممثل شباب غير معروف ومتعطلاً يتأهب لاقتحام السلطة، وعالم، وعصر وحضارة كاملة؟ وهو الذي كان ما يزال مجهولاً بالأمس، غريباً يعتبره بعضهم لصاً كورسيكياً مسلحاً، يلبس ثياباً رثة مثل جنوده، ويرئس جيشاً يفتقر إلى الأحذية، وإلى المدافع وإلى الذخيرة، يتغذى فقط تقريباً على الكلام المعسول الذي يغدقه عليه الانتهازيون في تلك المرحلة، أولم يكن هو نفسه التعبير عن هذه القوى المجهولة التي تولد في بؤس الربيع البارد والوحشي والتي تشق لنفسها طريقاً نحو الحياة والشمس رغم الضعف والفقر؟.

لكنه كان شاباً، شاباً مثل الشبيبة التي كانت تتبعه، وهذه الشبيبة، كانت أفضل ضمان لنجاحه. لقد أتاحت له أن يفهم التطلعات الأزلية لجيل كامل ولد، لإنسانية تحتاج إلى الإيمان بالقوة، بالقدرة والمجد، وتحتاج إلى الاعتماد على مثال العظمة الذي أعطاه القادة والماضي. وباستعداده للتضحية بسعادته الشخصية يعطي هذا المثال الضروري لجيل قلق يوشك أن يغرق في خيبات

الأمل القاسية التي يوجدها التردد والشك والشعور بلا جدوى الحياة .

وهكذا ولد نابوليون، ليس الرجل، بل الشخصية التي انتحلها والأسطورة التي ابتكرها. لقد وُلِدَ من هذا الاتحاد بين رجل عبقرى وشعب يجتاز أزمة، شعب من الرجال البنواصل البسطاء المنطلقين في مغامرة مخيفة من جراء اضطرابات ثورة تبحث عن طريقها، وتتأرجح أيضاً بين الفوضى والخواء وبين تجدد النظام الاجتماعي .

من أجل هؤلاء الرجال البنواصل ضحى نابوليون بحياته، بقبوله القيام بدوره الذي سيؤديه بتفانٍ كلي، مهما كانت الآلام التي سيضطر لمكاببتها شخصه المسكين . وسيخصص كذلك الدور فن مخرج عبقرى، وسيخلق أساطير أبدية . إن شعر الشجاعة، والمعركة، وشعر المجد، وكرامة الإنسان سيكتسب معنى جديداً على يديه . وسيدون شعر البطولة، بحروف من دم في كتاب التاريخ . وسيظهر شعر الموت والوفاء الكلي في أغاني رماة القنابل ذوي الشوارب الكثيفة . وسيكون لهذا الشعر، ولهذه الأغاني عنوان واحد، على الدوام : «إلى الأمام، عاش العريف الصغير، عاش الأباطورا» .

لم يفهم أي شخص آخر غيره كم يحتاج الرجل المرتاب، المحروم من سيده ومن دينه، إلى رب كي لا يموت . وهذا الرب، سيرشده هو إليه . وسيكون هو الذي يتحول إليه، هو الذي سيوجد هذه القدرة السحرية التي تنعش وتقوي الخائري القوى، توقف الخائفين منتصبي القامة، تجعل بعض الناس مساكين وبعضهم أغنياء، بعضهم مرضى ومتألمين وبعضهم رجالاً سعداء . وسيتجلى آلاف الموتى ليقدم إليهم مثال خلوده، وسيتنكر لكل راحة، في الليل أو النهار، ليكرس أسطورة قدرته الكلية؛ وسيرتمي بفخر في المعركة، رغم الحمى والهموم، وخيبات الأمل الشخصية، ليعطي شعبه البرهان على أن إرادة الإنسان قادرة على التغلب على شقاء الطبيعة وبؤسها كله . وبهذا الشكل اكتسب نابوليون النفوذ، الذي كان يتمتع به، في جموع جنوده الذين كرس جهوده لهم . إذاً لم يكن هذا النفوذ شيئاً آخر غير التعبير عن آلام رجل ضحى بنفسه ليصبح

سيّد شعبه، لأن هذا الشعب، رغم ثورته، لم يستطع بعد العيش دون ملك ودون سيّد.

بهذه العقلية بالتحديد سيخوض نابوليون ستين معركة كبيرة وعدداً لا يحصى من المعارك الصغيرة. لقد قُتل تسعة عشر حصاناً تحته، وجرح مرتين. في المرة الأولى بشكل خطير عند مدينة طولون^(١)، وفي المرة الثانية بشكل طفيف عند مدينة راتسبون^(٢). لكن موهبته في السيطرة لم تكن كافية كثيراً، له فقط، لتتيح له القيام بدوره الكبير. فكان يحتاج، بالإضافة إليها، إلى صفتين أساسيتين للقيام بمهمته: أولاً قوة القبول بمسؤوليات مرهقة وعدم التراجع أمام أي شيء في سبيل النجاح؛ وثانياً ذكاء نادر تماماً، يتيح له أن يفهم بشكل حدسي وبدهي التسلسل النفساني للأشياء. وأن يعرف أنه، حتى عندما ينظم المعارك الأكثر فتكاً، ليس إلا أداة سيرورة حياة لا تكتمل من غير جرحى، من غير أموات ومن دون تدمير. وبهذا الوعي بالأشياء فقط يستطيع الفوز بهذه السكينة الرضية ورباطة الجأش للقائد الذي يرى الموت يصارع حوله أعز عسكريه وأفضل أصدقائه، والذي يشعر أنه غير مسؤول عن مصيرهم، حتى عندما يعطي هو نفسه الأمر بالمعركة التي أودت بهم. لقد كان نابوليون رجلاً علمياً عقلاً، نوعاً من الجراحين لم تكن الحرب بالنسبة إليهم إلا عملية ضرورية لسيرورة الشفاء.

لقد كان يشعر، هو نفسه، أنه موجّه بالثورة الفرنسية ومتحدر منها. فكان يقول في أوائل العهد بالأمبراطورية: «أنا الثورة الفرنسية». وأوضح بعد معركة واترلو^(٣): «لم تشن القوى الأوروبية الحرب ضدي، بل ضد الثورة الفرنسية».

(١) طولون مدينة فرنسية تطل على حوض البحر المتوسط وهي مرفأً عسكري ومركز صناعي.

(٢) مدينة في ألمانيا تقع على نهر الدانوب.

(٣) جرت معركة واترلو في ١٨ حزيران ١٨١٥ وخسر ها نابوليون أمام ويلنغتون وبلوخر. وواترلو مدينة في بلجيكا.

وظل اليعاقبة^(١) (Jacobins) أوفياء له حتى النهاية، كما يظهر ذلك مثال الشريف كارنو^(٢) (Carnot). وقال آخر عنه: «إن شرف فرنسا وصالحها لا يسمحان لي بالشك في أن مآثر نابوليون هي مآثر الثورة الفرنسية في نهاية المطاف».

وقال نابوليون: «إذا كانت ثورتنا قد بدت ذات حتمية لا تقاوم، فذلك لأنها كانت هيجاناً أخلاقياً حتمياً، مثل الهيجانات المادية، بركاناً حقيقياً... أغلقت هاويته الفوضوية. لقد نظمت الفوضى، ونظفت الثورة الفرنسية».

وقال، لاحقاً، في جزيرة القديسة هيلانة في المموريال (كتاب مذكراته): «إن الثورة الفرنسية، رغم كل أهوالها، لم تكن أقل من السبب الحقيقي لتجدد عاداتنا وأخلاقنا... كما أن أقدر الزبل يعطي أفضل المواسم. ويمكن، بكل تأكيد، إيقاف الحركة التصاعدية وإخمادها. ولكن ليس تدميرها...».

«ومن الآن فصاعداً لن يستطيع أي شيء تدمير أو محو المبادئ الكبرى لثورتنا... وستكون حقائقها من الآن فصاعداً خالدة. وستحيا في بريطانيا العظمى، وستضيء في أميركا، وهي مؤمنة في فرنسا. وستكون الإيمان، والدين، والأخلاق لكل الشعوب، وسيرتبط هذا العهد المأثور بشخصي مهما قيل عنه، لأنني في نهاية المطاف أشعلت شعلته، وكرست مبادئه، واليوم أنهى الاضطهاد عملية جعلني المخلص المنقذ...».

وهكذا استطاع نابوليون، المسلح بموهبته وسحره وشجاعته وعلمه بشكل أفضل من روبسبير، مجابهة مقتضيات المصير الفرنسي. وقد تلقب، هو نفسه، أحياناً بـ «روبسبير على صهوة جواد»، وأحس إلى حد بعيد بأنه خليفته.

(١) اليعاقبة منتدى ثوري كان يعقد جلساته في الدير القديم لليعاقبة في شارع سانت أونوريه بباريس، وكان روبسبير أحد خطبائه الرئيسيين.

(٢) لازار كارنو (١٧٥٣ - ١٨٢٣) عالم رياضيات وإصلاحي فرنسي، عضو هيئة السلامة العامة ومنظم انتصارات الجمهورية الأولى.

لقد أقدم على الجناية التي تراجع أمامها رويسبير: فاعتلى عرش ملوك فرنسا. وأعاد تكوين تقليد العرف، إذ حكم، وأنقذ النظام الاجتماعي للفوضوية^(١)، وسمح للفرنسيين بالعيش مجدداً على أسس جديدة. ولكن كيف استطاع النجاح في هذه المعجزة التي مازال تدهش العالم حتى الآن؟ وبأي وسائل؟

إن الثورة الفرنسية، بقلبها النظام الاجتماعي القديم رأساً على عقب، وبتدمير سلطة الكنيسة ونفوذها، وقوة الحكومة والتقاليد، والبنى القائمة، قد رمت خارج كل تنظيم اجتماعي لملايين الأفراد الذين وجدوا أنفسهم، لبضع سنوات، محرومين كلياً من ركيزتهم الأخلاقية، وقد رأينا كيف أن الإنسان، من دون هذه الركيزة، والاستعمال وبغير هدف محدد، يجد نفسه في وضع من أكثر الأوضاع تزعزعاً. إنه يخاف، وكل شيء يخيفه. ويردّ على هذا الخوف بالرغبة في إسقاطه على الآخرين، فيخلق الرعب. فهو إذ يشعر بأنه مهدد، يهدد، يضطهد، يسلب ويقتل. فينشأ توتر مفرط بين أفراد الجماعة الثورية. وتهدد هذه العدوانية بنية الأمة بالتدمير الكلي، ومن المستحيل نصح النفوس لجعلها مسالمة غير مؤذية. وينبغي إعادة خلق بنى والسماح للناس بتوجيه العنف نحو أهداف محددة، ومن دون هذا الأمر، يخشى أن يصبح هذا العنف مقدراً على الجميع.

في هذا الوضع يتعلق الأمر أيضاً بإسقاط هذا العنف مجدداً على ضحايا قادرين على تهدئة الحيوان الثائر في النفوس. إذ تصبح الحرب الخارجية غالباً إحدى الوسائل الوحيدة المتوافرة لتحاشي الحرب الداخلية. والقائد، في هذه الحالات، لا يستطيع المحافظة على الضحايا. ويستطيع على الأكثر تعيينهم لتحديد السوء؛ فيتهم البعض لإنقاذ الآخرين. ويتحملة مسؤولية هذه العملية،

(١) الفوضوية نظام سياسي واجتماعي مثالي يقضي بأن يكون الفرد متحرراً من كل وصاية حكومية.

يحرر قسماً ثقيلاً من الذنب الذي يسحق جميع أولئك الذين قتلوا جارههم لإنقاذ أنفسهم . فيأخذ على عاتقه الجريمة وعقابها .

وأصبح نابوليون ، بعد أن كان جندياً ، المنقذ المخلص كما زعم هو نفسه : . . . (واليوم أنهى الاضطهاد جعلي المنقذ) . لقد كان جندياً أولاً ثم منقذاً على الأثر . فاستمر دوره كجندي حتى العام ١٨١٢ . وبعد الموسكوف^(١) (Moscova) غلب عليه دور المنقذ . واكتمل الاضطهاد والتضحية في جزيرة القديسة هيلانة . ونشهد ، من غزو إيطاليا حتى جزيرة القديسة هيلانة ، الاكتمال العظيم لمصير سيختتم بالاستشهاد . فهذه الجزيرة ، من الوجهة النفسانية ، هي التتمة المنطقية للمهمة التي بدأت أثناء غزو إيطاليا . ونعرف تطورات هذه الملحمة الماثورة وتواريخها . وما تم بشكل مصغر في إيطاليا ، تم لاحقاً بشكل كبير ، إلى أن أصبح «العريف الصغير» الأمبراطور ، وأخيراً أسير لونغوود^(٢) (Longwood) .

لقد كان دور الجندي بالنسبة إلى نابوليون الدور الأكثر مجداً وإذهالاً ؛ ودور الفادي المخلص الدور الأكثر إجحافاً والأقل تقديراً . ويظهر هذا الأمر بوضوح لأن هذا الدور الأخير مرتبط بشكل أكبر بمأساته الداخلية ، وهي مأساة خفية لم تظهر ملامح لها خارج نفسه . ونستطيع اليوم فقط إعادة تشكيلها بفضل التحليل النفسي .

وعندما يُضطَلَع بعمل مثل العمل الذي كرس نابوليون نفسه له ، وبهذه الطريقة الخطرة ، ويشكل التكفير جزءاً من المهمة ويكون محتملاً ، يتردد الرجل المضحي به . ذاك الذي استشف إلى جانب امرأة مثل ماري فالفسكا كيف

(١) لونغوود مقر نابوليون بوناپرت في جزيرة القديسة هيلانة ، من ١٨١٥ إلى ١٨٢١ .

(٢) الموسكوف نهر روسي يجري في موسكو . شهدت ضفافه في العام ١٨١٢ انتصار نابليون على الروس .

يكون الحب الحقيقي ، ذاك الذي أحب أن يتنازل عن كل إشارات العظمة لكي يكون مواطناً بسيطاً، لكي يثرثر مع جندي ما في المعسكر، أو أيضاً لكي يختلط كشخص غير معروف بعامة الناس، ولكي يقف بالطابور عند مدخل المسارح، ذاك الذي أراد تذوق سعادة البسطاء الذين دافع عنهم بشراسة كبيرة، ذاك الرجل الذي أراد أن يكون سعيداً مثل أي رب عائلة في امبراطوريته. لكنه لم يؤمن بحقه في الانسحاب من مهمته.

لقد قتل موبيرون^(١) (Muiron) عند جسر أركولي^(٢)، وهلك الكثيرون أمام عكا^(٣) بالنار أو بالطاعون، وقتل كليبر^(٤) في مصر، ودو سيز الذي أنقذه في مارنغو^(٥)، وأولئك الذين قتلوا في أوسترليتز^(٦) وأسبارن، وفاغرام^(٧) وأيلو^(٨)

(١) أحد ضباط نابوليون.

(٢) بلدة إيطالية.

(٣) حاصر نابوليون عكا ولكنها صمدت في وجهه في العام ١٧٩٩ وتفشى الطاعون في جيشه فانسحب.

(٤) هو جان باتيست كليبر (١٧٥٣ - ١٨٠٠ م) جنرال فرنسي. حكم مصر بعد رحيل نابوليون وقتله سليمان الحلبي.

(٥) مارنغو مدينة في إيطاليا وقد تحدثنا عن بعض تفاصيل معركة مارنغو سابقاً.

(٦) أوسترليتز مدينة في مورافيا في تشيكوسلوفاكية قهر فيها نابوليون الروس والنمساويين في ٢ كانون الأول ١٨٠٥.

(٧) فاغرام مدينة في النمسا تقع قرب فيينا، قهر فيها نابوليون النمساويين في ٦ تموز ١٨٠٩.

(٨) مدينة في الاتحاد السوفياتي تغلب فيها نابوليون على الروس والبروسيين في ٢ شباط ١٨٠٧.

وفريدلانند^(١)، وفي روسيا ثم دوروك^(٢) ولان^(٣) . . . كل هذا الحشد من الأموات يناديه. وليس في هذا الحشد إلا الأصدقاء الذين حُرم من النجاة معهم والعيش وإياهم في السلم، وهناك الأعداء، والضحايا، ودوق أنغيان^(٤)، وآخرون أيضاً، جيش لا يحصى من العائدين الذين ينتظرون، من الرجل الذي هلكوا لأجله أو بسببه، أن يحترم العهد الذي يشده إلى المتوفين. وينبغي أن يشار لموتهم ولكن ليس بفرنسا بكاملها، بالشعب كله الذي كان مسؤولاً عن ذلك. ونحتاج إلى شهيد مستعد للعقاب من أجل شعبه ومن أجل تحرير من الثقل الذي سيسحقه.

ألهذا أعدّ نابوليون طويلاً ذاك الذي ينبغي أن يكون خليفته الروحي، الوحيد القادر على مقاومته وتدميره، بتشكيله، في الظل أولاً، الائتلاف الرائع الذي تغلب عليه في نهاية المطاف؟ أبهذه الطريقة يفسر تساهل نابوليون تجاه تاليران^(٥)، الذي تكشف أنه، بعد الأمبراطور نفسه، ليس فقط الأكثر قدرة من بين وزرائه، بل فضلاً عن ذلك الرجل الأكثر تجرداً من الوسوس عندما ينبغي الخيانة؟

وتاليران، مع أنه سيد النظام القديم وأمير الكنيسة، كان ثورياً على طريقته. برع في فن السخرية من الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، ساحباً

(١) مدينة في الاتحاد السوفياتي قهر فيها نابوليون الروس في سنة ١٨٠٧.

(٢) ميشال دوروك (١٧٧٢ - ١٨١٣) جنرال فرنسي من كبار ضباط الأمبراطور قتل قرب مدينة بوتزن بألمانيا.

(٣) جان لان (١٧٦٩ - ١٨٠٩) مارشال فرنسا جرح بشكل مميت في معركة أسلينغ (Essling) في النمسا.

(٤) لويس أنطوان أنغيان (١٧٧٢ - ١٨٠٤) أعدمه نابوليون في قصر فانسين.

(٥) شارل موريس تاليران (١٧٥٤ - ١٨٣٨ م) رجل دولة فرنسي. كان وزير الخارجية في عهد حكومة المديرين والأمبراطورية. التحق بملكية تموز.

في الوحل شعارات طبقته الشخصية ، وكان أسقفاً ، ومع ذلك مقامراً وغشاشاً ، وعاش حياة ماجنة . لكنه مع قيامه بهذا الدور ، برع بشكل عجيب في عدم خلطه مع شخصه . فخلف انحطاطه الأخلاقي ، يخفي شخصية فخورة متكبرة ووضوحاً شيطانياً ، وبعد نظر في الرجال والأحداث ، وحباً حقيقياً لكل ما صنع ، في كل العصور ، جمال فرنسا وعظمتها . وهذا الحب الخفي ، عبّر عن نفسه ، بكل تأكيد ، بوساطة كل ما سمح لتاليران ، الرجل الروحاني الكنسي ، باستثاف تقاليد عقلية فرنسا عبر الثورة الفرنسية . وعُرف بحبه الشديد للذكاء وأيضاً بحبه نساء النظام القديم الجميلات ، وحبه الكتب الجيدة والأشياء الفنية والتحف ، وجعلت هذه الميول من ذاك الرجل الذي اعتبر أباً لدولاكروا (Delacroix) الرسام الشهير أحد الأشخاص الأفاضل الأكثر فعلاً في ذاك القرن .

لقد عهد إليه نابوليون ، وطوال سنوات عديدة ، بالسياسة الخارجية الفرنسية ؛ وهو الذي غمره بالنعم ، وجعله أمير بانافان^(١) (Bénévent) رغم خياناته . ولا يمكن الادعاء بأن نابوليون قد عمي عن حال ذاك الذي كان من الواجب عليه أن يقول له ذات يوم جهاراً : «أنت بعض الخ . . . في جورب حريري» ؛ بيد أنه اختاره ليطلعه على أفكاره الحميمة . وبعد أن تحقق من قوة طباع هذا المساعد الخطر ونفاقه استخدمه كوسيط بينه وبين الشخصيات الأكثر بروزاً في أوروبا . وأكثر من ذلك أيضاً ، لم يدخر نابوليون شيئاً ليجعل من تاليران عدواً له . لقد أذله ، وجرحه في كرامته ، وحاول إبعاده عن محيطه ، دون النجاح مطلقاً في ذلك ، فهو الساحر الكبير وجد نفسه بدوره مفتوناً بسحره . فالإمبراطور ، في ذروة مجده ، اصطحب تاليران إلى إرفورت^(٢) حيث توجب على هذا الأخير عرقلة خططه للسيطرة على أوروبا ببراعة لا مثيل لها . وفي

(١) بانافان مدينة إيطالية قرب نابولي .

(٢) إرفورت مدينة ألمانية شهدت مقابلة بين نابوليون وقيصر روسيا إسكندر الأول سنة ١٨٠٨ .

إرفورت نفسها أيضاً رأى نابوليون حلمه الشهير الذي رواه كونستان والذي أوردناه في الصفحات السابقة، وهو حلم الدب الذي فتح له صدره. أكان بإمكانه الاكتفاء بتقاعد هادئ في جزيرة إلبا، تحت سماء رؤوف تجعل الحياة أكثر عذوبة وجاذبية من أي موضع آخر؟ ألم يتعين عليه استعادة النضال واستئنافه، ليس في سبيل النصر، بل فقط للرجوع إلى قصر التويليري كشبح يعبر ويكمل، بشكل كلي، تضحيته التي قادته من واترلو إلى جزيرة سانت هيلانة.

لقد حدثنا برايس في كتابه سر نابوليون، فقال:

«لقد بدا أمبراطور المئة يوم^(١) رجلاً آخر، لأولئك الذين رأوه مجدداً بعد سنة. فعلى وجه الإجمال، أصبح بديناً، قسماته منتفخة وسحته مخضرة ونظرتة باهتة ومشيته متثاقلة، وكل هذا يعطي انطباعاً بـ «انحطاط عميق». ويمكن القول إنه قد استنفد جهازه العصبي في الجهد الذي توجب عليه بذله. لقد كان يكابد حاجة شديدة إلى النوم. ولم تستطع الكميات الكبيرة التي يتناولها من القهوة أن تنعشه. فكان يُرى في وضوح النهار مغالباً النوم فوق كتابه وانفعاليته متوثبة. وعندما يكون وحيداً، يذرف أحياناً الدمع بغزارة. وقد فاجأه كارنو مرة وهو يبكي أمام صورة ولده. وكان نابوليون واعياً الضعف الذي فرضته عليه سمته. فكان يتحسس كرشه ويقول محاولاً الاطمئنان على مآربه الحربية: «أيمكن القيام بحرب عندما يكون المرء ضخماً مثلي؟».

إلا أن السمة المميّزة لحالته هي اللامبالاة، فقد كان يخالجه الشعور بأنه سيخوض مغامرة لا أمل له في النجاح فيها. ولم يعد يهتم بالدور الذي يعرف أنه قد خسره مسبقاً ولكنه سيقوم به حتى النهاية من أجل الكرامة والشرف. إنه

(١) هذه هي المدة الزمنية التي أمضاها نابوليون ما بين عودته من جزيرة إلبا ونفيه إثر معركة واترلو وتمتد من ٢٠ آذار ١٨١٥ إلى ٢٢ حزيران.

قِرِفَ وتعب. ويظهر إرهاقه بوضوح خلال غزو بلجيكا. إذ تلح المذكرات المختلفة على نزوعه إلى التعب، وحاجته المتكررة إلى النوم، وخموله، وخمول ذهنه وافتقاره إلى القرار الحاسم. . . .

لم يكن المظهر جموحاً، ولم يعد يشعر بنشاط سيده، إنه يجر قدميه، وتبدو له آفاته نفسها أقل احتمالاً، وقام احتقان البواسير التي يعاني منها نابوليون، في واترلو، بدور حبة الرمل في دولاب ما. إنها لا تمنع الآلة من الدوران لكنها تتعبها.

ويعتقد إجمالاً أن نابوليون، مثل تميستوكليس^(١)، التمس الرحمة والعفو من أعدائه الانكليز، وطلب رأفتهم. واستطاع هو نفسه الاعتقاد بذلك في نطاق جهله الكلي بما قرنته به عبقريته. وما لم يفكر فيه المؤرخون هو أن نابوليون المخلص قد يكون احتاج إلى إتمام مهمة تكفيره، إلى اضطهاد الانكليز وكذلك إلى خيانة تاليران، وأن هذا الاضطهاد ينبغي أن يُترجم باستشهاد ضروري لذاك الذي يريد إكمال قدره كمخلص مشابه للسيد المسيح.

لقد بحث عن هذا الاضطهاد، حتى هناك حيث الانكليز رفضوا منحه إياه. فنابوليون هو الذي أثار حاكم الجزيرة، هدرسون لو (Hudson Lowe)، بإهاناته وشتائمه الشديدة الوقع، فهدسون لو هو الذي «مشي حالو^(٢)» والذي أصبح وسيلة الفادي الذي يتطلع إلى التكفير عن الذنب. فقد أثار نابوليون تأثيره بالسخرية منه أمام جنوده وبرفض استقباله، فقام هدرسون لو، في مواجهة هذا الخصم المرعب، وبدقه، بصنع ما يطلبه منه. فقد أسر نابوليون إلى

(١) تميستوكليس جنرال ورجل دولة أثيني (نحو ٥٢٥ - ٤٦٠ ق.م) أبعد أريستيد وأصبح الحاكم الأول. قاد الأسطول الأثيني في سلامين. أبعد في العام ٤٧١ فالتجأ إلى الفرس.

(٢) تعبير عامي يقصد به الشخص الذي وافق ما أراده نابوليون وساعده وإن بشكل لاواعٍ على تحقيق مراده.

الإرلندي أومير «أعتقد أنني أدين إلى حظي بكوني قد عوملت بشكل سيء من قبل الإنكليز، وبكوني قد وقعت تحت طغيان حاكم مسلكه حقير جداً».

وأعلن في جزيرة القديسة هيلانة: «لقد ضحيت طوال حياتي بكل شيء: بالطمأنينة والمصلحة وبالمجد، في سبيل قدرتي».

وفي الأول من كانون الثاني ١٨١٧، أكد بفخر لمن يحيط به: «النكبة وحدها تنقص شهرتي. لقد وضعت تاج فرنسا الإمبراطوري، تاج إيطاليا الحديدي، والآن أعطيتني بريطانيا تاجاً أكبر أيضاً وأكثر مجداً وروعة، إنه التاج الذي وضعه يسوع منقذ العالم، تاجاً من الشوك».

واتهامه وشكواه معروفان: «إنني أموت قبل أواني قتيلاً على يد الأوليغاركية^(١) الانكليزية... فالتكفير لا يمكن أن يتم إلا بحكم بالموت، بإعدام لا يدع مكاناً للموت الطبيعي، على الأقل في نظر نابوليون وتفكيره. وبهذا الشكل فقط استطاع الحصول على حق التعبير عن هذه الرغبة الأخيرة: «أود أن يرتاح رمادي على ضفاف نهر السين وسط «هذا الشعب الفرنسي» الذي أحبته كثيراً! وهكذا سلم الشرف والمهمة المنجزة. وانضم إله المعارك إلى أمواته رجلاً مسكيناً كفر عن كل ما أخذه على عاتقه، بمصيره وحنوه: جريمة المشابهين لروسو ولروبسبير، التي تقوم على التضحية بعالم قديم أمام عالم جديد.

إننا نستطيع اليوم أن ننصف، بفضل التحليل النفسي، أسير جزيرة القديسة هيلانة، الذي أساء فهمه كثيراً من الإيديولوجيين ذوي الميول المسالمة التبسيطية الذين لم يروا فيه إلا محارباً خطراً شرساً. ونستطيع أن نحبي المخلص ونعيد إليه الاحترام الذي يستحقه لاستشهاده على صخور جزيرة صغيرة ضائعة في المحيط الأطلسي، لقد تألم فيها، بعد أن هجره أولئك الذين لاموه على هزيمته وفشله اللذين أسهم بوساطتها، مع ذلك، في إنقاذ توازن الروح

(١) الأوليغاركية: حكم القلة المستغلة والمهيمنة.

الفرنسية. لقد دفع ثمن انبعاث وطني بوساطة نصر. ربما كان أكثر عظمة من الانتصارات في العديد من ميادين الوعي التي غلب آخر الأمر فيها بشكل رائع جداً.

وفي الحقيقة، لقد كان الفادي المخلص، إذ ماتت فرنسا، والثورة المحبوبة منتشرة بحدّة أعقبت الملكية الحليمة بسلطان الثرثارين والفاشلين، فأسكروا البلد بكلمات جوفاء وعندما فقد رشده تركوه للأوغاد. وليس هنا مكان تقديم هذه الدعوى، فيكفي أن نذكر في بضعة أسطر نتائج الكارثة. وها هي مثلاً شهادة إنكليزي هو هنري ردهاد يورك (Henry Red Head Yorke)، الذي زار فرنسا في بداية عهد القنصلية. ولا يمكن الطعن في أقواله. فهو غريب عن الأهواء السياسية الفرنسية لذلك يعتبر مراقباً حيادياً كلياً. وقد دوّن الملاحظات التالية: إن الطُرق المحفرة المملوءة بالمستشفيات غير صالحة للمسير. ونرى الخرائب في كل مكان ومنازل خاصة بعدد القصور والكنائس والأديرة. البؤس عام وشامل. وفي كل قرية أمواج من الشحاذين من كل الأعمار تناشد السواح الإحسان ويلتمسون الخبز. التجارة معدومة! والأراضي شبه مهجورة. ولا يرى أي قطيع في المراعي. ولكن كل واحد من الخطباء يبتهج للحكومة الجديدة التي وعدت بالمحافظة على النظام. «وقال أحدهم: لقد عشنا أوقاتاً لم يكن يستطيع فيها أي إنسان أن يثق بجاره، ولم يكن أي إنسان يملك حق التعبير عن رأيه. ويجب على الأخ أن يحذر من أخيه».

لقد أحيا نابوليون المريض المحتضر. إذ قال: حاجة فرنسا إليّ أكثر من حاجتي إليها. فأعاد إليها الروح. وجعلها تستعيد وعيها بالعدالة والشرف.

ونتساءل بدهشة عند التمعن في مصير نابوليون العجيب، عما استطاع، لدى هذا الكورسيكي، أن يحدد قدره القاسي كجندي وكمُنقذ لفرنسا وكفادٍ لها. ما الذي جعله يقول إن له سيدياً وإن هذا السيد ليس له أحشاء. أو أيضاً: لم أكن في الحقيقة سيد تحركاتي... ولم أكن مع نفسي تماماً... ولا أعرف أين ادعيت الوصول... إنني أشعر بكوني مدفوعاً نحو هدف لا أعرفه! وعندما

أبلغه، وما إن أكف عن أن أكون نافعاً ومفيداً، حينئذ ستكفي ذرة واحدة للتغلب علي . . .

أية قوى يطيع إذاً عندما ضحى في شبابه بأفراح عمره وملذاته في سبيل عناء ضار، في سبيل دراساته وكتبه، وطالب بتنظيم اجتماعي أفضل لكورسيكا أولاً، ثم لفرنسا على الأثر؟ ما الذي دفعه إلى ذراعي جوزفين وماري لويز أكثر مما دفعه إلى أحضان دزيريه كلاري أو ماري فلفسكا؟ لماذا هذا التحالف بين رجل الثورة الفرنسية هذا وعائلة حكام النمسا، مع القيصر الذي دافع عن النظام القديم، ولماذا هذا الضعف أمام أولئك الذين توجب عليهم خيانتهم كتاليران مثلاً؟

إننا لا نستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة كما عن العديد من الأسئلة الأخرى إلا بالفرضيات التي تقدمها لنا خبرتنا العيادية وبتيحها علم ما يزال في بداياته. إلا أن هذه الفرضيات ستمتلك على الأقل القدرة على طرح المسألة في ميدانها الحقيقي وعلى فتح آفاق لأبحاث لاحقة. ولنتذكر ما قلناه في الفصل المخصص لعلم نفس الطبقات الثورية وأعراض الفشل: «العصاب، غالباً، هو الذي سلّح قائداً للسيطرة على جمهور ناثر ولقيادته. وهناك أنواع من العصاب يتوجب على باعثها الانتصار، إذا لم يكن يرغب في الغرق في هاوية اللاشعور».

عصاب نابوليون؟ ماذا نستطيع أن نعرف عنه خارج أواليات الفشل التي تكلمنا عليها والتي توصلت، لدى الأمبراطور، إلى بتر أي حياة عاطفية موجّهة نحو تشكيل عائلة على أسس عادية طبيعية. ما هي ظلمات الروح التي توجب عليه مواجهتها قبل أن يُطلب منه مواجهة ظلمات الروح الجماعية الفرنسية لفرنسا الثورية؟ كآبة شبابه؟ تفكيره بالانتحار؟ كآبته السوداوية التي كانت تدفعه إلى البحث عن المغامرات في باريس بدلاً من الارتياح والتراخي في أحضان دزيريه كلاري بمارسيلية^(١) حيث يستطيع أهله أن يوفروا له وصعاً طبيعياً ثابتاً؟

(١) مدينة فرنسية شهيرة تقع في جنوبي فرنسا وتطل على البحر الأبيض المتوسط.

لقد نَقَّب بعض الأطباء النفسانيين في حياة نابوليون ليعثروا لدى هذا العبقري على علامات الجنون. فأجريت تشخيصات معقدة، فتكلم البعض، على نزق بسيط بسبب نوبات غضبه الشرسة والعنيفة، وذهب آخرون إلى حد تشخيص صرع [داء النقطة]، بحجة أنه قد لوحظ لديه بعض النوبات وأشهرها النوبة التي أثارت خلالها الأنسة جورج^(١) (M^{lle} George) القصر كله وبلبلته عندما كانت في سرير القنصل الأول في حين أن هذا الأخير يتخبط أثناء حلمه. وتم الكلام على تشنجاته في مدرسة بريان^(٢) (Brienne)، التي حدثت مرة واحدة بعد عقاب مذل، الخ . . .

وما هو مؤكد أننا نستطيع التثبت والتأكد من وجود طباع عصابي لدى نابوليون، من غير أن نستطيع التأكيد أن هذه أو تلك الأعراض تسود لديه، كما هو معروف في حالة الأعصاب التقليدية: الخوف^(٣) أو الوسواس أو الهستيريا. فهذا العصاب في الطباع كان يترجم بنزق، وبعيداً عن الأعراض التي تكلمنا عليها للتو (سابقاً) وبقابلية للتأثر والنزق خاصة جداً، وقد لاحظ رفاقه في مدرسة بريان أنه لا يحسن اللعب ولا إطلاق حجر.

وذكر كابانوس عنه ما يلي في كتابه: في الحياة الخاصة للأمبراطور. «أي إحساس أكثر «تلهفاً». وهذا الجزء البسيط من جملة تايين^(٤) (Taine) المستند إلى مستندات عدة، يقول الكثير عن نفسه. فإذا تلكأ خادمه في إلباسه قليلاً عيل صبره واحتد ورمى أرضاً أو في النار قطعة الثياب التي لم تكن تلائمه.

(١) الأنسة جورج (١٧٨٧ - ١٨٦٧) ممثلة تراجيدية فرنسية.

(٢) هي مدينة بريان لوشاتو Brienne - le - Château وفيها مدرسة عسكرية درس فيها نابوليون بونابرت علومه الأولى.

(٣) الخوف أو الرهاب هو هلع أو ذعر شديد مرضي من شيء معين.

(٤) هيبوليت تايين (١٨٢٨ - ١٨٩٣) فيلسوف ومؤرخ فرنسي مؤلف كتاب (أصول فرنسا المعاصرة).

وأيام المهرجان أو اللباس الرسمي ، كان على خدام الغرف أن يتفاهموا فيما بينهم لانتهاز اللحظة المناسبة ليرتبوا له شيئاً ما فكان يتزعج أو يمزق كل ما كان يسبب له أقل انزعاج ، وذات يوم تعرض خادم مسكين ، سبب له انزعاجاً عابراً ، لبرهان ، عنيف وعملي ، على غضبه .

وفي ميدان المعركة كانت له طريقة خاصة في إظهار نفاد صبره يعرفها جيداً رجاله . فعندما لا تسير الأمور كما يرغب ويقرر ، يعبر عن توتره وانزعاجه برمي قبعته أرضاً في كل لحظة ؛ فيسرع مساعده إلى التقاطها ، فيضعها الأمبراطور بهدوء على رأسه . . . ليعود إلى الفعل نفسه بعد لحظة ، إلى أن تصل فرق الجيش التي ينتظرها إلى مكان المعركة .

وكانت إحدى عاداته المستهجنة المألوفة استنشاق السعوط ، ولكن كانت له طريقته الخاصة في ذلك . فلكي يقوم بذلك بسرعة أكبر (لأنه لم يكن يحب أبداً إضاعة وقته بفتح علبة سعوطه وإغلاقها) كان يضع سعوطه بلا ترتيب في جيب صدرته البيضاء ؛ وفي لحظة تنقض قبضته ، ومن هناك يتطاير قسم بين يديه في يديه وقسم في الهواء ، بدون اهتمام بمن يكون بالقرب منه ؛ فيتلقى هذا الأخير بعض الحبيبات في عينه ، فلا يشعر إلا بأنه يعركها ؛ والفلاح البلجيكي الذي كان دليل نابوليون في واترلو على كره ومضض ، اشتكى ، من جهة أخرى ، من أنه كاد يصاب بالعمى من جراء السعوط الأمبراطورية التي يرميها نابوليون بلا مبالاة وبحركة سريعة ، بدون النظر إلى من يحيط به .

وكانت لديه عادة أخرى مستهجنة إذ كان يضرب بسكينه أذرعة المقاعد في غرفة عمله ، إما سهواً ، وإما عندما يكون مشغول البال ، الأمر الذي يجبره على تجديد أثاث مكتبه باستمرار . وروى شابتال^(١) (Chaptal) في ذكرياته أن نابليون عندما يكون منشراحاً ، يمضي وقته في مجلس الوزراء ، بضرب المقعد الذي

(١) جان شابتال (١٧٥٦ - ١٨٣٢) كيميائي ورجل دولة فرنسي . كان وزيراً في عهد نابوليون بونابرت .

كان جالساً عليه، بسكينه، وبما أنه يحب العمل على مادة سليمة، كان يضطر غالباً إلى تجديد الأثاث التالف. وقد حرمتنا هذه النزوة الشاذة، بلا شك، من أثاث يشكل اليوم موضع فخر للعديد من جامعي التحف وخاصة إذا كان يحمل أثر المخالب الأمبراطورية.

وأحياناً، كانت يده المخربة تهاجم التحف، فقد روى شابتال أيضاً أنه رآه يتسلى بتحطيم تحفة، قطعة قطعة، عوضاً عن تسلية خفيفة، وهي تمثال صغير فائن لفارس يعتبر عملاً رائعاً من إنتاج المعمل القديم في سافر^(١) (Sevres) وأما أيام تعكر المزاج فيرتكب مجزرة..

وعندما تنضج الفكرة، كما روى أحد أمناء سره، يبدأ بالسير ببطء في الغرفة التي يوجد فيها، ويسير على امتداد الغرفة، ويشرع حينئذ بالإملاء بصوت رزين وبارز ولكن لا تتخلله أية استراحة. والإلهام، ما دام قائماً، يذاع بنبرة أكثر حدة وبشكل مستهجن اعتاد عليه نابوليون، إذ كان يحرك يده اليمنى، فيلويها جاذباً بيده كم ملابسه. وترد التعابير بدون جهد لتؤدي رأيه...

وهناك عادة مستهجنة أخرى إذ كان يقطب حاجبيه، ويتلفظ بأصوات موجزة وغير واضحة. وعندما يشعر بضيق ما، تصبح هذه الحركات في الحاجبين أكثر تواتراً، ويتسع منخرا أنفه، وتومض عيناه. وفي أوقات أخرى يعدّل نفاد صبره وفق إيقاع الطبل، أو يدندن لحناً من أيام طفولته، أو من المرحلة التي كان فيها في أحد المواقع، ويحدث له أحياناً، بعد تناول الطعام، أن يشرد بفكرة، رأسه بين يديه وعيناه ثابتتان على السماط وجامدتان، ويغمغم لحناً عازفاً نغماته بقدحه. وتصبح هذه النغمات حادة ومتسارعة إلى أن يحطم القدح إلى مئات القطع إذ يجتاحه عنف فكرة ما باطنية. فيستعيد وجهه الهدوء. وكان ذلك علامة على أنه قد تخلص من جميع الأفكار التي ترهق ذهنه.

(١) مدينة فرنسية على السين مشهورة بمصنع للبورسلين.

وكان الانفعال، في حالات نادرة، على جانب من الحيوية والحدة كافياً للسيطرة عليه، وفي هذه الحال، يشعر بحركة بدنية خاصة: ارتجاج في الساق اليسرى يعرفه جيداً. ولم يكن هذا الارتجاج يحدث إلا في لحظات الضيق الشديد.

وفي أوقات أخرى، كان يُرى «وهو يفرك جبهته بيديه، ثم يضع أصابعه في فمه ويعض أطرافها بالشكل الأكثر اضطراباً وهيجاناً. لكن هذه المظاهرة نادرة. وعندما يكون حسن المزاج، يظهر حبوره بشكل غريب: يشد أذنيه، يقرص حدود وأنف وذراع الأشخاص الذين يحبهم، ذاهباً إلى حد صفعهم صفقة خفيفة ليبرهن لهم عن غبطته. وبهذا الشكل كان يتصرف مع برتييه^(١) (Berthier) وسافاري^(٢) (Savary)، ودوروك^(٣) وبعض مساعديه في ساحة الميدان والمعسكرات، مغدقاً عليهم في الآن نفسه نعوتاً مثل: حيوان كبير، أحق، وغيرهما من الكلام المهين.

وقالت عنه السيدة دورموزا (Rémusat) التي استطاعت ملاحظته عن كثب: لم يكن من النادر رؤيته منفعلاً إلى درجة ذرف بعض الدمع، ويبدو أنها نتيجة نوع من الإثارة العصبية التي تصبح حينئذ نوبة. وكان يقول: أعصابي ثائرة جداً، وفي هذه الحالة، إذا لم يجبر دمي ببطء متواصل، أخطر بأن أصبح مجنوناً. وأضافت السيدة دورموزا في مذكراتها أن كورفيزار (Corvisart) أخبرها «أن شرايينه تنبض بشكل أقل من المستوى العادي لدى الرجال».

(١) لويس ألكسندر برتييه (١٧٥٣ - ١٨٢٢) ماريشال فرنسا.

(٢) آن سافاري (١٧٧٤ - ١٨٣٣) جنرال فرنسي كان وزير الشرطة في عهد نابوليون بونابرت.

(٣) ميشال دوروك (١٧٧٢ - ١٨١٣) جنرال فرنسي، والماريشال الكبير في قصر الأمبراطور، قتل قرب بوتزن.

وتعطينا السيدة دو رموزاً أيضاً وصفاً لمشهد آخر، شديد التعبير ومميز، حدث سنة ١٨٠٧. «كان نابوليون يتهيأ لمغادرة مايانس»^(١) (Mayence)، تاركاً جوزفين وتاليران. وبسبب سفره بكت جوزفين كثيراً فأمسك الأمبراطور بزوجته الملتصقة به، واقترب من تاليران ماداً له يده، فأحاطهما كليهما بذراعيه وقال لتاليران: ولكن من الصعب جداً ترك الشخصين اللذين أحبهما أشد الحب. وازداد الحنان الذي يشعر به، وهو يردد هذه الكلمات، إلى حد كبير حتى تغلبت عليه الدموع، وفي الحال تقريباً تعرض لبعض الاختلاجات والتشنجات التي أصبحت على جانب من القوة سمح لها بالتسبب بتقيئه. فتوجب إجلاسه، وحمله على شرب بعض ماء الزهر، فيما كان يذرف الدمع. ودامت هذه الحال ربع ساعة».

وروى كابانيس في كتابه: الحياة الخاصة للأمبراطور، أنه بعد التنازل عن العرش في فونتينبلو^(٢) (Fontainebleau)، وأمام اللفتات والهيجانات التي استقبلته في بروفانس^(٣) (Provence)، وطوال بضعة أيام بدا وجوده المعنوي مفككاً؛ وصعدت الغرائز الحيوانية إلى السطح، فخاف ولم يفكر في الاختباء والاحتباء من ذلك. ومع أنه استعار بذلة كولونيل نمساوي، وقبعة مفوض بروسي، لم يقتنع أبداً أنه متنكر بشكل كافٍ. وفي فند كالاد (Calade) كان يرتعد ويتغير لونه عند أقل ضجة، ووجده دائماً المفوضون، الذين صعدوا عدة مرات إلى غرفته، يبكي والدموع في عينيه. وقد أتعبهم بقلقه وهواجسه وتردداته، فتارة يقول إن الحكومة الفرنسية تريد أن يقتل في الطريق، وتارة يرفض الأكل إلى المائدة خشية السم، وطوراً يفكر في الهرب عبر النافذة. ومع ذلك كان يتحدث بطلاقة ويثرثر بشكل لا ينتهي عن ماضيه، عن طباعه دون تحفظ ودون لياقة، بل بابتذال، ووقاحة وبشكل يرهق الأعصاب. وكانت أفكاره

(١) مايانس مدينة في ألمانيا.

(٢) فونتينبلو مدينة شهيرة فيها قصر رائع وقّع فيه نابوليون تنازله عن العرش في العام ١٨١٤.

(٣) مقاطعة كبيرة في فرنسا.

مشتة وبعضها يدفع بعضاً بشكل غوغائي مثل رعا ع فوضويين وصاخبين؛ ولم يصبح متحرراً منهم ومجدداً إلا في خاتمة الرحلة إلى فريجوس^(١) (Fréjus)، عندما شعر بالأمان وأنه بعيد عن وسائل العنف.

وقد أكد كل هذه الأمور الموفد البروسي الذي كان في عداد الرحلة، والذي ترك رواية ثمينة جداً عن هذه الرحلة الطويلة الكثيرة الأحداث بشكل فريد.

ولامبروزو، الكاتب الأول الذي قرّب العبقري من الجنون، وجد أن نابوليون كان يتصرف مع النساء مثل إنسان غريب قاسٍ دون ضمير أو قلب.

وقد أوضح الطبيب النفسي الإيطالي هذا أن تين قد وصف على وجه رائع طباعه، وهو طباع صرعي [أي مصاب بالصرع] وهو ليس كذلك حتى في أقل عاداته المستهجنة وخرافاتة التي لا يعيدها لامبروزو إلى أصول الصرع بل هي، في رأيه، عائدة إلى صرع نفسي بنزواته، وجنون عظمته وأنانيته الوقحة وافتقاده الوجه الأخلاقي.

وادعى العالم بوظائف الأعضاء، فيريه (Féré)، أن النوبة لدى بعض المصابين بالصرع كانت تطلقها إفراطات شهوانية. وفي الواقع، إننا نعرف تقريباً ما تخبرنا به هذه الإفراطات الشهوانية المتعلقة بنابوليون، ليس بحسب الخبرة التحليلية النفسية وما تتيحه من تشخيص لديه فقط، بل أيضاً بوساطة مذكرات الأنسة جورج، الممثلة الشهيرة التي كانت، طوال سنتين، عشيقته الوديعه. وكان القنصل الأول يرسل خادمهم الخاص كونستان مساءً لإحضارها عندما يرغب في وجودها. وبحسب الأنسة جورج، كان نابوليون عاشقاً «ليس في حبه عنف ولا خشونة» إذ كان يحتضنها برقة ولطف، وكلماته عذبة ومحتشمة. فنحن بعيدون، كما يقول كابانيس عن الحبيب الجموح الذي يصور

(١) ممر جبلي في جبال الألب عند الحدود الفرنسية الإيطالية.

عادة شائناً الهجوم على امرأة كما فعل على مدينة سيغزوها ويحتلها.

ويمكن أن نضيف أن هذا الحب، لأسباب أشرنا إليها مسبقاً، كان سطحياً أكثر مما كان عميقاً، بسبب تهرب نابوليون من النساء. وكان هذا الأمر يترجم على الأرجح بعمل سريع، موجز، بتخلص سريع من السحر، بحدة متناسبة كلياً مع فورات الحب، وأخيراً بوهن ينبغي أن يزداد مع الوقت، ويشير عنده العديد من الشكوك بخصوص قدرته على الإنجاب، وهي شكوك تعهدتها طويلاً جوزفين التي ينبغي أن تحسن استخدامها بمهارة، حتى اليوم الذي أثبتت فيه الأحداث أن هذه الوظيفة لم يتم القيام بها. فبعد الانسحاب من روسيا، أمضى الأمبراطور ليلة كاملة في غرفة ماري فالفسكا، في قصر فالفسكي في بولونيا. ومع أنه كان محروماً من النساء منذ أشهر، فقد أمضى هذه الليلة بالقرب من «زوجته البولونية» دون أن يلمسها وقد أدهشها ذلك كلياً.

والطبيب الجنرال، برايس أراد تفسير طباع نابوليون بوساطة أصله الكورسيكي. صحيح أن الطباع الكورسيكية، أو وفق تعابيرنا، ذاتهم الخارقة الوطنية تحتم لدى جميع الكورسيكيين، سلوكاً خاصاً بهم تقريباً: عناد، حقد، مزاج متسلط وانتقامي وفاء في الصداقات... الخ. ولكن يستتج ذلك أن ذاته الخارقة تلزم قسراً الكورسيكيين في اتجاه غريب كما هي حال سلوك نابوليون. ويتحتم علينا أن نبحث في ميدان آخر عن أسباب توجه حياته وطباعه. ولنر في أية ظروف نمت وتطورت ذاته الخارقة العائلية. وها هو ما قاله برايس عن والديه في كتابه سر نابوليون: «كان والدا نابوليون قليلي الاهتمام به، والده بسبب لامبالاته، وطيشه، وأمه لأنه لا يتوفر لها أي وقت فراغ. المحامي شارل بونابرت، كسول، ثرثار، غير راضٍ قط يمضي وقته بملاحقة الحظوظ المختلفة الأمر الذي يرغمه على التغيب باستمرار. وهو مبذّر يحب الشهرة إلى حد أنه انتحل لقب كونت، ولم يكن يضحى في سبيل أنسابه إلا بالكلام المعسول. وكانت زوجته ليتيسيا مرهقة من جراء العمل المتتالي. وهي إذ تزوجت في الرابعة عشرة، أنجبت ثلاثة عشر ولداً في تسع عشرة سنة، وقد تخلى لها شارل بونابرت عن عبء المنزل. فكان اهتمامها بتوازن ميزانية زهيدة

يرغمها على العمل في تدبير المنزل . وكان نابوليون الرابع بين أولادها . ولما لم تستطع تغذيته ، عهدت به إلى كاميللا كاربون (Camilla Carbone) وهي زوجة البحار أغوستينو إيلاري (Agostino Ilari) . وقد حلت هذه الأم البديلة محل أمه . وكانت شديدة التضحية تجاه رضيعها الذي كان من المستحيل إبعاده عنها . وكانت تدافع عن الطفل الصغير في مواجهة قسوة السيدة ليتيسيا واعتراضات الجدة سافريا (Saveria) التي تغنيها شيطنة الولد . لأن أمبراطور المستقبل أظهر ، منذ الصغر ، عنف طباعه وخشونته . وكانوا يدعونه «الرابوليون» (Rabulione) وهي لفظة لا يمكن ترجمتها وتعني في الآن نفسه الصعب المراس والهائج . ووفق اعتقاد الأطباء النفسيين وأقوالهم ، فإن عدم الطاعة مظهر مبكر لغريزة السيطرة . . .

لقد كان نابوليون ولداً ضعيفاً بائساً . فعند ولادته اعتقد الجميع أنه لن يعيش . ولكي يتحاشوا تكاليف تنصير رآه الجميع غير ضروري ، اكتفى والداه بتنصير بلا رتبة . وبما أنه كان قد مضى على ولادته عامان ، فقد عمد في ٢١ تموز ١٧٧١ ، في كاتدرائية أجاكسيو^(١) (Ajaccio) ، في الوقت نفسه الذي عمّدت فيه شقيقته ماري - آن . وجسده ، ذو المظهر السقيم ، نحيف يكاد لا يستطيع احتمال رأسه غير المتناسق . وهو لم يعاني أمراضاً خطيرة ، ولكنه تعرض لاضطرابات في الهضم ، فكانت سحنته زيتونية وجلده جافاً . وما يهيمن في الذكريات التي رويت عن سنواته الأولى هو سرعة الغضب التي برهن على وجودها دائماً . وكانت طباعه من أصعب الطباع . ولم يدر أحد كيف يلاطفه ، فهو يتذمر عندما لا يصرخ بأعلى صوته . ولأنه ميّال إلى نوبات غضب مفاجئة ، يبدو عصبياً وعنيفاً عن قصد . وكبرياؤه الصبيانية مفرطة . فيضرب الأرض بقدميه ويبيدي استيائه عندما يروق له الأمر .

ويضاف إلى هذا أنه يبدو من المشكوك فيه أن يكون الطفل مرغوباً فيه من قبل أمه . فقد كانت هذه الأخيرة حاملاً به زمن تمرد الكورسيكيين على

(١) عاصمة كورسيكا .

الفرنسيين . ورافقت السيدة ليتيسيا زوجها خلال هذه الغزوة التي قام بها أنصار باولي^(١) (Paoli) الوطني الكورسيكي ، ويقال إنها توصلت إلى إطلاق العيارات النارية في كمين . ودائماً عندما يولد الطفل ، تجد الأم نفسها في وضع من أكثر الأوضاع تزعزاعاً . فقد كتب نابوليون لباولي بعد ١٨ سنة : «لقد ولدت عندما كان الوطن على شفير الهلاك» . إذ في ٩ آذار ١٧٦٩ سُحق الكورسيكيون الذين كانوا يقاومون الفرنسيين في بونتي نويوفو (Ponte - Nuovo) وأرغم الديكتاتور الكورسيكي باولي على مغادرة جزيرته ، وتعين عليه أن يلتجئ إلى انكلترا . وبعد ثلاثة أشهر من هذه الأحداث ، عندما كان السكان جميعاً لا يزالون تحت تأثير الكارثة ، ولد نابوليون ، وكانت والدته ، بعد بونتي - نويوفو بين الفارين ، باحثة عن النجاة في الجبل ، متعثرة على حجارة الطرق والدروب غير المطروقة في المنطقة ، نائمة في الأدغال والمغاور . وكاد يقضي عليها ماء سيل كانت تحاول اجتيازه . وروى لويس مادلين في كتابه شباب بونابرت أنها كانت منهوكة ، وقد فشلت للتو ، مع رفاقها على مونتي روتونديو (Monte - Rotondo) حيث رضيت بالمقاومة أيضاً ، ووقعت هناك مريضة . وكان الطفل الحاملة به وزناً ثقيلاً . وكانت تقول إنها ، خلال هذا الانسحاب المؤلم والبطولي ، شعرت به يتحرك بشكل عنيف . ثم وصف مادلان في ما بعد والدته نابوليون على الشكل التالي :

«كانت كورسيكية من جميع جوانب طباعها : فاضلة من غير احتشام ، شريفة دون جهد ، مستقيمة الرأي والضمير ، ذهنها فطن ، وحكمها صارم ورشدها رهيف . متدينة بشكل عميق من غير تعظيم ؛ لكنها على جانب كافٍ من الجهل ، فظة وقاسية مع أولادها الذين ربّتهم بقسوة ، ومحتفظة على ما يبدو بتساهلها للزوج الغريب الذي لا تشاطره الميول ولا المشاعر ، لكنه الزوج ومن هو مثله ، حر في أفعاله وبعيد عن كل نقد . . .

(١) هو باسكال باولي (١٧٢٥ - ١٨٠٧) الوطني الكورسيكي الذي ثار على الفرنسيين لكنه دحر عام ١٧٦٨ .

يدها سريعة الضرب وقاسية، فأصلحت أولادها على طريقة الأمهات القديمات. وسيحتفظ نابوليون بذكرى جارحة من تأديباتها. مقتصدة إلى جانب زوج مبذر، وتعيّن عليها، من جراء ذلك، المبالغة في ميلها إلى التوفير الذي تغلب عليها في نهاية المطاف، وحملها على هذا البخل الذي كان يجب أن يفرح يوماً العالم الأمبراطوري، فكانت تحسب وتتفنن، وتحرم نفسها وتسد الثقوب، وإذا لم تدّخر، فذلك لأنه لكي تدّخر بتدبير ينبغي أن تكون اثنين لتقوم بذلك. ومع ذلك يصل حب النظام إلى حد القسوة، ولم تكن تغضّ طرفها إلا عن فوضي زوجها. ويمكن أن نتصور، مع ذلك، أنها كانت تتألم من ذلك، لكن أحداً لا يعلم هذا الأمر.

بماذا نستطيع الاحتفاظ من هذه الأوصاف لتكوين فكرة عن نزعات الطفولة الأولى لنابوليون؟ ما هي نقاط الاستدلال لتشخيص ظلمات النفس، التي تكلمنا عليها والتي يتوجب على الولد اتقان السيطرة عليها؟ وماذا نستطيع أن نستنتج بالنسبة إلى ما يتعلق بتكوين ذاته الخارقة العائلية؟

من الأكيد أن نابوليون الصغير، كان ضعيفاً وسقيماً إلى حد تردد معه أهله بدفع تكاليف تنصيره، وتحتمّ عليه مواجهة صدمات متعددة سببت ردات فعل قد تكون مماثلة لردات الفعل التي لاحظناها لدى أولاد هؤلاء الأمهات العصابيات أو الفاقدرات الشهية اللواتي تكلمنا عليهن في الفصل المخصص للحياة الجنسية الأنثوية. وليس من شك في أن الظروف، ومنذ البداية، بدت معاكسة للطفل، فقد كان الجو العائلي مضاداً له، إذ كانت لحظة ولادته سيئة الاختيار. فقد ولد في وقت غير مناسب وبالتالي كانت أمه بلا شك عدائية نحوه. وأوصاف شخصية هذه الأم، التي قدّمها إلينا مختلف الكتاب، تصورها لنا كامرأة رئيسة، قاسية مع أولادها، مقتصدة حتى البخل، فخورة، مستقيمة في مسلكها، ولاحقاً، لم يجرفها قط، بالفعل، حماسة الجماهير لابنها. ولم تحضر حفلة التكريس الأمبراطوري. وكانت تقول: «بشرط أن يدوم هذا»، فهي متشككة، ويذكرها الجميع كامرأة مهيبة، لا تنحني أمام أي إنسان. وقد قال لها الأمبراطور: أمي، اسهري على صحتك، فإذا مت لن يملك أي

شخص سلطة علي . وقال عنها في جزيرة القديسة هيلانة : سيدتي الوالدة كانت مقتررة جداً : وهذا مضحك ، فقد ذهبت إلى حد أن أقدم إليها مبالغ كبيرة كل شهر إذا قبلت صرفها وإنفاقها ، وقد رغبت بكل تأكيد في أخذها ولكن بشرط أن تكون حرة في الاحتفاظ بها .

والسيدة ليتيسيا ، عندما كان عليها أن ترسل إلى ولدها ، المريض في جزيرة القديسة هيلانة طبيباً قادراً على العناية به ، أرسلت إليه ، لكي لا تضطر إلى دفع تكاليف باهظة ، شاباً عالمياً بالتشريح ، هو الدكتور أنتوماركي (Antommarchi) الذي لم يكن يمتلك أية خبرة حقيقية ، والذي توجب عليه أن يبدو خاصة مساعداً جيداً لهدسون لو^(١) في تعذيب الأسير الذي عهد إليه ، بشهور ، بمصيره .

ويخبرنا كابانيس عنه فيقول : أنتوماركي يبدو في الواقع متحلياً بالكفاءة ومعجباً بنفسه . وقد نجح على حد قوله ومنذ الثامنة عشرة من عمره كدكتور في الفلسفة وفي الطب في جامعة بيز^(٢) ، ولاحقاً كطبيب في الجراحة في الجامعة الإمبراطورية ! . ولكن لم تكن قط هذه الكفاءات هي التي حملت فيش^(٣) (Fesch) والسيدة الوالدة على اختياره ، إذ يبدو على الأرجح أنه اختير بسبب جنسيته الكورسيكية ، ومطالبه الأكثر من متواضعة : ألم يرض بالذهاب إلى جزيرة القديسة هيلانة براتب سنوي قدره ٩ آلاف فرنك في حين أن فورو (Foureau) طالب بـ ١٥ ألفاً ، أوميرا قبل لقاء ذلك العمل بـ ١٢ ألف فرنك ؟ وبما أننا نعرف بخل والدة نابوليون الكريه ، فإن المسألة محلولة . ونود أن نضيف إلى كل هذا أن النساء الجليلات ، المستقيمات والمتشدات في النظام هن عادة مسترجلات جداً ، وعفتهن لا تترك ، بحسب خبرتنا ، إلا القليل من

(١) حاكم الجزيرة المعادي لنابوليون .

(٢) مدينة إيطالية ، فيها البرج المائل المشهور والمعروف ببرج بيزا .

(٣) جوزيف فيش (١٧٦٣ - ١٨٣٩) خال نابوليون ، كاردينال وأسقف ليون .

المساحة للإحساس الأنثوي والأمومي ، مهما كان عدد الأولاد الذين يمكن أن يعتبرن أن من واجبهن إنجابهم . وعند دراسة هذه الطبائع عن قرب ، نجد وراء الظاهر الرخامي كائناً مختلفاً تماماً عن ذاك الذي نتتظر اكتشافه ، وكما رأينا سابقاً ، المرأة المتسلطة هي عادة عدوة الرجل الفحل ، تفضّل من جراء هذا الخصاء المعنوي لابنها ، وبدقة أكثر تقول إنها تريد ذلك بقدر ما تمنحها عفتها وبرودتها سلطة أكيدة وفعالة . فالسيدة الوالدة ، الأم العتيقة ، كما كان يدعوها نابوليون ، لا يبدو أنها قد أفلتت من هذه القاعدة . فحبها الشديد للواجب كان يتيح لها الامتناع وحرمان النفس من أي استسلام فرح ، وتستطيع أن تسهم على الوجه الأكمل في أن تخلق لدى ابنها هذا الامتناع عن التمتع بحياته التي كانت مميزة جداً بسلوكه . وإلى جانب هذا ، من الممكن أن تكون السيدة الوالدة قد شجعت دائماً عدائية العائلة ، تجاه نابوليون . فعندما وجد هذا الأخير نفسه وحيداً ، بعد التنحي عن العرش ، مهجوراً من الجميع في فونتنبلو ، كانت والدته تمر في المنطقة ذاهبة إلى إيطاليا ، ولم تتوقف لرؤية الأمبراطور المخلوع الذي كان ، في هذه اللحظة أكثر من أي لحظة أخرى ، ينبغي أن يعود صغيرها «الرابوليون» السابق ، ابنها التعس الذي يحتاج إلى التعزية والتشجيع لكي يستطيع مقاومة الانتحار الذي يراوده .

وفي جزيرة إلبا ، حيث ذهبت لرؤيته ، أعترف له بمشروعه ، ليلة الإبحار إلى فرنسا ، مغامرة ستنتهي حتماً في واترلو وجزيرة القديسة هيلانة . وهي ، الأم التي لم تؤمن قط بجلال العهد الإمبراطوري والتي تنبأت دائماً بنهايته ، ومع ذلك لم تشه عن عزمه . وبالإضافة إلى ذلك ، بدلاً من نصحه بالاعتدال والتعقل قالت له : دعني أنسى أنني أملك . . . اذهب واتبع قدرك . وذهب نابوليون ، وتبع قدره في التضحية . ألم يكتسب نابوليون ، من خلال علاقته بهذه الأم ، هذا الميل المشؤوم الذي يركز على الرغبة في التصالح مع من هو معادٍ له ، وفي التحالف مع من هو ضده ؟ أليست عائلته هي التي دفعته إلى الوقوف ضد نفسه ، بخلقها لديه ذاتاً خارقة خاصة ، من جراء أخذه على عاتقه سلوك عائلته تجاهه ؟ والعائلة التي أخذ على نفسه لاحقاً أنه فضّلها على نفسه ، والتي

أسهمت بالتسبب بخسارته بمساعدتها أعداءه، هذه العائلة التي برهن عن الكثير من الضعف تجاهها، أليست هي التي سعى إلى كسبها، إلى إنقاذها بكل ما لديه من قوة وقدرة كعسكري، كمخلص فادٍ لماذا هذا الاهتمام الدائم بإسعاد هؤلاء وأولئك، بتأمين مركز لهم بالقرب منه، بإغداق نعمه عليهم، بجعلهم أمراء وملوكاً وملكات؟

وفي الحقيقة، إن ذاته الخارقة الوطنية الكورسيكية هي التي دفعته، على الأرجح، في هذا الاتجاه الإلزامي، إذ لا يكون المرء كورسيكياً دون أن ينتمي إلى عائلة. على حد قول المفوضين الفرنسيين في مذكراتهم إلى الجمعية التأسيسية^(١). إذ ذكروا ما يأتي: «يسود في هذه الجزيرة تعصب عائلي يربط إلى حد بعيد أعضاء العائلة بعضها ببعض، بحيث إن عواطف فرد واحد وأعماله تصبح متكافئة ومشاركة للجميع، وينجم عن هذا أن رجلاً ما، ما إن يصبح في مركز مرموق، حتى يحاول كل شيء، ويسمح لنفسه بكل شيء لتوظيف أقربائه كلهم فوراً». وأضاف الألماني غرغوروفوس إلى هذا فقال: «لدى الكورسيكيين، كما كان قديماً لدى الهيلينيين، الحب الأخوي هو الشكل الأكثر سموً ونقاوة من الحب، ففي نظرهم العلاقات بين الإخوة والأخوات مقدسة واسم الأخ والأخت يعبر عن النعمة الأسمى للروح، غناها الأكثر نبلاً أو خسارتها الأكثر إيلاًماً. إن هذه الذات الخارقة، إجمالاً، ذات خارقة مستمدة من الأسلاف، إنها ذات القبيلة، وقد تعود إلى منشأ الحضارة في كورسيكا، وهي إذ رُسخت فيها خلال قرون طويلة، استعبدت الكورسيكيين بشكل استبدادي تقريباً. ولكن من الصحيح أن الذات الخارقة نفسها، التي ينبغي أن تكون ذات والد نابوليون وإخوته، بدت عند أولئك أقل حدة للغاية.

(١) جمعية ثورية خلفت المجلس التشريعي في العام ١٧٩٢، وأعلنت الجمهورية وأعدمت لويس السادس عشر، تفرقت في العام ١٧٩٥ لتفسح في المكان لحكومة المديرين (الديركتوار).

لقد ذكر برايس أن نابوليون كان مزدرياً في ميدان قيمة إخوته. فمخيلته الودية كانت تعزو إليهم كفاءات لم يكونوا يمتلكونها. وهم، إذ حصلوا على مقامات لا يستحقونها، كانوا جنرالات يرثى لهم، ودائماً مستعدين للعرض والتبخر، وغير مستعدين أبداً للقتال. وسواء أكانوا دبلوماسيين أم وزراء، فهم لا يهتمون إلا بالأرباح الفاضحة المشينة. لقد كانوا في الحقيقة متشدقين دون أفكار، سياسيين مفسدين، مؤلفين فاشلين أغنياء بالأفكار المبتذلة؛ باختصار، عاجزين عديمي الأهلية. فجعل منهم ملوكاً.

إن هذا الرأي، السريع والأحادي الجانب إلى حدّ ما، يبدو أنه صار في نهاية المطاف، رأي نابوليون. إذ قال يوماً لبوريين^(١) (Bourrienne): في الحقيقة، إذ أستمع إليهم، أنني قد أكلت ميراث أبي. وقال في ما بعد في جزيرة القديسة هيلانة: لقد أخرجوني لأنهم قلّدوني. وفي العام ١٨١٣، أسرّ لرودر (Roederer) بقوله: إن أحد أخطائي هو أنني اعتقدت أن إخوتي ضروريون لتثبيت سلّاتي الحاكمة. وأكّد ستندال بفظاظة: لقد كان من الأكثر إسعاداً لنابوليون أن لا تكون له عائلة.

ولخصّ برايس نزاعات نابوليون مع عائلته على الشكل التالي: من مميزات هذه العائلة الإسراف. فحاجاتهم تتجاوز شراحتهم، وليس لهذه الشراة حدود. فبعد أن بددوا مالية دولهم استغلوا طيبة نابوليون، ولم يعترفوا بأي فضل لكرمه، فمن الواجب عليه إعطاؤهم كل شيء. وبالمقابل لم يمنحوه إلا الهموم. فناوأوا سياسته برعوتهم أو بعجزهم. وقد كدّروا حياته بفضائحهم أو بخلافاتهم. فتحتمّ عليه تأنيبهم بخشونة أو السخرية منهم بشكل قاسٍ؛ لكن هذه السخرية لم تستطع إخفاء عاطفته العميقة. وعندما استمروا في معاندته، وجد نفسه مضطراً إلى معاملتهم كمتمردين. فكان يمضي من خيبة إلى خيبة.

(١) لويس دو بوريين (١٧٦٩ - ١٨٣٤) ضابط فرنسي، كان سكرتير نابوليون بوناپرت.

وفي العام ١٨١٠، في أوج قوّته، كان نابوليون يخوض نضالاً علنياً مع إخوته؛ لكنهم دعموه كي لا يخطر ببال أوروبا، عند رصدها، سوء تفاهمهم.

ماذا نستنتج من هذا؟ من المؤكد أن وضع نابوليون تجاه إخوته وأخوانه فيه شيء ما خاصّ تماماً. فكان يدّعي حقوقاً وهالات من الاحترام، إذ يعتقد أنه سيد العائلة المطلق. فكان يضطهدهم، وخاصة لوسيان. فبدلاً من أن يدعه ينظم حياته كما يشاء، ألح، وبأي ثمن، على ضمه إلى مجده الذي يقود إلى الكارثة. وقد هدد، بخصوص زوجة لوسيان التي لم يرد سماع كلمة عنها: «إذا لم يترك لوسيان هذه المرأة، يتعيّن عليه الذهاب إلى أميركا. وإلاّ فليتوقع أن يتم توقيفه وأن يموت في السجن. قد يقال إن هذا عمل استبدادي، طغياني، فليقل كلّ ما يشاء. لكن لي على هذه العائلة حقوق الحياة والموت. وسأمارس هذا الحق عندما تتطلبه سياستي». «ولوسيان هو نفسه الذي أنقذ نابوليون في ١٩ برومير، وجد نفسه مضطراً إلى مغادرة فرنسا للهرب من انتقام الأمبراطور الذي لم يستطع القبول بأن أحد إخوته يضحى بالسياسة النابوليونية في سبيل حياة عائلية من أجل امرأة. فلماذا هذا الطغيان، لماذا هذا الادعاء، هذه الحاجة إلى ربط كل إخوته إلى العربة نفسها ومنعهم من امتطاء حصانهم الخاص ومحاولة النجاح بعيداً عنه؟ أهكذا يكون تعلقه بإخوته، وهذا التعلق نفسه أليس تعلقاً ناجماً عن تعلق بالأب؟

في الحقيقة، نجد أنفسنا هنا أمام سمة من الطبع المرّضي المشترك بين نابوليون وبين الدّهانيّين. ونحن نعرف أن الدّهانيّين تراودهم ادعاءات ومطالبات بنظام خاص، يجعل منهم مضطهّدين - مضطهّدين. ولكن من هي الضحية التي استبسل ضدها نابوليون، والتي سعى إلى إسقاط كل أخطائه عليها؟ لقد رأينا في ما سبق من الصفحات كم كانت سياسته تجاه انكلترا تبدو غير مفهومة، وغير منطقية، كما يفهم من ملاحظات برايس عن هذه المسألة. ولنتذكر أنه لم يتردد في التأكيد بأن هذه السياسة تُظهر «الآثار المتعاقبة لنضال بين عقله وتيار روحه السري. فحكّمته تحثه على الاستسلام والخضوع وصوت اللاشعور الطاغوي يمنعه من ذلك...». فهل بمقتضى هذا الادعاء الدّهاني اتهم نابوليون

انكلترا بأنها الجلاذ الذي يرفض السلام معه، في حين أنه كان قادراً على إحلال ذلك السلام وكانت انكلترا تطلبه؟ أبهذا الشكل تفسر السياسة المشؤومة للحصار وللتحالفات مع النمسا وروسيا ضد انكلترا؟ ألهذا السبب لم يتبق لنابوليون، بعد أن حرم من جيشه، مخرج آخر غير الموت - الموت من أجل قلب الأدوار حتى النهاية والظهور كمضطهد، في حين أن موته الشخصي، ربما كان الوسيلة الأخيرة التي استخدمها اضطهاده لبلوغ «انكلترا المخادعة»؟

لقد سعى إلى هذا الموت. فبعد تجربته في جزيرة إلبا، ماذا تستطيع انكلترا أن تقدم، انكلترا المجرحة بوحشية من جراء عشر سنوات من الحروب المتلاحقة، إلى سجين بلليروفون^(١) (Bellérophon)؟ لقد سؤلت لها نفسها ضربه لكنها لم تجد الشجاعة الكافية لقتله. فكيف يتصرف ليتهم انكلترا بأنها قد قتلتها؟

لقد لاحظ نابوليون تطورات وضعه السيء في جزيرة القديسة هيلانة. وتنبأ بموته بوضوح مذهل، في حين أن جميع الأطباء، وطبيبه من بينهم، تكلموا على مرض خيالي، لقد شعر باقتراب الموت منه لأنه يحتاج إليه. فبأي فرح يحسن استخدام اللحظات الأخيرة من حياته ليملي وصيته على مونتولون^(٢) وعلى مارشان وهو الذي كان في السابق يوهن عزمه دون الرغبة في العمل «ضخماً وسميناً مثل راهب» بحسب تعبير طبيب انكليزي! ولكن كان ينبغي عليه أن يكسب معركته الكبرى الأخيرة ضد العدو.

(١) بطل أسطوري قضى على الوحش المدعو الخيمايرا ثم انتصر على الأمازونات. وفي النهاية ظن بلليروفون أنه آله فركب حصانه المجنح وصعد في السماء فأرسل رب الأرباب زيوس ذبابة من ذباب الخيل ضاقت حصانه فسقط عنه وفقد بصره وهام على وجهه في الحقول.

(٢) هو شارل تريستان مونتولون (١٧٨٣ - ١٨٥٣) جنرال فرنسي، صاحب نابوليون إلى منفاه في جزيرة القديسة هيلانة.

وهكذا استطاع إملاء هذه الكلمات : «إنني أموت قبل الأوان قتيلاً على يد الأوليغاركية الإنكليزية» في حين أن كل من يحيط به لم يكن يفهم بعد شيئاً من مرضه وأن جميع الأطباء قاموا بتشخيصات ممتازة . وعندما اقترب منه هذا الموت الذي لمحه غالباً في ساحات المعارك لكنه احتقره دائماً، عندما اقترب منه أخيراً، لم يُخضعه . بل خضع هذا الموت نفسه لإرادة جبارة نجحت، بفضل هذا الموت، في إسقاط ثقل الاغتيال على الخصم وإصابته بشكل مميت . وبعد سنة من وفاة الأمبراطور، انتحر اللورد كاستلراي، (Castlereagh) رئيس الحكومة الانكليزية المسؤول عن سياسة جزيرة القديسة هيلانة، بقطع حنجرته بموسى . فهل انتصر نابوليون في النهاية بوساطة موته؟ وهل كانت ذكراه على جانب كافٍ من القوة لمتابعة ضرب بريطانيا؟ إن النهاية المحزنة لهدسون لو، حاكم الجزيرة، معروفة . وسنشدّد على نضاله مع شبح الأسير، هذا الشبح الذي أتقن ببراعة كبيرة إنجاز أهداف سيده ومتابعة نضالاته، ليس في ساحات المعارك، بل في نفوس الناجين من المأساة .

وادعاء نابوليون هذا، هذه السمة لطبع الدّهاني، ما هو سببها، وأصلها؟ إننا نجد هنا إحدى المسائل الغامضة لطب الأمراض النفسية . ولنحاول مع ذلك اختبار تفسير ما .

كما عرضنا سابقاً ووضّحنا، إن اضطرابات التغذية والفظام في حياة الرضيع بإمكانها المشاركة في تكوين الطبع الدّهاني . فالأم لم تستطع تغذية طفلها، لكنها ألحت على القيام بذلك رغم مصاعبها . وقد ردّ الطفل على هذا الحرمان من التغذية باضطرابات خطيرة . فقد تألم ولم ينم . وفي النهاية، أخذ على عاتقه، بشكل ذات خارقة، سلوك أمه العاجزة عن تغذيته كما ينبغي . وردّ على جوعه بمشاعر بالذنب عنيفة، كأنه كان محرماً . وأصبحت شهيته متقلّبة وفي الحالات الخطيرة اختفت كلية . إذ أصبح الأكل حينئذ بالنسبة إلى الذات الخارقة للطفل المعادل لعدوانية مذنب، لجريمة ينتحر من جرّائها بعض الكاثوليك السوداويين، في حين أن الدّهاني ينجح بفضل ضحيته في النجاة، مع الاستمرار تماماً في معاناة نزاع مرعب مع ذاته الخارقة، وتميل هذه الذات

الخارقة إلى منعه من التمتع بحياته وتود الحكم عليه بالموت، ويطالب «الهُو» لديه بحقه في الحياة ويحتج ضد الحرمانات التي فرضها عليه محيطه وظروفه من جهة، ومن جهة أخرى فرضتها الذات الخارقة التي وجد نفسه في حرب معها. ونعتقد أننا لن نمتلك الفرصة للتآلف مع بؤس وعظمة الطبع الذّهاني بمجرد فهم هذا النزاع البدئي .

ولنتذكر ما قلناه بهذا الخصوص في الفصل الخامس من هذا الكتاب : «إن الفرد، بفعل تهديد ذاته الخارقة، هو في الآن نفسه وبشكل دائم مرعوب ومتمرد... ولكن لأنه ذكي وموهوب، يتعلم كيف يصطنع لنفسه أسلحة ضد القلق والذنب. وسيطوّر ذكاء خاصاً استثنائياً موجهاً خاصة نحو هدف وحيد: تهذية إحساس مصدوم ومشوش بشكل عميق، والدفاع عن النفس في وجه اضطرابات وجدان مقيد بمرحلة بدائية كلية من تاريخه. ونضيف أن هذا الذكاء الفريد قد يظهر بوساطة ما ندعوه عبقرية، عندما يظهر لدى فنان بوساطة موهبة الإدهاش ولدى قائد مثل نابليون بوساطة موهبة القيادة.

فأية مقابلات يمكننا الآن القيام بها بين النزاعات التي وصفناها للتو وبين نزاعات نابوليون؟ وماذا نعرف عن طفولته لتفسير وجود سمات الطباع الذّهانية لديه؟

من المرجّح أن نابوليون كان طفلاً وُلد قبل أوانه وتعرّض للعديد من الصدمات، وربما مذ كان في أحشاء أمه. ونحن نعرف في أية ظروف حملت به أمه. أوليس من العجب أيضاً أن السيدة ليتيسيا لم تتوقع ولادته عندما ذهبت لحضور القدّاس في كاتدرائية أجاكسيو، التي تعيّن عليها العودة منها بسرعة، لتصل في الوقت المناسب تماماً للوضع والتوليد. ولم تستطع الأم إرضاع طفلها. ونحن لا نعرف المآسي الصغيرة التي قد يكون خلقها هذا الواقع الأكيد، مع العلم أن الطفل المولود قبل أوانه بشكل خاص، من الصعب إرضاعه، ويحتاج إلى الكثير من العناية. وقد عدل أهله عن تعميده للتوفير، لأن الجميع اعتقدوا أن المولود الجديد لن يعيش، فاكْتُفِيَ بتعميده دون رتبة،

ونعتقد أن هذا الأمر يعطينا بشكل جيد فكرة عن الظرف والجو اللذين أحاطا بمولد الطفل.. لقد وجدوا له مرضعة، لكن هذه المرضعة لم تتغلب بسهولة على اضطرابات الهضم التي ظهرت لدى الطفل. ففي أية ظروف نما وترعرع؟ لا يعرف ذلك بدقة أي شخص. لقد كُبر ولكنه ظل «سقيماً ورقيقاً وسريع الغضب». وقد حمته المرضعة من قساوة أمه وجدته. وكانت هاتان الأخيرتان غير مفهوميتين بالنسبة إليه؟ فطوال حياة نابوليون، أظهر هذا الأخير عرفاناً كبيراً بالجميل تجاه مرضعته الطيبة. أليس بالقرب منها تعلم كيف يكون سعيداً في وسط بسيط؟ وهل في مواجهة أمه المتسلطة والصارمة نما هذا الحقد الأصم الخفي الذي يظهر على شكل ادعاءات وعداوة تجاه النساء، وبشكل خاص النساء المتسلطات، مثل مدام ستال^(١) (Staël)؟ فهل هذا الادعاء، الذي نقله لاحقاً ضد بريطانيا، سيدة البحار، هو الذي قاده بوساطة الحصار البري القاري الى الرغبة في جعل أوروبا مستقلة عن الوصاية البريطانية؟ من الممكن التساؤل عن ذلك.

ما يبدو لنا مؤكداً هو أن تجارب طفولته الأولى قد حدّدت اتجاه شخصيته وعبقريته. إن مصائب طفولته هي التي خلقت لديه قوة الايحاء الفريدة هذه التي تميّز فكره، وقررت التغلب على كل أنواع الضعف البشري، واختلقت هذه الإرادة الفولاذية التي كان يستمد منها شعوره بالقدرة الكلية، هذه الإرادة الفولاذية الضرورية لعدم الغرق في نزاع مميت. وبهذا الشكل نما هذا الذكاء الخارق لدى الرجل الذي اعتاد منذ مطلع شبابه على ملامسة الخطر والموت، وابتعد عن دروب النمو المعهودة ليحطّم أطر الامتثالية^(٢) ويتوجه نحو مسالك جديدة، غنية بالتجارب والمعارف.

(١) اسمها الحقيقي جرمين نكير (Germaine necker) أديبة فرنسية ألّفت عدة روايات ومارست تأثيراً في الرومانطيقية الفرنسية.

(٢) الامتثالية نزعة للتقيد بالأعراف المقررة.

الخطر، الموت، لقد أنكرهما بالارتقاء الى الأمام، كما فعل على جسر أركولي، والموت المدعور ترك هذا الجنرال الشاب يسير أمامه كي لا يقترب منه إلا مدجناً في جزيرة القديسة هيلانة. وهكذا انبنت هذه الشخصية الفريدة، التي كانت إرادتها قادرة على الهجوم، بلا انقطاع، دونها ضعف ودونها خوف، على كل المشاكل وكل الصعوبات، مهما كانت درجة تعقيدها أو مظهرها المرعب، للسيطرة عليها بوساطة نضال ضارٍ، بمجابهة متواصلة ليلاً ونهاراً. وهكذا وُلد هذا الفكر المدهش الذي يميز العسكري ورجل الدولة والفنان والعالم وعالم النفس الفذ نابوليون، وهكذا أيضاً تكوّن هذا الإدراك الثاقب الذي لم يكن يكتفي، للتغلب على العدو، بمزايا الرجل والمقاتل بل استفاد من الأسلحة الرهيبة للإهواء الأنثوي الذي سمح له بأن يصبح الأكثر فتنة، والأكثر مكرراً، والأشد سحراً من بين الخصوم، والأكثر جاذبية بين القادة، بالنسبة الى جنوده. ولنتذكر بهذا الخصوص وصف بونابرت على جسر أركولي الذي قام به مرجكوفسكي الذي شبّهه بفتاة شابة.

إن دراسة روسو وروبسبيير ونابوليون والتمعن في طباعهم وأعراضهم المرّضية قد أدخلنا في ميدان يجهله العديد من الناس. وقد رأينا عمل القوى الخفية التي تقود العالم والتي ليس كل الأشخاص، حتى الأكثر قدرة والأكثر إرادة، إلا أدوات لها. وقد تبيننا لدى نابوليون وجود أوالية. إلغاء ترغمه، لأسباب باطنية، على تغيير كل انطباعاته، وعلى مخالفة حركته الأولى، وعلى استنكار عمله ما إن يتم هذا العمل وينجز. كان بشكل منتظم، عندما يعبر عن رأي في أحد مقرّبيه، يناقض نفسه على الأثر، ويتراجع عن حكمه الذي لا يمتلك القوة للدفاع عنه حتى النهاية.

إننا نعرف ما هو رأيه في جوزفين. ولكن هذا الرأي لم يمنعه من القول أيضاً عنها إنها كانت على وجه الإجمال تمنح لزوجها السعادة وكانت على الدوام تبدو حبيبتة الأكثر رقة وحناناً، مجاهرة في كل لحظة وكل مناسبة بالطاعة والإخلاص والمجاملة الأكثر مثالية. وقد قال هذا الكلام بعد أن تحقق من

سليبتها وفوضاها في الإنفاق ونفاقها وأنانيتها . وتصرف على الشكل عينه بالنسبة الى أمه . فبعد أن انتقد كثيراً وبحق بخل السيدة ليتيسيا . أضاف قائلاً : ومع ذلك ، إن هذه المرأة التي كان من الصعب جداً انتزاع فرنك واحد منها ، قد قدّمت الكثير لإعداد عودتي من جزيرة إلبا ، وبعد معركة واترلو أعطتني كل ما كانت تملكه . ونعرف اليوم أنه كان مخطئاً في العدول عن طريقته الأولى في التفكير ، وخاصة عندما يتعلق الأمر بأمه التي ، بدلاً من تقديم فرنكها الأخير لإنقاذ ابنها ، أرسلت اليه ، من جراء رغبتها في التوفير ، كطبيب الى جزيرة القديسة سانت هيلانة ، شاباً عالماً بالتشريع قادراً تماماً على القيام بشكل مناسب بتشريع جثته .

لقد تكوّن بهذا الشكل العبقري الذي التقته فرنسا الديركتوار (حكومة المديرين) في طريقها ، وفرنسا هذه المترنمة تحت ثقل الذنب الذي خلفه تدمير النظام القديم ، كانت قد أصبحت عاجزة عن إقامة نظام جديد . فرنسا هذه الغارقة في البلبلة ، المتشاجرة مع جيرانها ، مع تقاليدها ودينها ، أمسكها بيده ؛ هذا البلد المحطم روحياً ، الممزق ، وربما الذي هو على وشك الانهيار على نحو محزن ، فأمن له وحدة القيادة والحكومة والسياسة ليعيد اليه شخصية جديدة ، وكل هذه الأمور تمت بالوسائل نفسها ، وبالأسلحة نفسها التي سمحت له بمنع غرق شخصيته الخاصة في نزاعات تولّد ، لدى الفرد ، الجنون . مخلص فايد ، لقد دفع ، من أجل فرنسا التي أحبها جداً ، الثمن الذي استوجبه انبعاثها الوطني . وأخذ على عاتقه نقل كره أعداء وطنه ، وحرره بالتكفير عنه ، واشترى له في العام ١٨١٥ السلام الذي ترك فرنسا سليمة ، بعد أن تم اجتياح أراضيها على جميع الأصعدة . لقد أتاح فشل نابوليون ، لفرنسا ، النجاة في حين أنها كانت محكومة بالفشل في كل ما صنع إشراقها منذ الثورة الفرنسية .

لقد سعى نابوليون الى هزيمته من تلقاء نفسه ، وفي ما يلي نعرض محطات هامة من تاريخه تؤكد ذلك :

لقد ذكر الطبيب الجنرال ر. برايس في كتابه سر نابليون أن معاهدة أميان^(١) كرسست التنازل عن مصر ومالطة^(٢) والجزر الأيونية^(٣)، لكنها اعترفت بضم الفلاندر^(٤) والمقاطعات الرينانية^(٥). وكان ذلك الأمر نجاحاً مشرفاً جداً للديبلوماسية الفرنسية. وكان نابليون يحتاج الى هذا النجاح لتمتين وضعه السياسي. فاستمد منه المنفعة التي ينتظرها. وحكومة القنصل، التي مددت أولاً عشر سنوات بوساطة مجلس الشيوخ بحجة التعويض الوطني، قد حوّلت بعد استفتاء عام إجماعي تقريباً إلى حكومة قنصل لمدى الحياة في الرابع من آب ١٨٠٢.

وما إن أمّن نابليون الدوام والاستمرار، حتى لم يعد يعتبر صلح أميان إلا هدنة. إذ كان قد قرر استئناف الأعمال الحربية، ولكنه، لكي يؤمن لنفسه الرأي العام في فرنسا وفي أوروبا، حرص على تحميل انكلترا مسؤولية القطيعة والتصديق في العلاقات. وقد سعى عبثاً إلى تفسير سلوكه، إذ كان هذا السلوك متناقضاً ظاهرياً إلى درجة أن بعض الكتاب الانكليز اتهموا حكومتهم الخاصة...

ففي الواقع كان نابليون المسؤول الوحيد عن تصديق العلاقات. ولكي يتوصل إلى ذلك أثقل الجنرال أندريوسسي (Andréossy)، سفير فرنسا في لندن،

(١) مدينة فرنسية في مقاطعة بيكاردية أبرمت فيها معاهدة سلام في العام ١٨٠٢ بين فرنسا وانكلترا واسبانيا وهولندا.

(٢) مالطا جزيرة في البحر الأبيض المتوسط بين جزيرة صقلية وقارة إفريقيا، وهي دولة من دول الكومنولث.

(٣) الجزر الأيونية مجموعة من الجزر اليونانية في البحر الأيوني من البحر الأبيض المتوسط والبحر الأيوني يمتد بين إيطاليا الجنوبية واليونان.

(٤) الفلاندر من البلاد المنخفضة، تقع بين بحر الشمال وأسكو السفلى وأرتوا. كانت مسرحاً لمعارك عنيفة خلال الحرب العالمية الأولى.

(٥) نسبة إلى رينانيا وهي مقاطعة في غربي ألمانيا.

بشكواه، وكان يستغل أي شيء للشكوى: مقالات النقد البذيئة الموجهة ضده - مثل بوناى (Boney) المشاغب الكورسيكي القصير، مسلح بسيف كبير - ووجود المهاجرين، وتجمعاتهم واجتماعاتهم، وحتى حمل أوسمة النظام القديم كان يعتبرها إهانة لحكومته. وكُلّف أندريوسي الاحتجاج رسمياً على الاحتفاظ بحامية انكليزية في مالطا بالرغم من شروط المعاهدة، مع العلم أنه سمح لنفسه بعدم الجلاء عن هولندا، وألحق للتوبيخونتي^(١)، واحتل سويسرا بوساطة جنود ناي^(٢). وأصدر تعليماته، في الآن نفسه، الى وزير بحريته بدراسة نقاط النزول المحتملة على الشاطئ الانكليزي.

وفي الثامن عشر من شباط ١٨٠٣، استدعى بوناى سفير بريطانيا لورد ويتوورث (Whitworth). وفي هذه المقابلة عاب بشدة غدر وزارة سانت - جيمس^(٣) (Saint - James) وأطلق تهديدات بعبارات فاحشة كانت تبدو وكأنها خرجت من فم حوذي. وفي الغد أمر تاليران أندريوسي بتقديم ملاحظات القنصل الأول الى الملك جورج الثالث بشكل إنذار أخير. فكان من المستحيل على انكلترا أن تتقبل مثل هذه العجرفة. وبعد عرض للمشاكل التي نشأت للتو، استخلصت الرسالة الملكية في ٨ آذار إلى البرلمان أن من الضروري اتخاذ بعض الاحتياطات. وبعد ثلاثة أيام، وخلال اجتماع للسلك الديبلوماسي في التويلري^(٤)، لم يوجه نابوليون التحية الى أحد بل تقدّم فجأة

(١) مقاطعة في شمالي ايطاليا.

(٢) هو ميشال ناي (١٧٦٩ - ١٨١٥) مارشال فرنسا، حارب في ألمانيا وروسيا ولقبه نابوليون بأبشع الشجعان. انضم إلى نابوليون بعد عودته من جزيرة إلبا، ثم اتهم فيما بعد بالخيانة وأعدم بالرصاص.

(٣) المقر الملكي القديم الذي أسسه هنري الثامن في لندن.

(٤) مقر حكام فرنسا في باريس. وقد بني القصر في العام ١٥٦٤ وأُحرق سنة ١٨٧١ أثناء كومونة باريس، واستخدم المقر لعاهلي فرنسا من ١٧٨٩ إلى ١٧٩٢ ومن ١٨٠٠ إلى ١٨٧٠؛ وقد أصبحت حديقة القصر حديقة عامة.

من لورد ويتويرث واستجوبه بأعلى صوته. فاتهم انكلترا بأنها قد عزمت على إعلان الحرب عليه. وصرخ وهو يرتجف من الغضب الشديد: إذا كان الانكليز أول من يسلّ السيف فسأكون آخر من يغمده. ينبغي احترام المعاهدات، وتعمساً لمن يخرقها ويستهكها. فاكتمنى السفير بالاعتراض دون أن يفقد هدوءه.

ومع ذلك، استمر الجنرال أندريوسي يُحظى باستقبال لطيف ومهذب في قصر الملك جورج الثالث. وتلقى هناك التأكيد القاطع بأن «انكلترا تريد السلام». فكتب إلى تاليران يخبره بذلك. وكرر هذا التأكيد في رسالة سرية إلى القنصل الأول فقال: «إن أمني ورغبات وحاجات هذا البلد تقف إلى جانب السلام». ثم طلب لورد هوكسبري (Hawkesbury)، رئيس مكتب الشؤون الخارجية، بإشعار كُتب بلهجة رقيقة سمحة، طمأنته على نيات الحكومة الفرنسية. فنقل أندريوسي ذلك الإشعار مرفقاً بالتعليقات الأكثر إيجابية. فلم يكلف نابوليون نفسه مهمة الرد عليه باللهجة نفسها. لقد كان يريد الحرب، لكنه أراد إرغام الإنكليز على تحمّل مسؤوليتهم. إن تبادل الرسائل الدبلوماسية التي تصادمت فيها امتيازاتهما بتصلّب وعناد، قد تواصل حتى ١٢ أيار. وتوجّب على لورد ويتويرث طلب مغادرة البلاد. وهكذا وصل نابوليون إلى مبتغاه.

وقال الطبيب الجنرال برايس في كتابه أيضاً: «لقد أجهد نابوليون نفسه لإكمال الحصار، وأصرّ على إبقائه والمحافظة عليه لأنه لم يكن يمتلك أية وسيلة أخرى للهجوم. لكنه لم يكن يجهل سطحية هذا التدبير، فقد تأوّه قائلاً: إنني لا أملك وسائل لإيقاف السفن الانكليزية وهنا تكمن كل المشكلة. وعلى كل حال، لم يرضَ قط بالتفاوض على قدم المساواة مع انكلترا. ويقال إنه لم يكن يستطع القبول، بعد نشوته بانتصاراته، بأنه هو الذي يمتلك قارة تطيع أوامره يتوجب عليه التحالف مع تلك التي لا تمتلك إلا مجرى البحار».

ولكن أليس أكثر عقلانية مواجهة المسألة من زاوية أخرى غير زاوية الكبرياء والعجرفة؟

إن الأخذ بالثأر لا يمكن تدبيره بوساطة تسوية، كنزاع تجاري بسيط. في حين أن بإمكان الصراع المرور بمراحل من الخداع والمكائد. ومن المشروع في الحرب الدخول في مفاوضات مع العدو لإخماد حذره واحتراسه ثم ضربه بأمان أكبر. فالمراسيم التي أقامت الحصار والتدابير المتخذة لتحقيقه اختلطت زمنياً بمفاوضات من أجل السلام. وإذا كانت هذه المفاوضات لم تجرِ بناء على طلب نابوليون فإنها على الأقل قد نالت موافقته المبدئية.

وفي آذار ١٨٠٦. جاءت المقدمات من انكلترا فالوزير فوكس، أخطر نابوليون أن المدعو غييه دو لا جفريليير (Guillet de la Gevriillière)، أو المنتحل هذا الاسم، ينوي السفر إلى فرنسا لاغتيال «رئيس الفرنسيين» لأن هذا هو التعبير (الذي اعتذر عنه كذلك) الذي وجد نفسه مضطراً لاستعماله، لأن بلاط سان - جيمس لم يعرف الأمبراطورية. وقام تاليران في طيات رسالة شكره بالتأكيد للوزير الانكليزي أن تدابير نابوليون سلمية. ولم يكن فوكس يحتاج إلى أكثر من ذلك ليقترح القيام بمفاوضات. وعُيِّن مفاوضون مطلقو الصلاحية من الجانبين، ولكن نابوليون، في الوقت الذي ادعى فيه الرغبة في السلام، دبر كل شيء لإفشال هذا السلام.

أما انكلترا، فالبرغم من التلاعب بها وخداعها، فإنها لم تقطع المفاوضات. وفي الثاني من آب ١٨٠٦، أرسلت لورد لودرديل (Lauderdale) إلى باريس كممثل رسمي. وعيّن الجنرال كلارك (Clarke) لمتابعة مواقف نابوليون. وثبتت التعليمات التي أعطاها الوزير فوكس لمفاوضة رغبتة الصادقة في الوصول إلى اتفاق. ولتوضيح هذه المسألة ينبغي مراجعة المشروع الذي قدمه لورد لودرديل إلى وزارة الخارجية...

لكن نابوليون، بدلاً من أن يسارع إلى القبول بمشروع يرضيه كل الرضى، رفض مناقشة الأسس التي وضعها هو نفسه. ثم نتيجة غضبه من القيصر الذي لم يوافق على الاتفاق الذي وقّعه ممثله أوبريل (Oubril)، أعلم، في الثالث من أيلول، لورد لودرديل أنه كان من المستحيل التوصل إلى الصلح مع مفاوض

تدل كل طلباته على الرغبة في الإهانة وتحمل كل مساعيه سمات العدوان، ثم طلب إليه مغادرة البلاد . . .

. . . ومع ذلك، وبُعِدَ معركة أيلو (Eylau) غير الحاسمة، شعر نابوليون بالميل نحو أفكار سلمية. والكونت ستاديون (Stadion) رئيس الوزراء النمساوي كان يحتاج من جهته، لإعادة تصحيح وضع مالية بلده، إلى سلام أوروبي. فعرض على تاليران التدخل كوسيط بين فرنسا وانكلترا وروسيا. وقد أجاب نابوليون في الرابع عشر من نيسان ١٨٠٧ بأنه يهتم بالاقتراح النمساوي. ولكنه، في الثاني والعشرين من الشهر نفسه، أعطى، جرياً على عادته، تعليمات تسويقية. وقد كتب قائلاً: ينبغي النقاش طويلاً بخصوص جميع المواضيع. أما الحكومة الانكليزية فقد بدت أكثر صراحة، لقد قبلت الوساطة وتعهدت بالمشاركة في المحادثات ما أن تقبل بها القوى المتصارعة.

وتبعاً لرغبة نابوليون، قام تاليران بمط المشاورات إلى أن سمح احتلال دانترينغ^(١) (Dantzig) والنصر الساحق في فريدلانند^(٢) (Frédland) بعقد الصلح مباشرة مع روسيا وبروسيا . .

لقد كان الملك جورج يرغب صراحة في إنهاء نزاعه مع نابوليون. «المفاوضات معلقة وتنتظر لندن من فرنسا أن تزيد فعلاً توضيح الأسس التي تعتبرها جديرة بالإفضاء إلى السلام». هذا ما تم ذكره في المراسلات الدبلوماسية.

ولم يُدخل أحد في حساباته الانقلابات المفاجئة في مزاج نابوليون. ففي اليوم نفسه الذي تلقى فيه كاتينغ (Canning) عروض ستاهرنبرغ^(٣)

(١) دانترينغ، أوغدانسك اليوم، مدينة في بولونيا.

(٢) فريدلانند مدينة في الاتحاد السوفياتي حقق فيها نابوليون انتصاراً حاسماً سنة ١٨٠٧ على الروس .

(٣) عاصمة البرتغال وهي مرفأ على المحيط الأطلسي .

(Stahrenberg) للمفاوضات، أرسل من ميلانو المرسوم الذي يشدد الحصار القاري. وكان قد أصدر للتو الأمر بإحراق الرسائل الآتية من انكلترا، بعد قراءتها. وفي هذه المرحلة احتل لشبونة بوساطة جونو^(١) (Junot) واستحث جوزيف^(٢) على الإسراع في احتلال صقلية، ولويس^(٣) لينظم في هولندا أعمال القرصنة ضد التجارة البريطانية. وبالرغم من هذه الأعمال العدوانية، فقد اشترط أن تبدي بريطانيا نحوه بعض المقدمات، وترسل مفوضين مطلقي الصلاحية إلى باريس. فأجابت الحكومة البريطانية بوساطة ستاهرنبرغ بأنها ترغب في التفاوض مع فرنسا، ولكنها لا ترضى بالاذلال أمامها. وفي السابع من كانون الثاني ١٨٠٨، نشرت صحيفة «لومونيتور» (Le Moniteur) وهي لسان حال الأمبراطورية مقالة ملأى بالشتائم والإهانات، ومنها أن سوء نية انكلترا أمر ثابت ودائم، والانكليز لا يرمون معاهدات إلا لانتهاكها... انكلترا إذاً أمة ضعيفة جداً وبائسة إلى حد كبير. ووزراؤها بحاجة إلى عمليات قرصنة. ويحسبون نتائج الحرب وفق النسبة المئوية للربح منها. إنهم لا يفكرون إلا في كسب المال.

وفي تشرين الأول ١٨٠٩، وبعد توقيع معاهدة فيينا الشاقة، أسمع نابوليون الآخرين أنه يرغب في رؤية انتهاء النزاع مع انكلترا. وخال فوشيه نفسه حاذقاً إذ تفاوض دون إخطار الأمبراطور بذلك. فاستخدم مبعوثين زوّدته بهما وظيفته كوزير للشرطة: الأول مهاجر قديم اسمه فاغان (Fagan) عاش طويلاً في لندن وله فيها أصدقاء. وبوساطة هؤلاء الأصدقاء، نجح في الالتقاء بلورد ولسلي (Wellesley) وزير الخارجية. وتلقى منه التأكيد بأن الحكومة الانكليزية مستعدة دائماً لتسلم أي عرض للصالح لا يستبعد حلفاءها ومن ضمنهم إسبانيا. أما

(١) هو أندوش جونو (١٧٧١ - ١٨١٣) جنرال فرنسي، اشتهر في إيطاليا ومصر، واحتل لشبونة في العام ١٨٠٧.

(٢) هو جوزيف بوناپرت شقيق نابوليون.

(٣) هو لويس بوناپرت شقيق نابوليون، وصار ملكاً على هولندا.

المبعوث الثاني فكان رجل المصارف الهولندي لابوشير (Labouchère) صهر السير فرنسيس بيرنغ (Sir Francis Baring)، أحد مديري شركة الهند. وقد ذهب إلى انكلترا بصفة مكلف بمهمة من قبل حكومة بلده. وتعيّن عليه أن يمارس ضرباً من الابتزاز على الحكومة البريطانية، معلناً الضم القريب لهولندا إلى فرنسا ومدعياً أن الوسيلة الوحيدة لتدارك هذه الكارثة هي التماس الصلح. فاكتمل لورد ولسلي القليل التأثير بهذا التهديد والتخويف بلفت انتباهه إلى أن هذه الخطوة ليس لها أية أهمية.

وعلم نابوليون في الرابع والعشرين من شباط ١٨١٠ بفشل مهمة لابوشير. وفي اليوم نفسه فرض ضم هولندا. ولم يعد نابوليون، الغارق كلياً بالتحضيرات لزواجه من ماري-لويز، يهتم بمفاوضات الصلح. كأنه يعتقد أنه بات أكثر قدرة من أي وقت مضى، وكأنه واثق من قدرته على سحق عدوه. فأرسل المارشال ماسينا إلى إسبانيا لطرد جنود ولينغتون. فعزز الحصار البري. وكانت الرحلة الرسمية الأولى بصحبة الأمباطورة الجديدة بمثابة تحدّ. إن الملكين يزوران مرفأ أنفير^(١) (Anvers) الحصين. وفي هذه الآونة بالذات، قدّر فوشيه، ولا ندري لماذا، أن الوقت ملائم للقيام بمحاولة سرية كالمحاولة السابقة. وكلف المصرفي أوفرار (Ouvrard) بالعمل مع زميله لابوشير. وإثر هذه الوساطة، نقل السير فرنسيس بيرنغ إلى لورد ولسلي مجموعة من العروض الواقعية، أعدّها فوشيه نفسه في نيسان ١٨١٠، وتردد في التصديق بأن من الممكن أن تصدر مثل هذه العروض من العقل الأكثر دهاء في الأمباطورية لفرط ما هي غريبة وغير معقولة. فتخلي بريطانيا عن إسبانيا يجب أن تعوض عنه المساعدة الفرنسية على غزو الولايات المتحدة. فالأمباطور، على حد تأكيد فوشيه، سيسعده تدمير المأثرة الوحيدة التي يمكن أن يفتخر بها عهد لويس السادس عشر. وقد ناقشت الحكومة الانكليزية هذه المقترحات دون أن تشك لحظة واحدة في أنها ضحية مكيدة. ولكن نابوليون علم مصادفة بدسائس وزير

(١) مدينة ومرفأ في بلجيكا.

شرطته. فسجن أوفرار وطرده فوشيه الذي اتهمه بالخيانة والغدر. وبلغ غيظه الذروة: هذه مخالفة غريبة لواجبه، أن يسمح لنفسه بمفاوضة العدو من غير علم ملكه، في ظروف يجهلها وعلى الأرجح لن يعلم عنها شيئاً قط. فأقسمت الحكومة البريطانية الغارقة في السخرية بأن لا تسمح أبداً باستغلالها بمثل هذه المناورات. وأمام عدم قدرته على قهر انكلترا، اكتفى نابوليون بإذلالها. إلا أنه لم يقبل بأي مساومة ديبلوماسية. وكانت نكبة فوشيه الساطعة الدليل على ذلك. ومع ذلك يجب الانتباه إلى أن مراوغات نابوليون لم تكن خداعة كلها. إنها تظهر تعاقبات صراع بين عقله وتيار روحه السري. إن الحكمة تحثه على الاستسلام، وصوت اللاشعور الطاغى يمنعه من ذلك مادامت الإهانة لم يكفر عنها.

وذكر ديمتري مرجكوفسكي في كتابه نابوليون الرجل أن وضع الجنرال بونابرت قائد جيش إيطاليا، كان ميؤوساً منه تقريباً، في تشرين الثاني ١٧٩٦. إذ كان جيشه الصغير قد أنهك من جراء معارك غير عادلة: عشرون ألف رجل، منهكون يقاومون ستين ألف جندي مرتاحين وجديدي العهد بالمعارك. ومن جهة ثانية، لم تكن النجذات المتوقعة من فرنسا تصل إليهم. وعادت نخبة الجيش من ضباط وجنود إلى الحياة المدنية. وكانت المستشفيات غاصة بالجرحى والمرضى المصابين بالحمى في مستنقعات مانتوى^(١).

وكان بونابرت نفسه مريضاً أيضاً. لكن أسوأ ما في الأمر أن الجيش قد ثبطت همته من جراء فشل الهجوم على مرتفعات كالديرو (Caldiero) حيث احتل الماريشال النمساوي ألفينزي (Alvinzi) موقعاً منيعاً وهدد فيرونا^(٢) (Vérone)، فتراجع بونابرت لأول مرة في حياته، وتعين عليه أن يتراجع في ظروف مذلة تقريباً. وقد كتب في ذلك الحين إلى أولي الأمر في باريس قائلاً:

(١) مانتوى مدينة إيطالية.

(٢) مدينة بايطاليا.

«مواطني المديرون، ربما نكون على وشك خسارة إيطاليا. إذ لم تصل أية نجدة متوقعة، إنني أقوم بواجبي، والجيش يقوم بواجبه. روعي ممزقة لكن ضميري مرتاح. النجديات! أرسلوا النجديات!».

وكان نابوليون يعلم أنهم لن يرسلوا أحداً: فاليعاقبة والملكيون وحتى المديرون لم يكونوا ينتظرون إلا فرصة للقضاء عليه. ونراه يكتب الى جوزفين قائلاً: «كل شيء ضاع... ولم يبقَ إلا شجاعتي». وقال ستندال الذي شارك في الحملة: أي جنرال آخر، في مكانه، ما كان ليفكر إلا بالعودة إلى منتشيو^(١) (Mincio) وكانت إيطاليا ضاعت في تلك الحال.

لكن بوناپرت لم يتراجع، وقام بمناورة جريئة إلى حد الجنون: الوصول إلى الخطوط الخلفية للنمساويين، من جهة مستنقعات الأديج^(٢) (Adige)، وهي متعذرة العبور تقريباً، ومفاجأة العدو وإرغامه على القتال في ثلاثة مجالات ضيقة، ليس للتفوق العددي فيها أهمية. بل إن بسالة الجنود الشخصية تقرر كل شيء، ولتنفيذ هذه المناورة كان ينبغي الاستيلاء، بهجوم عسكري مفاجئ، على جسر خشبي صغير، في آخر أحد السدود، على النهر الصغير الموحد في ألبوني (Alpone) والقريب من قرية أركولي - وهو وسيلة الاتصال الوحيدة لمؤخرة العدو بالمستنقعات.

وفي الليل، وسط صمت عميق، خرج الجيش الفرنسي من فيرونا، وكانت مناورة بوناپرت الجسورة رائعة ولذيذة إلى درجة أن الجرحى انضموا إلى الجيش. وهكذا انسلت في العتمة عبر مستنقعات الأديج طوابير طليعة الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال أوجيرو (Augereau) واقترب قبل بزوغ الفجر من جسر أركولي. ولكن على العكس من توقعات بوناپرت كان الجسر محمياً جيداً: فهناك كتيبتان من الكرواتيين، وبحوزتهما مدفعية وهما قادرتان على تغطيته بنار

(١) نهر في إيطاليا.

(٢) نهر في إيطاليا يصب في البحر الأدرياتيكي من البحر المتوسط.

جانبية قاتلة . ولكن كان وقت التراجع قد مضى . ومن جهة أخرى كان طريق الانسحاب قد قُطع . لقد وقع في فخ . ولم يعد هناك إلا الهلاك .

هجم الطابور الأول، ولكن النار الغزيرة أبادته كلياً تقريباً، وحدث الأمر نفسه للطوابير الثاني والثالث والرابع . فما إن يظهر الرجال على الجسر حتى تبيدهم الطلقات . ومات أولئك البواسل بلا جدوى . وكانوا جميعاً صبياناً في مقتبل العمر لم تنبت لحاهم بعد، من اللامسترولين^(١) (Sans-culottes) الذين كانوا، في نهجهم، هم أيضاً، من «رجال بلوتارك»^(٢) . ولكن حتى هؤلاء البواسل كانوا مشمئززين من الموت عبثاً . ولم يعد بالمستطاع أخذ الجسر إلا بتسلق السماء . وكل القادة تقريباً قُتلوا أو جُرحوا، ورفض الرجال المسير إلى النار . وحينئذ اندفع أوجيرو إلى الأمام والراية في يده، وصرخ بغضب واندفاع آملاً جر جنوده معه : «جنباء، أتخافون إذن إلى هذا الحد من الموت؟» لكن أحداً لم يتبعه .

وهرع بونابرت إلى ساحة المعركة، وأدرك من النظرة الأولى أن الجسر إذا لم يؤخذ، فإن كل شيء سيضيع . ولم يعد هو الذي سيفاجيء ألفينزي بل العكس هو الصحيح : فالنمساويون إذ سمعوا ضجيج المعركة، قاموا بفتح النار من أعلى تلال كالدييرو، وسحقوا الجيش الفرنسي بكامله وأغرقوه في المستنقع . ولكن في اللحظة نفسها أدرك بونابرت ما ينبغي القيام به . فترجل عن جواده، وأمسك براية رماة القنابل، ولم يفهم الرجال أولم يجرؤوا على فهم ما ينبغي القيام به، فنظروا إليه دون حراك، وبصمت مطبق .

كان نابوليون يرتدي معطفاً قصيراً أزرق اللون بسيطاً جداً، وبلا توشية تقريباً، ويضع حزاماً عريضاً من الحرير المثلث الألوان ويرتدي سروالاً من

(١) اللامسترولون، لقب الثوار الفرنسيين عام ١٧٩٣ .

(٢) بلوتارك (Plutarque) (نحو ٥٠ - ١٢٥ م) مؤرخ وأخلاقي يوناني . مؤلف كتاب حياة الرجال المشهورين في اليونان وروما .

الشاموا الأبيض، ويتنعل جذمة قصيرة ذات قفا من جلد الماعز. لقد كان نحيلاً، هزيلاً، رغم سنواته السبع والعشرين، ويبدو كفتاة شابة في السادسة عشرة، وتتساقط على وجنتيه الهزيلتين خصلتان من الشعر ملساءتان. وفي وجهه هدوء غريب، ومسحة من التأمل العميق، ولكن في عينيه الواسعتين لمعان معدني لا يحتمل. لقد كان وجه «الولد المريض» هذا هو الذي أكسبه محبة جنوده وشفقتهم.

لم يكن هؤلاء الجنود يفهمون أبداً ما سيقوم به. فلوح، بيد، بخرقه الراية المقدسة، واستل بالأخرى سيفه، واستدار صارخاً: «أيها الجنود، ألم تعودوا، أين المنتصرين في لودي^(١)؟» واندفع إلى الجسر. فاندفع الجميع خلفه وفي رأسهم فكرة واحدة: الموت أفضل من رؤية «الولد المريض» يسقط صريعاً. وأحاط به القادة وغطوه بأجسادهم. وحماه الجنرال لأن، الذي سبق أن جرح مرتين من إطلاق النار الأول وسقط جريحاً للمرة الثالثة، وحماه الكولونيل مويرون (Muiron) من إطلاق النار الثاني وقتل على صدر بونابرت الذي تلتخ وجهه بدمه. وحصد إعصار القذائف والشظايا الجنود، وبالرغم من ذلك كانوا يتقدمون ونجحوا في الوصول الى نهاية الجسر تقريباً. ولكن عند وصولهم إلى هناك لم يستطيعوا تحمّل النار المطلقة عن كثب، فقاموا بالاستدارة والهرب. ولاحقهم الكرواتيون مُجهزين بضربات الحراب على أولئك الذين نجوا من القذائف.

كان نابوليون متماسكاً أبداً على الجسر. فاخطفه الرماة الفارون وأرادوا سحبه خارج مرمى النار، ولكنهم أوقعوه خلال تلك المعركة، دون أن يدركوا ذلك. فسقط في المستنقع، وغرق في الوحل حتى حزامه، فتخبط فيه محاولاً الخروج، لكنه غرق أكثر فأكثر. لقد كان جميلاً الوقوف على الجسر كبطل، ولكن من الرداءة البقاء في المستنقع كضفدع. ولعله لم يكن يسمع، رغم

(١) لودي (Lodi) مدينة إيطالية، انتصر فيها نابوليون على النمساويين في العام ١٧٩٦.

ضجيج المعركة، إلا الهيمنة العذبة للقصب فوق رأسه، ولا يرى إلا السماء الهادئة والرمادية، وكان هو أيضاً هادئاً، ينتظر نهايته: هل سيبتلعه الوحل أم ستقتله ضربة سيف أم سيأسره النمساويون؟ أم أنه كان يعرف جيداً، كما كان يذكر، أنه سينجو؟

تجاوزه النمساويون بأربعين خطوة تقريباً، لكنهم لم يروه أو أنهم لم يعرفوه، بوجهه المغطى بالوحل والدم. وهكذا حمته السماء الهادئة، فقد كان سيهلك على الجسر حتماً، في حين أنه نجا في المستنقع، وكلما غاص فيه، صار بمأمن بشكل أفضل. ولم يتمالك الرماة أنفسهم إلا عندما عادوا مرة أخرى إلى الضفة. فتبينوا أن بونابرت قد اختفى، فصرخوا مرتاعين: أين هو؟ أين بونابرت؟ لنعد لإنقاذه؟. واندفعوا مجدداً إلى الجسر، وأبادوا الكرواتيين باندفاع غاضبة، فرأوا بونابرت غائصاً في المستنقع حتى كتفيه تقريباً، ونجحوا في الوصول إليه بصعوبة كبيرة، فانتشلوه ورفعوه وحملوه إلى الضفة، وأركبوه على جواده. وهكذا أنقذ نابوليون بونابرت. وذكر لويس مادلين في كتابه (من برومير^(١) إلى مارنغو^(٢)) أن بونابرت، في هذه الظروف، كان بكل تأكيد من الأكثر حذراً من جانبه التمسك بعناد بفكرته الأولى: انتظار ميلاس^(٣) (Mélas) بضعة أيام أخرى، عند مضيق ستردال (Stradelle). إذ إن رمي مشاته وفرسانه في السهل سيرغمه على نشرهم، وفي حال هجوم النمساوي، تحت نيران مئتين أو ثلاث مئة قطعة مدفعية يستطيع هذا الأخير استخدامها، ولا تستطيع الثمانون قطعة التعيسة التي يمتلكها نابوليون مقاومتها بفعالية، في ذلك الصباح من اليوم الرابع عشر من برومير. ومن المدهش والمذهل أن هذا المدفعي الكبير الذي يعلّق عادة على سلاحه الأهمية التي يعرفها، عرض نفسه عمداً

(١) برومير هو شهر الضباب أو الشهر الثاني في روزنامة الثورة الفرنسية.

(٢) مارنغو (Marengo) مدينة إيطالية، شهدت انتصار نابوليون بونابرت على النمساويين في سنة ١٨٠٠.

(٣) ميشال ميلاس (١٧٢٩ - ١٨٠٦ م) جنرال نمساوي، هزم في مارنغو.

لخسارة معركة لعدم توافر المدافع - فهذا ما كان سيحصل فعلاً في الرابع عشر . لكنه كان الآن عرضة لنوع من القلق ، ينتابه عندما تراوده فكرة أنه لم يعد يرى بوضوح في لعبة الخصم ولا يدرك حقيقة نواياه ، ولأن هذا العدو لا يكشف عن نفسه ، كان يشعر برغبة لا تقاوم في الذهاب إلى حيث هو لرؤيته ، حتى لو توجب عليه الذهاب إليه في الاسكندرية^(١) نفسها .

وهذا القلق المحموم نفسه حثه على صعيد آخر وعرضه ، للحظة ، للهزيمة ! إذ تخيل أن العدو لن يجروا على محاولة إحداث ثغرة في الجسم الفرنسي الضخم ، وسيحاول بلا شك الانزلاق إلى اليمين أو إلى اليسار . فتصور أنه قد يتدارك هذه المحاولة . بفصله من هذا الجسم بعض الفيلق . وهكذا فرق جيشه البالغ ستين ألف جندي ووزّعه ، فلم يبق معه إلا خمسة وعشرون ألفاً ، ومع ذلك قام من جديد بفصل بضعة آلاف لاستكشاف ميمته وميسرته في الميدان الذي كان من الممكن أن يحاول ميلاس المغامرة فيه . وكان دو سيز في نظره أحد العسكريين الأكثر مهارة ، والأكثر تضحية في الآن نفسه . فعهد إليه على الفور بجيش مؤلف من فرقتين من أفضل فرقته ، فرقتي مونييه (Mounier) وبوديه (Boudeh) ، ولأنه كان يخشى في اليوم السابق (١٣) أن يحاول ميلاس ، أثناء عبوره منطقة أكّي (Acqui) الواقعة الى الجنوب من مدينة الاسكندرية الإيطالية ، التسلل إلى يسار الفرنسيين ، أوكل لدوسيز مهمة المضى إلى أكّي على رأس جيشه الجديد ، فإذا ما اصطدم بالجيش النمساوي أثناء تحركه ، فعليه أن يسد عليه الطريق مهما كلف ذلك من ثمن إلى حين وصول الجيش . والحال أنه بعد إمعان التفكير لم يترك له إلا فرقة من الفرقتين هي فرقة بوديه المكلفة لحسن الحظ بحراسة فرقة مونييه بالقرب منه . ولكن ، بما أن ميلاس هذا قد يحاول أيضاً الانسلاخ عبر فالانزا (Valenza) إلى نوفارا^(٢) ،

(١) مدينة في إيطاليا .

(٢) مدينة إيطالية .

على يمين الجيش الفرنسي ، فصل القنصل الأول أيضاً، فرقة لابويب وأرسلها باتجاه فالانزا .

لقد أدى هذان التدبيران الاحتياطان إلى فصل عشرين ألفاً من الرجال عن الجيش، ومع ذلك اندفع نابوليون في السهل . . .

والحال أن ميلاس، في تلك الصبيحة من الثالث عشر، وجد نفسه مرغماً على اتخاذ القرارات العنيفة، فعزم على الانقضاض على عدوه مباشرة. وبعد أن كان نابوليون قد فاجأه قبل أسبوعين انطلق هذه المرة ليفاجئه هو، في الظروف الأكثر إجحافاً بخصمه، الذي ما يزال محروماً، من القسم الأكبر من مدفعيته، وفضلاً عن ذلك لقد تناقصت قوته إلى حد أنه لن يستطيع أن يحشد إلا خمسة وعشرين ألف رجل في مواجهة جيشه (جيش ميلاس) البالغ سبعة وثلاثين ألف رجل، تدعمهم طاقة اليأس والعزم على المرور، بأي ثمن، على جثث الفرنسيين . .

والحقيقة أننا نستطيع الافتراض أن القنصل الأول كان قلقاً بشدة. صحيح أنه لم يظهر أمام جيشه إلا كقائد شديد الاطمئنان، لكن كوانيه (Coignet) سيكتب في ما بعد أنه قد رآه، لفترة ما، يقذف بسوطه الحصى في الهواء. وقد فوجئت هذه السورة العصبية المبالغ بها بالجندى المشار إليه، وهي سورة مفهومة، إذ لا شك في أنه كان واثقاً من تحاشي كارثة ما، ومن إنقاذ جيشه، والثأر عما قريب، ولكنه مع ذلك قد يكون، ولعدة أيام، «المهزوم في مارنغو» فآية نتائج يمكن أن يترتب عليها هذا الحدث في أوروبا حيث يحاول التكتل استعادة القيصر واسترداد بروسيا، وفي فرنسا حيث يعمل الحزب الملكي غرباً وفي الوسط وفي باريس التي تحاك فيها أكثر من دسيسة! وفي المقابل، إذا كسب المعركة مجدداً، فكل شيء سيصبح سهلاً، وسيتجنب جميع النتائج المشؤومة. ولكن المعركة لن تكسب إلا إذا وصل دو سيز، فبونابرت لم يكن بوسعه التوهم بخصوص هذه النقطة. وفي ما كان يتابع بمنظاره الفرق

المتحركة، رأى لأن^(١) نفسه يضطرب تحت ضغط العدو، والطليلة الخاصة بالقنصل الأول، التي كانت حتى الآن صلبة جداً، تتراجع أمام هجمات فرسان الجنرال النمساوي فريمونت (Frimont) وكاراً سان - سير (Carra Saint - Cyr) خسر كاستل تشريولو (Castel Ceriolo) نفسه. وكان لأن قد أصيب في رأسه أثناء انسحابه. وتابعت مدفعية العدو المهاجمة بعنف. وقد وصف كواثيه ذلك فقال: كنّا نقاتل بنظام أثناء انسحابنا، لكن الكتائب كانت تتساقط بسرعة كبيرة وهي على أتم الاستعداد للهرب، لو لم تكن تلك هي رباطة جأش القادة. وعندما يمر الجنود المتراجعون أمام بونابرت، يصرخ بهم: بعض الشجاعة أيها الجنود! الفرق الاحتياطية ستصل. ظلوا أقوياء راسخين! الفرق الاحتياطية. لم يعد هناك منهم إلا دوسيز ولابويب (Lapoype). ودوسيز بشكل خاص! دوسيز! إنه لا يفكر إلا بهذا البطل الذي، إن وصل مع رجاله الثلاثة آلاف، فهو يعادل عشرة آلاف! فينبغي أن يتزايد قلقه ويبلغ الذروة. ويحدثنا أحد الشهود بعد عشرين عاماً ونيف، عندما بدأ الأباطور يهذي، طوال ثلاثة أيام أثناء احتضاره، أن رفاقه سمعوه يتمتم فجأة: دوسيز! دوسيز! آه! لقد قرر النصر. أفكان من المحتمل أن تكون تلك الساعة من الرابع عشر من حزيران سنة ١٨٠٠، الساعة الثالثة بعد الظهر. المميّزة في حياته، مملوءة أيضاً مع ذلك بالتقلبات والمحن، لكي يعيش اللحظة مجدداً عند عتبة الموت، أو على ظهر حصانه، وسط الفرق المباداة، ومرة أخرى، وهو ينتظر خائر القوى دوسيز. وصرخ مجدداً «الفرق الاحتياطية ستصل» لنفسه أكثر مما للجنود. والفرق الاحتياطية كانت دوسيز!

عند الساعة الثالثة، كان الضباط القلقون يُحدقون بالرجل. ماذا قرر؟ ألم تدق ساعة الانسحاب؟ وإذا تأخروا كثيراً، فهل سيستطيعون أيضاً القيام مع بعض الحظ بالتراجع إلى الخلف؟ والجنود، إذا ترك النمساويون يتعقبونهم،

(١) جان لأن (١٧٦٩ - ١٨٠٩) ماريشال فرنسا، أحد ضباط نابليون. أصيب بجرح مميت في معركة إسلنغ (Essling).

فهل يعودون بنظام إلى سكريفيا (Scrivia)؟ النمساويون الآن أسياد الطريق، ويتقدمون نحو سان جيوليانو (San Giuliano)، مقتنعين تماماً بأن النصر تم واكتمل إلى درجة أن بعض الفيالق، على ما يقال، تخلى عن أوامر المعركة وتسلم الأمر بالسير في طوابير متراصة. وميلاس الأكثر اطمئناناً أيضاً من جنوده، غادر ميدان المعركة وعاد إلى الاسكندرية، مقتنعاً بأن جنوده المترعين بحماسة النصر، سيكملون في الغد فتح طريق بليزانس^(١) (Plaisance) أمامه. ومن الاسكندرية، أرسل برقيات مظفرة: «بونابرت - الذي لا يُقهر - قد هُزم!».

(١) بليزانس مدينة بإيطاليا.

نظرات موجزة وعميقة في السعادة

إن دراسة السعادة البشرية تثير الحيرة وخيبة الأمل إذ ترغمنا على التخلي عن الأفكار الجاهزة سلفاً عن الحب والسعادة، وما إن نتعمق في المسألة حتى نمضي من خيبة إلى خيبة، ويزول غرورنا، على شرط أن نتبين أن النجاح المادي كما العاطفي، بالنسبة الى كثير من الأشخاص، هو كارثة. فالبعض لا يكونون سعداء إلا في التعاسة والشقاء، يمزقهم العذاب الذي يكفر عن الذنوب، والبعض الآخر يعتبرون السعادة البشرية عدواً يحرمهم لذة القيام بدورهم المسرحي كمنقذين. إنهم يحتاجون إلى الكارثة كحليف. «عديدون هم المجرمون الذين يقتربون جرائمهم ليؤمنوا لأنفسهم سعادة السجن، وعديدون كذلك المحكومون بالإعدام الذين يعتبرون اللحظات الأخيرة بداية الخلود. فتعساً لذاك الذي يفتح أبواب السجون ليعيد الى هؤلاء المساجين حرية تستعبدهم أو لينقذ المحكومين من إعدام ينتظرون فيه السعادة الأبدية.

إن دعاة السعادة، الذين يعتقدون أنهم يجعلون الناس سعداء إذ يؤمنون لهم الحرية والرفاهية والمال، يبدون لنا جاهلين جداً وساذجين. فالمفكرون الأحرار الذين يريدون الدفاع عن كرامة الأفراد بتدمير المعتقدات الدينية التي حكموا عليها بأنها مشينة للعقل والمصير البشري وغير لائقة بهما، يخاطرون بأن يصبحوا معروفين كأشخاص ضيقي التفكير، وسجناء تصوف أصولي.

وماذا يقال عن الحب؟ إن الكره في العديد من الحالات هو الحارس الأفضل للأمانة الزوجية، فهو يكبل الأشخاص بعضهم ببعض بشراسة أكثر من

الحب . فلا شيء أكثر تأثيراً من المجابهة المتقدمة بين عدوين حميمين . إنهما لا يفترقان أبداً خشية إفلات فريستهما . ومن الخطر الدفاع عنهما ، الواحد تجاه الآخر ، لأن كلا الاثنين يجربان حينئذ التحالف لمقاتلة ذاك الذي يرى مساعدتهما . فهؤلاء أمهات أصبح خناهن سلاحاً لتدمير أولادهن ، وهؤلاء آباء يغمرون أبناءهم بحبهم إلى حد أنهم يحرمونهم من قوتهم ورجولتهم . وها هي خاصة شعوب تحب نير الرعب والديكتاتورية أكثر من الحرية . فماذا نستنتج من ذلك؟ أيتوجب علينا عدم الاهتمام بالبحث عن السعادة البشرية بعد أن تبيننا أنها في العديد من الحالات مصدر للشقاء؟

أنحن في الحقيقة أيضاً مجردون من السلاح كما نبدو ، فلا نستطيع مقاومة الآلام المتعددة التي تبدو لنا مناقضة للمصير الإنساني؟ ألا يبقى لنا إلا الخضوع والاستسلام وترك الحرية لكل واحد لكي يسعى إلى سعادته حيث يشاء ، ومهما كانت النتائج على السلالة والجماعات؟ أيتوجب علينا اعتبار بعض النظريات الاشتراكية في السعادة أوهاماً خطيرة ، بحجة أنها إذا طبقت بشكل سيء تؤدي في أغلب الأحيان إلى بلبلة الأفراد ، وإلى فساد النظام الاجتماعي؟ إن العديد من علماء الاقتصاد والاجتماع قد هاجموا مسألة السعادة البشرية بعقلية تعود إلى ما قبل المنطق ، فاعتقد علماء أنهم يدافعون عن عافية الانسان بتدمير الدين ، وتصرفوا بتأثير اعتقاد لبس له أية صلة بالعلم .

إن علم السعادة البشرية لا يزال كلياً ينتظر أن يوضع . وسنريح كل شيء عندما نتعلم معرفة حدود قوانا وابتدال جهودنا الغرارة . ويجب ألا نسمح للواقع كما يتجلى لنا بتشيط همتنا ، بل ندرس الحالات الخاصة ، والظروف الفارقة للحمل وتفتح الأشخاص . ولنتعلم كيفية استخدام كل الأسلحة التي تتيح لنا النجاح . ولنتعلم بشكل خاص اختيار اللحظة الملائمة لتدخلنا ، مع مراعاة مراحل النمو الطبيعي ، لكي لا نتحرك إلا عندما ينضج الوضع وتمنحنا الطبيعة فرصاً للنجاح . إذ تقدم لنا دراسة الذات الخارقة طرق عمل ثمينة . ويرغمننا وعي ضعفنا على التنكر لأوهام قدرتنا الكلية لكي نسلك سبلاً أقل عمقاً . ويفيدنا التحليل النفسي أن الذات الخارقة الأكثر شراسة يمكن ، في العديد من

الحالات، جرها إلى الخضوع وإلى التعاون مع الفرد الذي كان فريستها المجردة من المقاومة. ويصبح الأمر نفسه مع الذات الخارقة العائلية والجماعية.

إن الصعوبة الكبرى التي ينبغي أن نتغلب عليها تتمثل في الأفكار المسبقة التي نمتلكها جميعاً، إلى هذا الحد أو ذاك، بخصوص هذه المسائل. ونحتاج بأن سوءاً ما يبدو لنا واضحاً، فنعتقد أننا مخولون مقاومته، دون أن نتمعن عن قرب في ما إذا لم يكن هذا السوء في الحقيقة أمراً جيداً في بعض الظروف. إن بعض الاعتقادات الدينية متهمة بأنها مخالفة للعقل، في حين أنها يمكن أن تكون في الحقيقة أكثر جودة من العلم الذي يدينها.

فما العمل لتنظيم تصوراتنا وإيجاد طريقنا؟ ألا نمتلك الرغبة في التوصل إلى توفير العديد من الآلام من أجل الأفراد ومن أجل الجماعات؟ فما هي التجارب الضرورية وما هي التجارب غير الضرورية؟ وكيف نقود الأفراد إلى التخلي عن الآلام التي يتمرد وعيهم ضدها ولكن يستدعيها إحساسهم وتأثرهم؟ وأذكر أن عالماً نفسياً تحدث يوماً مع امرأة حائزة على دبلومين، الدكتوراه في العلوم والدكتوراه في الطب. ولم تكن دراساتها وأبحاثها وقناعاتها المناوئة لرجال الدين، تمنعها أبداً من الالتجاء إلى قارئة كف مربية جداً، وتتبع توجيهاتها في القرارات الهامة في حياتها. ورغم اشمئزازها القوي من ممارسات كانت تراها سخيفة ومضحكة، كانت مدفوعة، بتحريض من بليلة يتعذر وصفها إلى الاستنجاد بالعرافة، إذ تجد نفسها لديها، من جهة أخرى، أمام صاحبة كاملة. وقد أرشدتها إليها صديقات مجازات. وهناك رجال سياسيون وجامعيون، بالرغم من ثقافتهم واحتقارهم «الخرافات» وتنكرهم للدين، يشكلون مثلاً على هذه التوجهات. وهكذا وجد هؤلاء المتحررون، هؤلاء الممثلون للعلم الحديث، أنفسهم مرغمين على استبدال الإيمان سراً بالحنوت الخلفي لمخزن صغير في ضاحية باريسية حيث تستغلهم قارئة الكف. فنرى كم أن الإرادة والعقل وحدهما عاجزان تجاه العدو المتوجب مكافحته.

إن الشعور بالتححرر من أي اعتقاد ديني غير كافٍ لعدم السقوط في أسر العديد من الاعتقادات الخرافية. إذ انكشف أن الثقافة العلمية عاجزة عن الحلول بفعالية محل الإيمان الديني الذي سيكون دعمه ضرورياً للعديد من الملحدين. ومن الخطأ الاعتقاد بأن العلم يستطيع أن يجعل مجدداً غير ذات جدوى معتقدات كانت مبادئها تبدو مخالفة للعقل الخالص. ألم يطلب من العلم أكثر مما يستطيع تقديمه حالياً إلى غالبية الأفراد؟ ألم يستخدم لتجاهل المسائل التي يمتنع على العقل قبولها لأنه ليس مؤهلاً لفهمها؟ وينبغي في اعتقادنا ضبط مسألة معرفة ما يمثله بدقة العلم والدين في بنيتنا النفسية: فهذا العلم الذي باسمه توصل الأفراد إلى التنكر للعديد من الحقائق الأخلاقية، وهذا الدين الذي جعلهم على حد زعمهم خاطئين تجاه حقائق ملموسة.

إن العلم، في نظرنا، تصور خاص للواقع، ووحدهم الأشخاص الذين وصلوا إلى طور ما من نموهم العاطفي يستطيعون اكتسابه. ولنتذكر أن الذات تتسلح بمعرفة تتيح لها النضال ضد الهموم الشديدة والقلق الأولي اللذين توحى بهما للأشخاص أخطار الحياة المتعددة، فالعلم يفيدنا كأولية دفاع في مواجهة ما يصيبنا. إنه يتيح للشخص، كما رأينا في الفصل الثالث، أن يدافع عن نفسه بوساطة المعرفة العقلية بالخطر. بينما الدين، يتيح لهذا الشخص أن يقاوم الأخطار، الحقيقية أو الخيالية، التي لا يمتلك معرفة بها. والتي تلاحقه بشكل أنواع غامضة من القلق. إن العلم، كالدين، ليس، إذاً، غير وسيلة لمقاومة ما يبدو لنا مخالفاً وخطراً.

إذاً، في هذه الخطوط العريضة، ما هي فعالية العلم في مواجهة المسائل التي ترهق البشرية؟ إن مردوده، بشكل عام، قد بولغ في تقديره، فعديدة هي الميادين التي تفلت من يده وتفوته، وعديدون هم الرجال والجماعات الذين يبقى العلم متعذر الإدراك تقريباً بالنسبة إليهم. وهذه هي حال علم النفس وعلم نفس اللاشعور الفردي والجماعي.

ويعلمنا هذا العلم أن الاعتقاد بأن العقل يقود الأشخاص غير كافٍ لكي

يكون الأمر كذلك بل على العكس فهذا العقل، في نظر العلم مرتبط بتأثير الأشخاص وإدراكهم. ففي ميدان الأفعال، مثلاً، تظهر المفاهيم المتداولة ناقصة. فالمعرفة التي يدّعي الأفراد امتلاكها تجاه الواقع وبه ليست في أغلب الأحيان إلا اعتقاداً بالقدرة الكلية للعقل وللإرادة التي، فضلاً عن ذلك، تمنع، ببنود إيمانها، الإنسان من أن يحسب حساب إفلاس العقل تجاه الأحداث ومن أن يفهم ذلك. فحيثما يتخلى العلم عن الإنسان في مواجهة أخطار الحياة، لا يتبقى له، كوسيلة للاحتماء من ألم القلق وعذابه، إلا الدين أو السحر، وبقدر ما بولغ في تقدير إمكانات العلم في عصرنا، بولغ في التقليل من أهمية إمكانات الدين. ومع ذلك ظل الدين الوسيلة الأساسية للدفاع النفسي في وجه القلق بالنسبة إلى الأفراد والجماعات. فالعلم نفسه ليس قضية عقل محض، إنه نتيجة تطور عاطفي ما يجعل التصورات العلمية ممكنة ومفهومة، في حين أنها، في مراحل أخرى من هذا التطور، بدائية أو صعبة الإدراك.

إن مفهوم الذات الخارقة واحد من المفاهيم الرئيسة التي أدخلها التحليل النفسي في العلم، وهناك مفهوم آخر، مهمٌ كذلك، هو مفهوم المراحل المختلفة لنمو الحسابية التي تؤدي، وفق المرحلة التي تم بلوغها، إلى أشكال مختلفة من الحساسية والذكاء. والأديان وحدها، قد طرحت على طريقتها، مسألة الذات الخارقة. إذ تمثلت الذات الخارقة بالألوهية، والنقاش الداخلي للأشخاص مع القوة المسيطرة عليهم قد أسقط على الخارج، واتخذ شكل علاقة مع الإيمان أو مع الشيطان.

إن إلغاء الدين أو «رفضه» لم يتضمن قتل الذات الخارقة. ففي العديد من الحالات، حُرِم الفرد ببساطة من وسائل الدفاع التي يستطيع الدين وضعها بتصرفه لكي يتصالح مع ذاته الخارقة ويحمي نفسه من نفسه ومن ضروب القلق التي كان يتسبب بها. إن الإلحاد لم يحسّن دائماً وضع وسائل دفاع بتصرفه مساوية لتلك الوسائل أو متفوقة عليها. ويفسد هذا الأمر البلبلة الكبيرة والخطيرة التي يعاني منها العديد من الأشخاص والجماعات التي عند حرمانها من الإيمان وضعت نفسها في طريق البحث عن معتقدات جديدة. وهكذا أصبح عدد من اليهود

المتحررين من ربهم المضطهد رُسِّل اشتراكية ضيقة الأفق، تميل إلى استبدال الآلهة المطرودة بعقيدة اجتماعية تتدخل في كل تفاصيل الحياة الخاصة للأفراد، مثل يهوه في عقيدة الجماعات الإسرائيلية تماماً. وقد وجد بعضهم طريقه لاستبدال ربهم بصكوك إيرادات تتمتع بامتيازات شبه دينية تمتص خدمتها كلياً أو جزئياً نشاطهم الأخلاقي. وهناك أيضاً أشخاص يؤمنون بقواعد النحو واللغة، فالفاصلة ونصب الفعل آلهتهم.

ونجد بالنسبة إلى الآخرين أن طقوس العمل تساوي الطقوس الدينية. فيعتقدون أن يوماً يعملون فيه ٨ ساعات يعطيهم حقاً اجتماعياً بالمباركة الأرضية تماماً مثلما تعطي الصلاة الحق بالمباركة الأبدية. وفي هذه الحالات تتم الاستعاضة بالاعتقاد الجديد عن الاعتقاد القديم دون الكثير من الاضطرابات الظاهرة وحتى قد تتلاءم مع حسنات ذات طابع اجتماعي بالنسبة الى جماعات. وتُسَبَّدَل الآلهة المطرودة أحياناً بوسواس، بمخدرات، بمرض؛ ويستبدل الدين بالإصلاحية أو السجن أو الماخور.

ولنتمعن عن قرب في مسألة المرض الذي يستعاض به عن الإيمان، لقد أوضحنا في الفصل الأول كيف تتولد الأمراض العضوية وكيف تقوى. فالسل الرئوي مثلاً قد يحل محل الإيمان ويسيطر على الفرد تماماً مثل إيمان ما بشروطه وتبعياته. فهناك مؤمنو السل كما هناك مؤمنو المخدرات والقرحة المعديّة أو السفلس. إن علاقة هؤلاء المؤمنين بأمراضهم يميّزها نوع من الطقوس الدينية. وهكذا نكون على صلة بطقوس المعالجة التي تتطلبها هذه الأمراض: تقرب من الأدوية، طقوس إزالة التسمم، والتطهير المستعاض به عن الطهارة. إن العديد من الأشخاص قد كرسوا حياتهم لهذه الأشكال من الممارسات الدينية اللاشعورية التي أعقبت الدين المألوف وحلّت محله. وقد تنشأ علاقة مماثلة كذلك بين شخص ما يمتلك اضطرابات في المعدة والأمعاء ويرعاها وبين الأقراص التي يتناولها. فهذه الاضطرابات تتحول أحياناً إلى سرطان يهلك الإنسان من جرائه.

إن بعض العقائد هي بالنسبة إلى النظام الاجتماعي لجماعة ما، مثل المرض بالنسبة إلى فرد ما. فهل من المصادفة أن يكون روبسبير قد أراد استبدال «الطاغية» المطرود بطغيان كائنه الأسمى؟. لقد رأينا كم كان من المستحيل عليه العيش خارج العبوديات الكبرى لذاته الخارقة، وكم كان هذا الثوري عاجزاً عن الدفاع عن الحرية التي تلاحقه. ولكي يخلف الملكية المطلقة احتار بين صعوبات نظام اجتماعي ذي ميول شيوعية واستبدادية الكائن الأسمى. وليست بعض العقائد محررة ومنقذة إلا بوساطة العبودية الدينية التي تلزم هذه العقائد بها الأفراد الساعين إلى إيمان ما. فليس الفكر الديني لدى الأفراد وفي المجتمعات الإنسانية، إذاً، مسألة استدلال واستقراء. وقد استخف فرويد نفسه في كتابه مستقبل وهم بهذا الفعل الأساسي. فما هي، إذاً، طرق النشاط التي يستطيع الأفراد الاعتماد عليها لحماية ذاتهم من ذات خارقة فردية أو جماعية تقضي عليهم بالبنات أو بالإجهاض؟ وما العمل كي لا نبقي من دون حدود ممكنة لنموننا الخاص؟ كيف نمتنع عن أن نكون عدونا بمساعدة موت الفرد والبشر؟

إن طرق النشاط تتنوع وفق الجماعة التي ينتسب إليها الفرد. فأسلحتنا متعددة، وتبدأ من السحر وعبادة القدرة الكلية، إلى الدين والعلم اللذين يستعيدان علاجات أخرى غير السحر. ونخطيء إذ آمنا بعلاج عالمي، بتدبير مقدس قادر وحده على التجاوب مع مستلزمات مصير الإنسان. إذ يتوافق مع كل عقلية تدبير خاص. ولكل طبقة ديناميتها الخاصة، بحسب توازن أو لا توازن الأشخاص الذين يؤلفونها وبحسب مرحلة تطورهم.

إن الذات الخارقة الجماعية الأكثر شراسة هي على ما يبدو الذات الخارقة للجماعات التي ما تزال في مرحلة التصور السحري للواقع. ويستخدم علم الأفراد فيها، كما رأينا سابقاً، ليس في سبيل الوصول إلى السبب الحقيقي لخطر ما يفلت من إدراكهم، بل لإزالة القلق الذي خلقه هذا الخطر ووعيه الممكن. ولن يكون هدف الطقوس الجماعية حماية الجماعة من سوء ما، بل منحها الشعور بأنها محمية، حتى لو استمر السوء لاحقاً بها. وتشتمل هذه

الطقوس، غالباً، حتى على تفاقمه، في جميع الحالات، وعلى سبيل المثال عندما يحتم الخوف من خطر ما، كردة فعل، الهرب في الخطر. وفي هذه المرحلة بالذات تكون الذات الجماعية وخاصة الذات الفردية الذاتين الأكثر ضعفاً. ولا تجابه الذات الفردية إلا نادراً النظم الجماعية التي تتكشف بوجه عام عاجزة عن القبول بوجود ذات فردية تمتلك قدرات بيّنة على المبادرة. فالجماعة، مثل الذات الخارقة الشرسة تنظم حياة الأشخاص كلها، وطريقتهم في الحب، والتغذي والتمتع. وإلى هذه المرحلة من التطور بالذات ينتمي على ما يبدو التنظيم الشيوعي البدائي للمجتمع البشري، فتصبح النزعة الجماعية قادرة بشكل كلي ولا تحسب تقريباً حساب مستلزمات الحياة الفردية. فدراسة المجتمعات البدائية التي وصفها ليفي - بروهيل (Levy - Bruhl) في أعماله التي تناولت الفكر البدائي، يمكن أن تعطينا فكرة عما تمثله حياة الأشخاص في هذه المرحلة من التطور. إن عدد الوفيات هائل ومخيف، والآلام التي تخلفها الحياة الجماعية تتجاوز حدود ما يمكن تحمّله، إذا لم يكن الأشخاص متكيفين مع معاناتهم بفضل حساسية تتفاعل بطريقة مختلفة عن طريقتنا. فليس لحساسيتهم أي شيء مشترك مع ما تمثله هذه الكلمة بالنسبة إلينا. إن دراسة المجانين والمفصومين بشكل خاص، تزودنا بنقاط تشابه لفهم مظاهر هذا الفكر البدائي في هذه المرحلة من نموه فضلاً عن شكل التدبير الفردي والجماعي الذي يسببه. فالشيوعية، في مجتمعاتنا المتمدنة، في الوقت الذي تميل فيه ربما إلى الرجوع إلى هذه المرحلة في مواجهة الحضارة الحالية، لا تمتلك أي قاسم مشترك مع النزعة الجماعية البدائية التي نحن بصدددها.

ويذهب علماء النفس إلى أن العناصر الأولى للمعتقدات الدينية قد تشكلت من خلال ردة الفعل في وجه هذه الذات الخارقة الإحيائية والضعف الخطر، الفردي والجماعي، الذي تشتمل عليه، وهي تتشكل في سيرورة بطيئة لتمايز الذات، ومن الصعب أن نتصور تماماً وبدقة ماهية هذا التطور وبأي مراحل انتقالية قد مرّ. وقد عادوا بأبحاثهم إلى المراحل الأولى لليهودية المسيحية فوصلوا مع موسى إلى المعتقدات المصرية كما تشكلت خلال آلاف

السنين في وادي النيل . وتذهب القصة إلى أن موسى قد وجدته ابنة الفرعون في سرير من القصب عائم فوق مياه النيل . وتروي أيضاً كيف أن موسى الذي تربى وفق التقاليد المصرية أصبح رئيس اليهود الذين منحهم دينهم بعد الخروج من مصر . فتساءلوا عن هذا الدين؟ وعن أصله؟ لا شك في أنه سيكون من المغربي والمرغوب فيه أن ندرس بتمعن التاريخ المصري قبل عهد موسى لنحاول أن نفهم التقاليد التي نشأ فيها موسى وفق الرواية الدينية . ونحن نعرف أن التنظيم الاجتماعي المصري كان في بداياته متميزاً بشيوعية كليانية شمولية، تجمع سلطة الدولة كلها بين يدي الفرعون . ويبدو أن هذا التنظيم الاجتماعي قد توافق مع ذات خارقة صارمة، وجدت تعبيرها الرمزي الأكثر كمالاً في كتل الأهرام المخصصة لعبادة الأموات، وهي العبادة التي أعقبت على الأرجح إحيائية العصر البدائي . وهذه العبادة، بتقاليدها القاسية وتبعياتها المنهكة أرخت ثقلها، كقدر محتوم، على الأحياء الذين حافظوا عليها طوال ما يقرب من خمسة آلاف سنة . ولكن يجب ألا نعتقد أن هذا الأمر قد مرّ دون العديد من ردّات الفعل من قبل الأفراد ودون ثورات جدّية، طرحت للمناقشة وجود هذه التقاليد نفسها .

ومن بين هذه الثورات، أو ردّات الفعل هذه في وجه هذه الذات الخارقة السلفية للمصريين، هناك واحدة منها تستحق انتباهنا بشكل خاص . إذ قبل عهد موسى بقليل، نجح فرعون اسمه أخناتون آتون في إلغاء عبادة الأجداد وإبطالها لاستبدالها بعبادة جديدة: إنها عبادة رع آتون . وتختلف هذه العبادة كلياً عن عبادة رَع آمون، وأوزيريس والأرباب الأخرى التي حل رَع آتون محلها . ويبدو رَع آتون هذا كإله وحيد، موجه للحياة وباعث لها . لقد ملأ الأرض بالحسن والجمال، وتخصب أشعته حقول وادي النيل . فرَع آتون هو الشمس التي تنشط الكائنات وتصبح الأرض من دونها ميتة . إن عبادة الشمس الخصبة، التي تولد من جديد وتبعث، قد حلت، إذاً، على ما يبدو، محل عبادة الأموات التي سحقت الأحياء . ومن المرجح أن أخناتون آتون هو أول من أتى بالتوحيد في تاريخ حضارتنا، دون أن تستعمل تلك الكلمة في ذلك

الوقت. وقد حدث هذا في العام ١٣٨٠ تقريباً قبل الميلاد. ومن الصحيح أن عبادة اخناتون آتون لم تنجح في التأصل في مصر. فقد اختفى هذا الفرعون واختفت معه كل معابد رَع آتون، وكل الأعمال الفنية التي خصصت له.

ويرى علماء النفس أن هذه العبادة تقبع في أصول الموسوية ويتساءلون قائلين: أليست هي التي نُقلت إلينا بعناصرها الأساسية، بالرغم من تحريفها فيما بعد وتكييفها مع مستلزمات الشعب اليهودي؟ هذا هو ما لنا الحق في التساؤل عنه. ويذهب علماء النفس إلى أن موسى مصري. وقد أصبح رَع آتون، رب اخناتون آتون، أدوناي، رب اليهود، وستقدم عبادته العناصر الأولى للموسوية التي أفسحت في المجال لولادة المسيحية. كأن الموسوية تركت المؤمنين بها تحت نير الذنب العالمي للخطيئة الأصلية. ومنعت تصوير صورة الرب. وقد تمردت المسيحية واثارت على الخطيئة الأصلية وعلى تحريم النظر إلى ربها مواجهة. وذهبت إلى حدّ تبني فكرة قتل الرب تضحية للسيد المسيح، التي قبل بها الرب الذي أرسل ابنه إلى الأرض ليكفر بموته عن الخطيئة الأصلية، وبهذا الشكل يحرر الإنسانية. ومن الآن فصاعداً، سيحل هذا الإله المصلوب والبائس في المعابد محل الرب المجرد وغير المرئي الذي مثله يهوه الذي ليس لأي إنسان الحق في التمعن فيه.

فماذا يعني هذا التطور في المعتقدات الدينية من الزاوية التي تهتم علماء النفس هنا؟ يتوجب علينا لفهمه بشكل جيد أن نتذكر ما نعرفه عن التكوّن الطبيعي للذات لدى الفرد في وسط محدد. فخلال الطفولة الأولى تكون الذات رقيقة، وما إن تتكون ذات خارقة أبوية حتى تهيمن عليها كلياً. ولكن بقدر ما تترقى طبيعياً، تقاوم ذاتها الخارقة وتتحرر من السلطة الأبوية ومن سلطة وسطها الاجتماعي. وبدءاً من لحظة معينة، ترد الذات بالكره على قيود ذات خارقة طفولية صارمة، وهو ما يظهر في الأحلام، كما رأينا في الفصل السادس على شكل نضال بين الذات وتأثيرات الذات الخارقة وعندما تتوصل الذات إلى الانتصار في هذا النضال، يذهب الحلم إلى حد تصوير موت الأشخاص الذين يمثلون الذات الخارقة. ولا تتطور ذات الفرد نحو النضج إلا بعد هذا النضال

وهذه التصفية لردات فعل القلق والذنب الذي تسببه .

ونواجه سيرورة مشابهة في سبيل تكوين ذاتنا الجماعية التي تنعكس في تطور المعتقدات الدينية، بدءاً من الإحيائية لدى المصريين الأوائل وحتى المسيحية؟ وفي نظر علماء النفس تشكل الموسوية نقطة وسطى في هذا التطور الذي تتحول خلاله القوى السحرية للإحيائية إلى آلهة لا تزال مرعبة في أصولها. فالمسيحية، بإلهها المصلوب، تتوافق مع مرحلة الذات الفردية التي تلغيها هذه الأخيرة بالموت؟

ومهما يكن، ليس أقل صحة أن المعتقدات الدينية قد سمحت على ما يبدو للأفراد بأن يتصالحوا مع القوى الخفية كالذات الخارقة الكلية القدرة، التي تحدد مصيرهم. وبفضل هذا الميثاق أصبح تصور هذه القوى ممكناً. وابتكرت أول طريقة لعقلنتها وتقريبها. وقد سمحت هذه الطريقة، بفضل الاحتفالات الدينية والأضحيان المعقدة، باكتساب سلطة على الآلهة وتصفية الرعب الذي توحى به، من جراء الاقتراب منها. أفليست هذه الممارسات الدينية سلاحاً ثميناً في نضال الذات الفردية والجماعية ضد الذات الخارقة البدائية الفردية والجماعية؟ وكل فرد في حضارتنا مرغم على مواجهة هذا النضال خلال حياته. لذلك ألا يمثل كون الفرد محروماً من الدين إعاقة لتفتح ذاته الطفولية؟ ألا تكون نتيجة ذلك انكفاء العديد من الأشخاص إلى المرحلة البدائية للذات، وهو انكفاء سيحتم اللجوء إلى وسائل دفاع مثل وسائل الخرافات البدائية والتنظيمات الاجتماعية الملائمة؟ إن المسألة تطرح نفسها والسؤال مشروع ومبرر.

وينتج من ذلك أنه لا يكفي، لتحرير ذات الأشخاص، التأثير فيهم بوساطة براهين تجريدية، بل بوساطة وسائل جديرة بتأمين نموه العاطفي. وليس هذا النمو قضية تثقيف عقلي بقدر ما هو قضية نضج عاطفي يمكن أن يتم بوساطة تدخل الدين من جهة وبوساطة معرفة خاصة: معرفة علم القوانين التي تتحكم بالنمو العاطفي للإنسان، أي التحليل النفسي. وما زال هذا العلم غير مستخدم

لتكوين أفراد جماعاتنا، وهو ليس بعد في متناول المربين وعلماء الاجتماع ورؤساء الدول. ولعلنا بحاجة إلى عدة أجيال كي نتوصل إلى إدخال تربية التحليل النفسي في عاداتنا وآدابنا. ولكن من الأكيد أن هذه التربية وحدها ستتيح لنا بلوغ الهدف الذي يسعى إليه مشرعونا وحكوماتنا في أيامنا الحاضرة. وسنُفهمنا أن النجاح المادي والمعنوي يتطلب أن يكون معداً ومحضراً لكي يكون محتملاً. وهذا التحضير يستلزم بعض الاختبارات وبعض المعاناة والتضحية التي يفر منها الأشخاص عادة لأنها مصدر للشقاء. ومع ذلك هي ضرورية لتأمين السعادة البشرية المتميزة بالتوازن النفسي والهيمنة على الذات. وتكيف جيد مع ضرورات الواقع وصحة الأفراد والبشرية.

إن هذه الاختبارات والمحن والمعاناة والتضحيات، ما إن تعتبر محتمة وتشكل جزءاً من التفتح الطبيعي للفرد حتى تفقد مرارتها وتصبح محمولة. فالفرد الذي يفهم ضرورة الخضوع لها يقبلها بشجاعة ويستقبلها بفلسفة. وهكذا يمكن أن يولد شكل جديد من التعاون مع قوى الطبيعة، ويمكن لسعادة البشرية اتخاذ طابع أكثر واقعية مما لو كانت مستحقةً ومكتسبةً بوساطة وسائل تسمح للأشخاص بالحصول على متعة الأعطيات التي يمتلكونها.

إننا نعتقد أن هذه المعرفة وهذا التعاون سيوفران العديد من الآلام الفردية والجماعية التي سيشعر الفرد تجاهها حيثئذ أنه مسلح بشكل فعال. إن السعادة المفروضة مصدر أكيد للشقاء والفشل المتعدد، مادامت الشروط العاطفية الضرورية لقبولها لم تنفذ. وهذا صحيح أيضاً بالنسبة إلى سعادة الأفراد المادية والمعنوية وإلى سعادة الجماعات. وسيتوجب على الاشتراكيين أن يعيدوا النظر في أساليبهم إذ كانوا يرغبون حقاً في خدمة قضيتهم. وسيتحرك بالشكل عينه رجال الدولة، والحكومات لتوفير صحة الجماعات التي يقودونها وقوتها وازدهارها. وسيفهمون بأي آلام يدافع عن بعض الحسنات المقدسة، وإلى أي حد يمكن لبعض الحسنات الظاهرة أن تكون في الحقيقة أخطاراً وسيتبينون المشكلة في عصرنا الحاضر، وربما في أكثر من أي عصر مضى، لا تقوم في صعوبة الحصول على ما لا نملكه، بل في صعوبة استخدام الموارد التي سبق

الحصول عليها والتي أصيبت بالعقم من جراء كون الوعي البشري ما يزال غير مسلح بشكل كافٍ لتنميتها. ويجري الأمر نفسه مع بعض وسائل القتال، فالانتصارات الأكثر عظمة لا تتحقق فقط في ميادين المعارك، بل في أعماق الضمائر والوعي.

إن هذه المعارف لسوء الحظ يمكن نقلها بوساطة مفاهيم واردة في الكتب. ففي هذا الميدان بشكل خاص لا يفهم جيداً إلا ما يتم تصوره. فيتوجب علينا، إذاً، المشاركة في خلق جو أو حالات نفسية تتيح للأشخاص أخيراً إدراك حقائق لا تظهر لهم إلا عندما يتعلمون إدراكها. لقد اعتدنا طويلاً، وطويلاً جداً على أن نجعل من المنطق المعيار الوحيد للحقيقة. أما اليوم فنحن نعلم أن هناك حقائق تفلت من المنطق، ولكن ليس من الحساسية والإدراك. وهذه الحقائق هي الحقائق التي نريد كشفها للجماعات التي تجازف بتعريض حياتها نفسها للخطر من جراء كونها تجهلها.

فهرس المحتويات

٥	- تمهيد
٨	- أعراض الفشل .
١٨	- الذات الخارقة الفردية والجماعية وأثرها في الفرد .
٣٦	- الحياة الجنسية والليبدو .
٥١	- ملامح من الحياة الجنسية للرجل .
٦٤	- مظاهر من الحياة الجنسية عند المرأة .
٧٤	- أعراض الفشل وانعكاسها في الأحلام .
٨٩	- أعراض الفشل وتجلياتها في المجتمع .
٩٩	- الجماعات الثورية وأعراض الفشل .
١٠٥	- جان. جاك روسو والفشل .
١٣٢	- روبسبير والفشل .
١٦١	- نابوليون والفشل .
٢٤٣	- نظرات موجزة وعميقة في السعادة .

الفشل

الفشل هزيمة مرّة تتربص بالإنسان في ميادين الحياة كافة: العاطفية والاجتماعية والمهنية والفكرية، فيسقط الإنسان هناك حيث النجاح ممكن ومتوقع وتتلاشى الآمال والأحلام على صخرة الواقع الصلبة، ويتحول المرء صرخة في هوة لا ترحم. ويحاول كثير من الناس تفهّم أو تعليل فشلهم أو فشل قريبيهم أو صديقهم أو أحد معارفهم، فيردّون هذا الفشل إلى عوامل خارجية كالظروف المهنية أو الاجتماعية أو السياسية، أو إلى نقص في المؤهلات أو عدم مرونة تجاه العوائق والمعطيات. والواقع أن الفشل حالة تختلف باختلاف الأشخاص فمنهم من يمر به فيصبح أكثر قوة، ومنهم من يتعرض له فيحطم الفشل أجنحته، ومنهم من لا يستطيع تحمّل مراراته فيهلك فيها؛ ومنهم، وهذا هو الأخطر، من يسير مباشرة إلى الفشل بقدميه، فيسعى إليه سعياً نتيجة رواسب قديمة وظروف نفسية وعائلية صعبة مز بها في طفولته، وهو ما يتوقف عنده هذا الكتاب بشكل عميق.

ولعل من أكثر الأمور إمتاعاً أن هذا الكتاب لا يقتصر على الأبحاث النظرية في دراسة الفشل كعارض من أعراض الأمراض النفسية، بل نراه يركز على الأمثلة المقتطفة من حياة الأشخاص العاديين.

هذه المواقف، بجذورها النفسية، هي التي يهتم بها هذا الكتاب الرائع متوسلاً التحليل النفسي. ولعلنا نكون بترجمته قد سدّنا ثغرة في مكتبتنا العربية والنفسية والعائلية.

١٩.٢٥٠

To: www.al-mostafa.com